مطبوعات كتابي
الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية
يصدرها حلمي مراد



الجزء الخامس والأخير

اعترافات

جان جاك روسو

اعترافات

جان جاك روسو



LES CONFESSIONS

DE

J.J. ROUSSEAU

الثمن ١٢ قرشا

وقعت أخطاء فى ترقيم الجزء الثالث من « الاعترافات » - العدد ٣٠ « مطبوعات كتابى » - ترتب عليها خطأ فى ترقيم الجزء الرابع ، لذلك ننبه القارىء الى أن الجزء الثالث يبدأ فى **صفحة ٤٥٧** (الغلاف الخارجى) وينتهى فى **٦٨٤** . ثم يبدأ الجزء الرابع فى صفحة **٦٨٥** وينتهى فى **٩١٢**

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الثانى والثلاثون

اعترافات جان جاك روسو

ترجمة : محمد بدر الدين خليل

الادارة : عمارة الجندول — ١٤ شارع ٢٦ يوليو — بالقاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦

December 1957

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن تسعة وستون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر ‥ وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الاول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجرة البريد المسجل ، ماعدا العدد : العاشر وثمنه عشرون قرشا والأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، أما الاعداد الستة الاولى والعدد العشرون فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها.

◆ الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وأمريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة أجر البريد المسجل ، وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا بخلاف البريد الجوى .

◆ ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه .

واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بأن الكوبونات الدولية فئة الاربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الأبيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) الخطيئة الاولى ، أوديب ، مدام بوفارى ، (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأ للحب ، جين اير (ثلاثة أجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثأر للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، أسرار الجاسوسية ، بيللا دونا (ثلاثة أجزاء) ، بوشكين ، وجان جاك روسو ‥ وثمن النسخة من كل عدد عشرة قروش ، فيما عدا الأعداد : ١ و ٤ و ٧ و ١٩ و ٢٢ فثمن النسخة عشرون قرشا ، والأعداد : ١٢ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١ اثنا عشر قرشا ، و ٣ و ٥ و ٦ ثمانية قروش ، ويضاف الى هذا السعر قرشان مقابل أجر البريد المسجل .

اعترافات

جان جاك روسّو

"الجزء الخامس"



الأجزاء السابقة .. فى سطور

الكتاب الأول

• **ولدت** فى (جنيف) ، فى سنة ١٧١٢ ، لأب كان يعمل فى صناعة الساعات ، ولأم توفيت عند مولدى . وبدلا من أن يكرهنى أبى لذلك ، فانه أسرف فى حبه لى ، لأننى كنت شديد الشبه بأمى

• **تنبه** احساسى قبل ان يتنبه فكرى . ثم عمد أبى الى أسلوب خطر ، اذ اشركنى فى قراءة الروايات والكتب الدسمة

• **اضطر** أبى الى أن يهجر (جنيف) عقب مشاجرة بينه وبين عسكرى فرنسى ، كادت تلقى به الى السجن دون مبرر قانونى . فبقيت فى كنف خالى «برنار» ، الذى كان متزوجا من عمتى ، والذى أرسلنى مع ابنه الى (بوسى) لنقيم فى رعاية القس البروتستانتى « لامبرسييه » ، ولنتلقى العلم على يديه ويدى اخته . وكانت الآنسة «لامبرسييه» تولينى حنان الأم ، ولكن عقابها اياى نبه المشاعر الحسية والشهوانية فى كيانى !

• **على أثر** عقاب ظالم ، لذنب لم ارتكبه ، كرهت الظلم ، وولت طمأنينة طفولتى . وتركت الدراسة فألحقنى خالى بمكتب موثق للعقود ، على أمل أن أشق طريقى فى المحاماة ــ فيما بعد ــ ولكنى لم أستسغ هذا العمل ، فرأى خالى ان من مصلحتى أن أتعلم حرفة . وألحقنى كصبى ــ أو تلميذ صانع ــ لدى حفار كان ينقش على المعادن . وهناك اختلطت بالعمال الذين كانوا يكبروننى سنا ، فتعلمت السرقة ، لا سيما وان معلمى كان يقسو على بالعقاب والحرمان . ومع ذلك فاننى لم أكن أسرق حبا فى المال أو الحيازة .. والى جانب هذا ، اشتد شغفى بالقراءة حتى أصبح تهوسا

• **واضطرتنى** قسوة معلمى ، ونفورى من حياتى هذه ، الى الهرب من (جنيف) .. فانتهى بى المطاف الى سيدة محسنة فى (انيسى) ، كان ملك سردينيا قد خصها بمعاش، لأنها اعتنقت الكاثوليكية .. تلك هى «مدام دى فاران» ، التى اشفقت على ، وأرسلتنى الى دير نبذت فيه عقيدتى البروتستانية ، وأصبحت كاثوليكيا

• **واستطبت** بعد ذلك حياة الترحال ، وعانيت الفاقة والمتاعب . ثم انتهيت الى العودة الى السيدة دى فاران ، التى رحبت بى ، وانزلتنى من نفسها منزلة الابن، وافردت لى غرفة فى دارها ، وراحت تنفق على تعليمى الموسيقى ، رغم تضاؤل مواردها .. وتعلقت بهذه السيدة تعلقا ملك على كل حواسى وعقلى .. وبمرور الأيام صرت ادعوها « ماما » !

• **وكانت** هذه الحياة أبهج من أن تدوم . فقد أوفدتنى «ماما» مرة لأعاون السيد «لوميتر» ، الذى كان رئيسا لفرقة الموسيقى بكنيسة (انيسى) ، والذى اختلف مع بعض رهبان الكنيسة فشاء ان يفر من وجوههم .. وقد رافقته الى (ليون) . وعندما عدت الى (انيسى) ، اذا بى أفاجأ بأن «ماما» قد رحلت فى بعض شئونها ، ولم ادر لها مقصدا أو مقرا !

• **وأقمت** فترة مع «فينتور» ، وهو شاب كنت أعرفه من قبل ، وكان يزعم أنه موسيقى موهوب . وكان لبقا، أنيقا، مرحا، يستهوى النساء .. وفى تلك الاثناء ، كان أبى قد تزوج من امرأة على شىء من الدهاء والقول المعسول ، وشغل عنى !

• **انتهى** بى المطاف الى (لوزان) ، حيث رحت أتكسب عيشي بتدريس الموسيقى ، باذلا جهدى ــ فى الوقت ذاته ــ الى تنمية معرفتى بها . وحاولت اذ ذاك أن أكون ملحنا ، دون ما المام كاف بأصول التلحين ، فمنى لحنى الأول بفشل ذريع ، جعلنى أعيش فى حزن وهوان لفترة من الوقت

• **ولم** أكف طيلة هذه الأحداث عن الحنين الى «ماما» ، لا لحاجتى المادية فحسب ، وانما لحاجتى القلبية قبل كل شىء ! .. ومع ذلك ، فان تعلقى بها — رغم ما كان عليه من تأجج وقوة — لم يكن ليحول بينى وبين أن أحب غيرها . ولكن ، على غير شاكلة حبى لها !

• **وقدر** لى أن أذهب الى باريس ، ولكننى لم ألق فيها الحظ الذى كانت تصوره لى احلامى . على اننى ظفرت هناك بنبأ جعلنى انطلق من جديد بحثا عن السيدة دى «فاران» . وهكذا أخذت أجوب الاقاليم على غير هدى ، متعرضا للتشرد ، والتضور جوعا ، والنوم فى الطرقات .. حتى عرفت أخيرا أن «ماما» الحبيبة قد استقرت فى (شامبيرى) ، فخففت اليها .. وما كان أحلاه من لقاء !

• **واستطاعت** «ماما» ان تحصل لى على منصب فى «المساحة» ، فبدأت اكسب عيشى بعمل مشرف ! .. وكانت هذه خير خاتمة لباكورة صباى !

• **وأقمت** فى دار «ماما» ، فى (شامبيرى) .. ولكنها لم تكن فى بهاء دارها الأخرى فى (انيسى) ، اذ كانت موارد «ماما» فى تضاؤل ، وكانت أمورها مضطربة . وفى هذه الحياة الجديدة ، اكتشفت ان «ماما» كانت على علاقة بخادمها الوفى «كلود آنيه» . وكان شابا لايكبرنى بكثير ، ولكنه كان رزينا وقورا ، غدا منى بمثابة المربى . ومع أننى لم أنج من الألم ، اذ أدركت ان ثمة من استطاع ان يعيش مع «ماما» فى مودة تفوق مودتى كثيرا ، الا ان وفائى للسيدة امتد الى الشاب ، فقد كنت راغبا فى سعادتها هى قبل كل شىء !

• **وانصرفت** الى الموسيقى — فى تلك الاثناء — فى استغراق ملك على حواسى ، وحملنى على ان استقيل من عملى فى «المساحة» ، وأن أستعين على الحياة بتدريس هذا الفن .

وقادنى هذا الى المجتمع الراقى ، والى دور ذوى الجاه والثراء . وبقدر ما تعرضت للمغازلات من فتيات ونساء هذا الوسط ، فان سذاجتى ــ التى ذهبت الى درجة الغباء ــ كانت تفوت على الفرص . الى ان احست « ماما » بأن احدى السيدات كانت توشك ان توقعنى فى احابيلها ، فأشفقت على من مخاطر شبابى ، ورأت أن تنقذنى منها بأغرب طريقة خطرت لامرأة فى مثل ظروفها .. بأن تمنحنى نفسها ! .. وهكذا أخذت « ماما » تروى عطشى الى النساء من معينها .. على ان العلاقة البدنية لم تفسد شيئا من براءة علاقاتنا العاطفية والروحية والفكرية ، كما انها لم تؤثر على علاقة كل منا بخادمها وعشيقها « كلود آنيه » ، بل قامت بين « ثلاثتنا » زمالة قد لا يكون لها مثيل على الارض !

• **وما لبث** « آنيه » ان مات ــ وهو فى ريعان شبابه ــ فحللت محله فى تدبير شئون « ماما » وماليتها . ولاحظت أن مواردها كانت فى نضوب ، فأخذت أعمل جاهدا على أن اجنبها هاوية الافلاس . وانتهى بى التفكير الى وجوب الحصول على عمل ، كى أعول من دخله « ماما » اذا ألمت بها الفاقة . وفى سبيل ذلك رأيت أن أتعلم التلحين ، فكان هذا الاتجاه عاملا جديدا على تبديد مواردها المتضائلة ! .. وكذلك شرعت فى تأليف الأغانى .

• **وقضيت** عامين أو ثلاثة بين الموسيقى ، ومجالسة الحكام وذوى الجاه ، والرحلات .. وما لبثت صحتى ان اخذت تتداعى ، وغلبنى الاكتئاب والأسى والتشاؤم ، فنصح لى الطبيب بأن أقيم فى الريف ، وسرعان ما استأجرت « ماما » منزلا ذا حديقة وبستان ، فى ضيعة (شارميت) . وهناك ، نعمت بأهنأ فترة فى حياتى .. مع « ماما » !



• **ولكنه** كان هناء قصير الأجل .. ففى تلك الأثناء ، شعرت بضعف فى القلب ، وضيق فى التنفس ، وطنين فى الاذنين ، وتراخ فى حيويتى ، ممـا أوحى الى بأن عمرى لن يطول ، فرأيت ان استمتع بما تبقى منه اعظم استمتاع . واقبلت على دراسة العلوم والآداب ، كما اكثرت من الأسفار ، انشد علاجا لعللى .

• **وفى احدى** هذه الاسفار ، التقيت بالسيدة دى «لارناج» وكانت تكبرنى فى السن كثيرا ، ولكنها راحت تعمل على اغوائى ، حتى اذا رأت ما كان الخجل والتردد يخلقانه من قيود تشل اقبـالى عليها ، لم تتورع عن أن تـكون هى البـادئة بالعناق والتقبيل .. واصبحت عشيقتى خلال الرحلة ! ولو اننى عشت مائة عام ، لما استطعت ان افكر قط فى هذه المرأة الفاتنة دون ان يطغى السرور على ! .. كانت متعتى مع « ماما » مشوبة بالأسى والضيق .. اما مع السيدة دى لارناج ، فقد كنت فخورا برجولتى ، مزهوا بسعادتى

• **وكانت** صدمة لى ان عدت الى «ماما» ، فوجدت ان شابا غيرى قد حل محلى اثناء غيابى .. وكان جاهـلا ، مغرورا ، استطاع ان يفرض على «ماما» سلطانه ، فلم استطع ان أطيق بقـاء الى جوارها ، وقررت ان اهجر الدار ، وان أرحـل الى باريس ، لأعرض على « الأكاديمية » طريقة ابتكرتها لتسجيل « النوتة » الموسيقية بالأرقام بدلا من العلامات

الكتاب الثانى

• **وصلت** الى باريس فى خريف سنة ١٧٤١ .. واستطاع بعض من حملت اليهم خطابات للتوصية ، ان يمكننى من التقدم الى «الاكاديمية» برسالتى التى قدر لى ان يناقشنى فيها علماء لم يكن بينهم من له المام كاف بالموسيقى ، فانتهوا الى الحـكم بعدم صلاحية طريقتى . وبدلا من ان استسلم للقنوط ، اسلمت

نفسى للخمول وللقدر ، ورحت اقتر على نفسى لأفيد بما تبقى من مواردى المتضائلة

• **واخرجنى** الأب « كاستيل » من استسلامى المكسل ،اذ عرفنى بالبارونة « دى بوزينفال » وابنتها المركيزة « دى بروجلى » ، وبالسيدة «دوبان» ..وكن يملن الى الموسيقى.. ولقد ابدت لى السيدة «دى بروجلى» عطفا خاصا ، ونصحتنى بتعلم « الاتيكيت » ! .. اما السيدة «دوبان» ، فكانت فاتنة الشخصية . وقد تعرفت لديها على السيد « دى فرانكويى» ، ابن زوجها . وقد اطمعنى لطفها ، فهمت حبا بها ، وكتبت لها رسالة غرامية ، ردتها الى مع تأنيب جمد له دمى ! .. وارتد عقلى الى ــ بعد ذلك ــ فقنعت بصداقتها والتردد على دارها .

• **وفى** تلك الاثناء ، اقبلت على وضع « اوبرا » عن حياة ثلاثة من الشعراء ، هم «تاس» ، و«اوفيد» ، و«اناكريون» .. وقد اسميتها «عرائس الشعر اللطاف» .وقبل أن أفرغ منها ، التحقت بالعمل كسكرتير للسيد الكونت « دى مونتيجى » ، سفير فرنسا فى البندقية .. ورحلت الى هناك .

• **واستطعت** فى هذا المنصب أن أبدى مهارة وحكمة ، وأن اكتسب محبة الفرنسيين المقيمين فى (البندقية)، وأن أكتسبت عداء السفير ، اذ كان رجلا احمق ، جاهلا، جشعا ،أسلم قياده لمستشارين من الايطاليين استغلاه اشنع استغلال ، وأوقعا بينه وبين الفرنسيين هناك ..واستطاعا ان يوغرا صدره على لأننى كنت مخلصا لعملى ، جادا فى مسلكى ، معتزا بكرامتى . وكان من جراء ذلك أن راح السفير يضايقنى ويكثر من مشاكستى ، حتى اضطررت ــ فى النهاية ــ الى أن أترك العمل فى السفارة ، رغم ان السيد « دى مونتيجى » أبى ان يسوى حسابى ، وان يدفع الى استحقاقى

• **وفى** (باريس) ، رحت اشكو تصرفات السفير معى لذوى

النفوذ ، فكان كل امرىء يقرنى على اننى أوذيت وظلمت ، ولكن احدا لم يحاول ان ينصفنى .. على ان الرجل لم يلبث ان جنى على نفسه بتصرفاته الحمقاء ، فاستدعى الى باريس ، واقصى عن منصبه ، واوعز اليه ان يرد الى ماكنت استحق من نقود لديه .. على ان عدالة شكاياتى ، وعدم اكتراث احد بانصافى طيلة تلك الفترة ، خلفت فى نفسى بذور السخط على المدنية الحمقاء ، التى تضحى نظمها بالمصلحة العامة ، والعدالة الحقة ، وتخلع شرعية السلطة العامة على جور الأقوياء واستبدادهم بالضعفاء !

• **وتفرغت** لاستكمال « الاوبرا » التى كنت قد بدأتها .. وفى تلك الاثناء ، تعلقت بفتاة محتشمة ساذجة كانت تعمل فى الفندق الذى نزلت فيه ، فسرعان ما برح بنا الهوى .. واعترفت لى بزلة وحيدة تعرضت لها فى فترة مراهقتها ، فلم يحل هذا دون أن ازداد حبا لها !

• **واكتملت** «اوبراى» ، فعرضتها على «رامو» - الذى كان واسع النفوذ فى الوسط الفنى - ولكنه تحامل عليها ، واذكت تحامله تلميذته - السيدة ديلا بوبلينير - فراح يتهمنى بأننى سرقت الالحان .. على ان السيد «ريشيليو» شجعنى ، وسألنى ان اغير الفصل الأخير من « الأوبرا » ، ليسعى لعرضها على مشهد من الملك . وما لبث أن شغلنى عنها بأن اناط بى تعديل « اوبرا » كانت من تأليف « فولتير » وتلحين « رامو » . وادى اشتراكى مع هذين العظيمين فى عمل كهذا ، الى اذكاء روحى المعنوية . غير ان « رامو » استطاع - بالتواطؤ مع السيدة ديلا بوبلينير - ان



يحول دون أن يعرف الرأى العام نصيبى فى ذلك العمل !

• **وادت** كل هذه الظروف الى تثبيط عزيمتى نحو الرقى، فلم اعد افكر فى اكثر من كسب قوتى وقوت تيريز ، بالعمل كسكرتير للسيدة دوبان ، والسيد دى فرانكويى .. وأقبلت فى تلك الاثناء على دراسة الكيمياء مع الأخير .

• **انتجت** علاقتى بتيريز ثمرة اسلمناها الى ملجأ اللقطاء .. وكذلك فعلنا بابنائنا الذين تعاقبوا حتى صاروا خمسة !

• **وما لبثت** ان قرأت صدفة عن الموضوع الذى حدده المحفل العلمى بديجون لمباراته فى العام التالى ، وهو : « هل ساعد تقدم العلوم والفنون على افساد الأخلاق أو على تطهيرها؟» .. وانتابتنى شبه غيبوبة ، واتانى خلالها الهام اوحى الى بمقال فى الموضوع أرسلته الى المحفل

• **وفى** تلك الاثناء كنت قد أثثت لنفسى مسكنا خاصا ، ضممت فيه «تيريز» الى .. وسرعان ما اقبلت اسرتها تعيش معنا . وبقدر ماسعدت بلحظات هانئة مع فتاتى ، فاننى شقيت بأهلها الذين كانوا يستنفدون مواردها ـ من عملها ـ ومواردى

• **وقدر** لمقالى ان يفوز فى العام التالى ـ ١٧٥٠ ـ بجائزة محفل ديجون ، فأيقظ ذلك فى نفسى حب التحرر من خدمة الغير ، والسعى الى ان اكون انسانا فاضلا ، ذا استقلال ذاتى .

• **واضمحلت** صحتى ـ فى هذه الفترة ـ فأوحى الى طبيب شهير بأننى لن أبقى فى الحياة لأكثر من ستة أشهر . فقررت ان اعيشها حرا مستقلا ، ولو اضطرنى هذا الى حياة الكفاف .. واشتد عزمى على ان اتمسك باستقلالى ، فاستخدمت كل قواى الروحية فى تحطيم اغلال الرأى العام ، وفى ان أقدم بشجاعة على ما اراه خيرا ، دون ان أحفل بآراء الناس . فأوغر مسلكى هذا صدور اصدقائى

• **وعملت** كناسخ للقطع الموسيقية ، بعد ان استقلت من خدمة السيدة دوبان والسيد دى فرانكويى .. واخذت انحو نحو التقشف لأصلح من أمر نفسي . وكان مقالى قد أحدث فى تلك الأثناء ضجة فكثرت شواغلى الأدبية ، حتى الهتنى عن عملى فى نسخ الموسيقى . وأثار المقال انتقادات مريرة ، اشترك فيها الملك « ستانيسلاس » البولندى بنفسه ، فانصرفت الى الذود عن آرائى فى جرأة خشى على بعض اصدقائى منها

• **وما لبثت** ان ادركت ان العيش فى فقر وحرية ، ليس بالسهولة التى يتصورها المرء دائما ! .. ولقد حاول بعض المعجبين بى أن يعوضونى عن ذلك بالهدايا ، ولكنى رحت ارفض جميع الهدايا ، دون ما استثناء .. ولم يصادف هذا المسلك هوى من نفس السيدة لوفاسير – أم تيريز – ولا أفلح ما اتسمت به ابنتها من تجرد من النفع الذاتى ، فى صدها عن قبول الهدايا من وراء ظهرى ، ومن اغرائها ابنتها على ان تقبلها هى الأخرى ، أو أن تكتم عنى أمرها ، على الأقل !

• **ومن** هنا اشتد الخلاف بينى وبين السيدة لوفاسير التى راحت تحرض ابنتها على ، وتذمنى لدى اصدقائى ، وتتآمر مع من كانوا يحاولون منهم ان ينالوا منى .. ولقد ادى اندماجى فى المجتمع الى ان اعمل على اذكاء اعتدادى بنفسى ، فأحالنى الحياء الى هجاء لاذع ، والى ان ازدرى آداب اللياقة .. فاضطر الساخرون الى ان يحدوا من سخريتهم

• **وادت** قصة « عراف القرية » الى تألقى فى المجتمع ، فكثر معارفى .. وكانت هذه « الاوبرا » من طراز جديد ، وقد استطاعت ان تكتسب اعجاب الجمهور ، كما حضر الملك وحاشيته عرضها فى البلاط . ولقيت من التكريم ما أثار خجلى ، حتى اننى عندما دعيت الى القصر الملكى ، وقيل لى ان من المعتقد ان الملك قد

ازمع ان يعلنني بأنه قرر منحي معاشا سنويا ، بادرت الى التهرب من المناسبة ، وتخليت عن المعاش .

• **وزاد** النجاح من تنكر اصدقائي لي ، وتألبهم علي ٠٠ وفي تلك الاثناء ، وضعت رسالتي عن : « حديث في عدم المساواة » ، التي أثارت فيما بعد ضجة كبيرة ، واجتلبت على نقمة الحكومات ، لا سيما حكومة (جنيف)

• **وفي** ذات يوم ، دعتني السيدة ديبيناي الى مرافقتها الى ضيعتها (لاشيفريت) ، حيث كان العمل جاريا في اضافة جناح الى القصر ٠٠ وهناك ، وجدتها قد جددت بناء كوخ صغير كان في طرف المتنزهات الملحقة بالقصر ، في متاخمة غابة (مونمورنسي) ٠٠ وكنت قد أبديت من قبل اعجابي به لقيامه في موقع منعزل جميل ، فعملت السيدة على اعداده لسكناي ، ودعتني للاقامة فيه . وبالرغم مما اثاره هذا من تخرصات « اصدقائي ! » ، الذين راحوا يروجون انني اعيش على كرم السيدة ديبيناي ، فانني لم أتردد في هجران باريس ، والاقامة في (ليرميتاج) ــ كما كان ذلك الكوخ يسمى ــ مصطحبا « تيريز » وامها

• **وهناك** ، تفرغت للانتاج الادبي . ومع انني بدأت اشعر بأن اقامتي على مقربة من السيدة ديبيناي ، وفي ضيافتها ، قد حد بعض الشيء من حريتي ، الا ان هذا لم يحد من اقبالي على الانتاج

• **وفي** هذه الفترة بالذات ، اشتد توثق العلاقات بيني وبين « تيريز » ، وازداد فهم كل منا للآخر ٠٠ وقد يعجب القارىء لهذه الرابطة التي توجتها في شيخوختي ــ وبعد خمس وعشرين سنة من المعاشرة ــ بالزواج ٠٠ قد يعجب القارىء لهذه الرابطة ، اذا صارحته بأنني لم أحب يوما « تيريز » ولا اشتهيتها ٠٠ ومع ذلك فانها كانت « وماما » أعز امرأتين لدى ! ٠٠ والواقع ان



مادفعنى الى التعلق بتيريز – من البداية – هو اننى كنت اتوق الى زميلة اندمج معها روحا وقلبا.. وكان لطفها وسذاجتها واخلاقها كفيلة بأن توحى الى بأنها خير من تصلح لذلك . ولكن ولاءها لأمها واسرتها ، وجشع هؤلاء ، كانا يفسدان علينا هناءنا .. وكانا يجعلان تيريز ملكا لاهلها ، اكثر مما كانت ملكا لى ، او ملكا لنفسها !

• **وكنت** أشعر بحاجة الى صديق يملأ فراغ قلبى بوده ، ويحفزنى على التخلص من كسلى المعتاد ، فرحت أعزز علاقاتى بديدرو ، والراهب دى كونديلاك ، وغيرهما .. وما لبثت ان وجدتنى مرتميا فى احضان الأدب ، الذى كنت قد هجرته . وافضى بى هذا الى دنيا جديدة من الفكر ، فلم أعد أرى فى فلسفاتنا سوى خطل ، ولا فى نظامنا الاجتماعى سوى ظلم وشقاء .. وانتهيت الى أن أوثر الحياة فى عزلة – فى الريف – متبعا سنن الطبيعة ، فلم يغتفر لى أصدقائى المزعومون هذا المسلك !

• **وقضيت** أربع سنوات فى هذه الفورة ، لم اعتنق خلالها سوى كل جليل وجميل . ومن هنا نبعت بلاغتى المفاجئة ، وتولد ذلك اللهب السماوى الصادق ، الذى ألهبنى وانتشر فى كتبى الأولى .. وازدريت أخلاق عصرى ومبادئه واوهامه ، دون أن أحفل بسخرية أصحاب تلك المبادىء . فاذا معظم أصدقائى – لا سيما البارون «دولباخ» وعصبته ، و «جريم» و « ديدرو » – ينقلبون على ، بل انهم استمالوا اليهم أم « تيريز » ، وحاولوا استمالة « تيريز » نفسها ، لولا أن حب الفتاة ووفاءها دفعاها الى ان تصارحنى بكل شىء ، عندما

أدركت الخطر الذى كان محدقا بى ، من جراء دسائس الأصدقاء المزعومين

• ولم يعكر على صفاء العيش فى مسكنى النائى ، وعزلتى الفاتنة ، سوى اننى كنت رهنا بتدبيرات السيدة «ديبيناى» ، وازعاج الزائرين الذين كانوا يتوافدون على دارى .. وأخذت فى تلك الأثناء أحن الى أيام (شارميت) ، والى الماضى الهنىء ، والى الحسان والتلميذات اللائى عرفتهن فى شبابى الباكر .. واذا بجان جاك الجاد ، المتقشف ، الذى اشرف على الخامسة والاربعين ، يرتد فجأة هائما وراء الحب .. وطوحت بى استحالة اقتناص المخلوقات الحقيقية ، الى عالم الأوهام والخيالات ، كى أغذى صبابتى من عالم خيالى ، تعمره أطياف فاتنة !

• وفى أوج نشوتى بهذا العالم السحرى ، عاودنى المرض القاسى (احتباس البول) . وضاعف من أساى المتاعب المنزلية . اذ كانت السيدة «لوفاسير» – أم تيريز – تؤلب ابنتها على . ورأيتها ممعنة فى التآمر مع «جريم» وعصبة « دولباخ » ، فلم اجد بدا من ان اقصيها عن دارى ، وان كفلت لهـا نفقات الاقامة فى (باريس)



• على اننى لم ألبث ان عدت الى عالم خيالى ، فتمثلت الحب والصداقة – وهما معبودا قلبى – فى شكل حوريتين متجانستين ، متحابتين ، ورحت اضفى عليهما كل ما كنت أعجب به من مفاتن الجنس الآخر ، ووهبت احداهما حبيبا كانت الأخرى صديقته الحنون .. ثم اسكنتهما عالما سحريا جمعت فيه كل ما كنت أعجب به من روائع الطبيعة فى البقاع التى شهدتها .. ثم رحت أسكب خيالاتى على الورق ، مؤلفا

منها كتابى : « جولى »

◆ **وفى** تلك الأثناء ، زارتنى السيدة الكونتة دوديتو ، أخت السيد ديبيناى ، فتوثقت بيننا عرى الصداقة . وكانت زيارتها اشبه بفاتحة قصة غرامية .. ولم تكن السيدة دوديتو جميلة ، فقد شوه الجدرى وجهها ، كما انها كانت قصيرة البصر . ولكنها اوتيت اشراقة الشباب ، وجاذبية قوية ، وقواما بديعا ، وخفرا يضاعف من بهائها . كما كانت لها اخلاق نبيلة ، وكانت شديدة الوفاء لعشيقها « دى سان ـ لامبير » ، الذى كان يستحثها على ان توثق صلاتها بى . على ان علاقتى بها تحولت الى وجد مشبوب ، غلبنى على أمرى ، فلم أرع الصداقة ، ولا السن .. ولقد حرصت هي على ان تكبح جماحى ، ولم تأب على شيئا مما يستطيع أرق الود أن يكفله ، ولكنها لم تمنحنى شيئا كان يحتمل ان يرديها فى حمأة الخيانة !

◆ **على اننى** اخطىء اذا قلت ان حبى لم يلق جزاء ، بل انه كان حبا متعادلا لدى الطرفين ، وان لم يكن متبادلا بينهما .. كان كلانا نشوانا بالهوى .. هواى اياها ، وهواها حبيبها :.. وكانت زفراتنا ودموعنا ونجوانا تمتزج فتترابط ، حتى لقد كان من المستحيل ان لا تتحد .. ومع اننى فى غمرة الجوى ، كنت انساق للدوافع الشهوية ، الا ان السيدة دوديتو لم تنس نفسها لحظة واحدة .. ومع انها لم تأب على عناقا أو قبلات ، الا انها ظلت طاهرة الجسد والقلب ! ..

◆ **ولم** أفطن فى افتتانى الى ان « دولباخ » والسيدة « ديبيناى » قد لاحظا ما بيننا ، وان الاخيرة دست لنا لدى « سان ـ لامبير » الذى كان مع الجيش فى (ويستفاليا) . وانضم الى المتآمرين « جريم » الذى كان ناقما لأن السيدة « دوديتو » صدته من قبل . واستثارنى أن جاءت السيدة ديبيناى الى (ليرميتاج) مرة ، وحاولت ان تغرى تيريز بأن تطلعها على



ما كنت اتلقاه من رسائل السيدة « دوديتو » . فاذا بى اكتب اليها فى قسوة ، كاشفا عن انتباهى الى مؤامرتها الخبيثة . ومع ان الوئام عاد بيننا ثانية ، الا انه لم يلبث ان تحول الى خصام ، عندما عرضت على السيدة ديبيناى ان ان اصحبها فى رحلة الى جنيف ، فأبيت .

• **وفى** تلك الأثناء ، نشر ديدرو كتابه « ابناء السفاح » ، فأحزننى ان وجدت فيه تلميحات غير كريمة ، لا سيما قوله انه « لا يلزم العزلة سوى أهل الخبث » . وكتبت اليه عاتبا فى رفق .. ولكن هذا لم يزده الا تحاملا . واستولت الضجة التى أخذ خصومى يثيرونها - باسم الصداقة - على اذهان الناس ، حتى أصبحت فى نظرهم مخطئا . بل ان السيدة دوديتو ، لم تلبث أن حملتنى على ان اذهب الى (باريس) ، لأسعى الى صلح معه . ولكن هذا الصلح لم يقدر له دوام !

• **ولم** تكن الأيام تزيدنى الا يقينا من غدر «جريم» وخداعه. على انه أضاف الى ذلك استعلاء غريبا ، مذ أصبح خليلا لمدام ديبيناى . ثم تطورت الأحوال وتفاقمت بعد أن أقصيت مدام لوفاسير عن دارى ، اذ انها كانت عينا له ولزمرة المتآمرين .. واستفحل الأمر ، حتى انتهى بى الى أن غادرت (ليرميتاج) ، وأقمت فى دار صغيرة فى (مون لوى) بمونمورنسى .

• وما لبثت مدام دوديتو أن بارحت الريف - هى الأخرى - فانتهت بذلك علاقاتى الشخصية بها . وأقسم بأن هواى التعس لم يفقد شيئا من عنفوانه ، ولكن كرم «سان - لامبير» وولاءها له، تركا أثرا قويا فى نفسى ، حتى ان شهواتى فارقتنى . ومن المحتمل أن الوجد الذى أذكته فى قلبى ، هو أقوى وجد

شعر به أى رجل على الاطلاق . وسيبقى دائما ممجدا مكرما لدى السماء ولدينا ، بفضل التضحيات الفذة ، والأليمة ،التى قدمناها فى سبيل الواجب ، والشرف ، والحب ، والصداقة .

• وبدا ان مقامى فى (مونمونسى) قد ساء السيدة ديبيناى وجريم ، فعقدا العزم على ان يقضيا على قضاء مبرما . فراحا وحلفاؤهما يشهرون بى ، ويبذرون الاتهامات الخبيثة ضدى، وهم يتظاهرون بالعطف والاشفاق على ، فسرعان ما خدع الرأى العام بحيلهم ، واعتقد اننى كنت غادرا بأصدقائى ، جاحدا لأفضالهم ،ونظموا حملة بارعةلتشويه سمعتى ،وليس ما يوغرهم ضدى سوى اننى احتفظت ببساطة ميولى الأصلية، وتشبثت بمبادئى وواجباتى ، وسلكت فى جلد طرق الاستقامة والاستقلال ، فلم أتملق أو أتزلف على حساب العدالة والحق .

• **وأقبل** الشتاء ، فلم أعد أغادر الدار . وفى عزلتى هذه، أتممت قصة « جولى » وارسلتها الى الناشر .. وفى تلك الأثناء ، تعرفت بالسيد المارشال دوق دى لوكسمبورج والسيدة زوجته . وكانا من ألمع نجوم البلاط الملكى .. كما كان الدوق صديقا شخصيا للملك . وقد غمرانى بلطفهما ومجاملاتهما ، وقربانى اليهما .. وسرعان ما وجدتنى اسير سحر الدوقة الفاتنة ، لا سيما حين رحت اقرأ عليها قصة «جولى» ، وهى فى مخدعها .. واستولى على الدوقة شغف طاغ ب« جولى » وبمؤلفها ، فأصبحت لا تتكلم الا عنى ، ولا تفكر الا فى . وكانت تعانقنى عشر مرات فى النهار ، ولا تجلس الى مائدة الا اذا كنت معها



• **وطلبت** الدوقة نسخة من قصتى الجديدة « هيلويز » ،

فخطر لى ان اضم الى القصة صفحات كنت كتبتها بعنوان « مغامرات اللورد ادوارد » . وكأنما كان القدر يسوقنى الى ما أكره ، اذ كان فى تلك المغامرات ذكر لمركيزة رومانية متهتكة ، وكانت فكرة خرقاء ، اذ انها أوحت للدوقة بأن ثمة شبها بينها وبين بطلة القصة — وهو مالا بد قد آذى شعورها — وما حدست الأمر الا بعد أمد طويل ، وبسبب ظواهر أخرى ترتبت عليه . فقد حدث أن أقيل المراقب العام للمالية الفرنسية من منصبه ، لأنه اتخذ اجراءات شديدة لانقاذ الدولة من طغيان رجال المال ، فكتبت أهنئه بهذه الاقالة المشرفة . واستطاعت الدوقة ان تحصل على صورة من هذا الخطاب ، دون أن أفطن الى انها من فريق «جامعى المال» .. وما لبث الفتور أن دب بينى وبينها ، وان ظل زوجها وثيق العلاقة بى !

• **وباتصالى** بالدوقة دى لوكسمبورج ، تعرفت الى السيدة دى بوفلير ، اختها .. كما اننى لم ألبث ان غدوت مدينا لها ، عندما تنازل السيد الأمير « دى كونتى » بزيارتى مرتين فى دارى ، وباسباغ عطفه على . وقد كدت ارتكب حماقة جديدة ، بأن أغدو منافسا له فى حب السيدة دى بوفلير ، لولا اننى كنت — وقد بلغت الخمسين — أحكم منى عندما تدلهت فى هوى السيدة دوديتو ، فعرفت كيف أقاوم وجدى .

• **وهنا** تنتهى مجموعة الرسائل التى كانت بمثابة دليل لى فى الكراسات السابقة ، وأصبح على أن أعتمد على ذاكرتى فيما بقى

والآن .. تعال نواصل قراءة هذا الجزء الباقى من الاعترافات ، وهو أهمها ..

الكراسة الحادية عشرة

سنة ١٧٦١

• **ومع** ان قصة «جولى» ـ التى استغرقت طباعتها أمدا طويلا ـ لم تكن قد ظهرت بعد حتى نهاية سنة ١٧٦٠ ، الا انها كانت قد شرعت تثير ضجة كبرى . فان السيدة دى لوكسمبورج راحت تتحدث عنها فى البلاط ، كما أن السيدة دوديتو كانت تتحدث عنها فى باريس . بل ان هذه الأخيرة استأذنتنى ، باسم سان ـ لامبير ، فى قراءة القصة ـ من النسخة المخطوطة ـ على ملك بولندا ، الذى فتن بها . وعمد ديكلو ـ الذى كنت قد سمحت بقراءتها عليه ـ الى الحديث عنها فى المجمع (الاكاديمية) . فكانت باريس بأسرها تتحرق شوقا فى انتظار هذه القصة ، وحوصرت متاجر الكتب فى شارع (سان جاك) و (باليه رويال) بالناس الذين كانوا يتساءلون عن أنبائها !

وظهرت أخيرا ، فكان نجاحها الخارق متمشيا مع الشوق الذى كانت ترتقب به ! (١)

وتحدثت السيدة زوجة ولى العهد ـ التى كانت من أوائل من اطلعوا عليها ـ الى السيدة دى لوكسمبورج عنها ، فوصفتها بأنها مؤلف يسلب الألباب . ولقد انقسمت الآراء بين أهل الأدب . أما لدى الجمهور ، فلم يكن ثمة سوى رأى واحد .. وافتتنت النساء ـ بوجه خاص ـ بالكتاب وبالمؤلف ، الى حد انه لم يكن بينهن من لم يكن فى وسعى أن أغزو قلوبهن ، لو اننى شئت ، سوى القليلات .. حتى فى الأوساط الراقية !..

ولدى على ذلك أدلة لا أبغى نشرها ولكنها تؤيد قولى ، دون

---

(١) عقب « روسو » على هذا بقوله : « كانت النسخة تؤجر للقراءة باثنى عشر « سو » فى الساعة ، فى الأيام الأولى لظهور الكتاب »

ما حاجة الى ذلك . ومن العجيب ان هـذا الكتاب كان أكثر نجاحا فى فرنسا منه فى بقية اوربا ، بالرغم من ان الفرنسيين ـ رجالا ونساء ـ لم يجدوا منى معاملة طيبةجدا فيه . ولقد كانت ضآلة نجاحه فى سويسرا ، وعظم نجاحـه فى باريس ، مناقضـين لكل ما توقعت . أفهـل كانت ألصـداقة والحب والفضيلة اكثر سلطانا فى باريس منها فى أى مكان آخر ؟ .. لا ، بلا شك ، وانمـا كان لا يزال يغلب عليهـا ذلك الشعور العارم ، الذى ينتشى به القلب ، عندما تصور له الأحاسيس النقية ، الناعمة ، الفاضلة .. والذى يحدونا الى ان نعتز بما لدى الغير من هذه الأحاسيس التى لم يعد لدينا منها شيء !.. ان الفساد يشيع اليوم فى كل مكان ، فلا وجود لأخـلاق ولا لفضيلة فى أوربا . فاذا قدر ان يكون ثمة حب باق لها ، فان باريس هى المكان الذى يجب ان نبحث عنه فيه (١)

وفى غمرة هذه الأباطيل والترهات العاطفية ، كان لا بد من الالمام بتحليل القلب البشرى تحليلا صحيحا ، حتى لا يخلط المرء الأحاسيس الفطرية الصادقة بها . كان لا بد ـ للشعور بالعواطف القلبية المرهفة التى اشتمل عليها هذا الكتاب ـ من رقة ولباقة لا تتوفران الا بالاتصال بالمجتمع الراقى ، اذا جاز لى أن أقول هذا . وانى لأشبه الجزء الرابع من هـذا المؤلف بكتاب « أميرة كليف » ، دون ما تورع .. وأؤكد ان هـذين الكتابين ما كانت قيمتهما لتتجلى ، لو ان قراءتهمـا اقتصرت على الأقاليم وحدها . **لذلك فـلا عجب من ان أعظم نجـاح ظفرت به « جوالى » كان فى البلاط الملكى . فقد أثارت هناك أهواء عارمة ـ ولـكنها مستترة ـ كانت خليقـة بأن تحظى بالاعجاب ، لأن أفراد الحاشـية كانوا على دراية ومران بأن**

---

(١) أضاف « روسو » في هامش كتابه : « كتبت هذا فى سنة ١٧٦٩ »

يستشفوا ما وراءها.على انه لابد من الاشارةهنا الى مفارقة ظاهرة .. تلك هى ان مطالعة هذا النوع من المؤلفات ، لا يلائم – يقينا – اولئك الأذكياء الذين لا يتجه ذكاؤهم الا الى المكر ، والذين لم يؤتوا من اللماعيــة الا ما يمكنهم من ان يــكتشفوا السوء ..والذين لايبصرون شيئا على الاطلاق ،حيث لايتبدى للابصار سوى كل ما هو طيب وحسن ! .. فلو ان «جولى» نشرت فى بلد معين يخطر ببالى – مثلا – ، لما أقبل أحــد على قراءتها حتى نهايتها ، ولماتت فى يوم مولدها !

ولقد جمعت معظم الرسائل التى كتبت الى عن هذا المؤلف، فى حزمة عهدت بها الى السيدة «دى ناداياك»(١) . فاذا قدر لهذه المجموعة ان ترى النور ، فانها ستكشف عن كثير من الغرائب ، وعن تناقض فى الرأى ، يبين ما يلقاه المرء اذا ماتعرض لمسألة تهم الرأى العام . على أن أقل ما فطن اليــه القوم ، هو عين الميزة التى ستجعل هذا المؤلف فريدا فى نوعه دائما .. ميزة بساطة الموضوع ، وتسلسل السياق الذى اقتصر على ثلاثة اشخاص ، وتتابع فى ستة مجلدات دون مااستعانة بأحداث ، أو مغامرات خيالية ، او شوائب من اى نوع ، سواء فيما يتعلق بأبطال القصة او بتصرفاتهم ! .. وكان « ديدرو » قد أطرى « ريتشاردسن » (٢) كثيرا ، للتنوع الهائل الذى تجــلى فى مواقف قصته ، ولتعدد الشخصيات التى قدمها . وليس من

---

(١) كانت السيدة دى ناداياك رئيسة لدير (جوير فونتان) ، الذى كان يضم يتيمات مدينة (روان) ، والذى كان يقع على مقربة من قصر « شاتو دى تير » – قلعة مدينة صور – حيث نزل « روسو » فترة من الزمن . ومما يذكر ، أن روسو كتب قطعة من الموسيقى الدينية ، بوحى من هذه السيدة . ولا تزال النسخة الخطية لهذه القطعة مودعة فى المكتبة الملكيــة ، بالمتحف الفرنسى .

(٢) « ريتشارد سن » مؤلف « آفيرة كليف » التي يقيسها روسو بقصته « جولى »

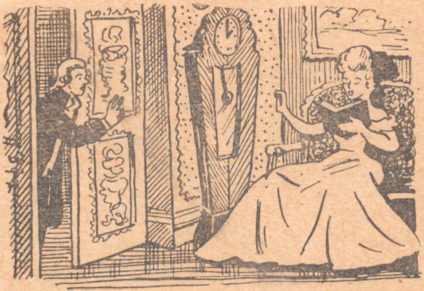
شك فى ان « ريتشاردسن » كان موفقا اذ خلع على تلك الشخصيات كل الصفات المميزة . على انه عمد - فيما يتعلق بصددها - الى ما هو شائع لدى القصصيين غير الناضجين ، الذين يتسترون على تفاهة أفكارهم بزحمة الشخصيات والوقائع . اذ أن من السهل استثارة الاهتمام ، بتقديم سيل لا انقطاع له من الأحداث العجيبة والوجوه المستحدثة ، التى تتوالى وكأنها أطياف مصباح سحرى .. ولكن استبقاء هذا الاهتمام على الدوام ، بنفس الأشياء ، ودون ما وقائع غريبة مدهشة ، أمر بالغ المشقة ! .. وعندما تتساوى جميع الاعتبارات ، نجد ان بساطة الموضوع تضاعف من جمال الكتاب .. ومن هنا نرى ان قصص « ريتشاردسن » ، وان تفوقت فى كثير من الاعتبارات ، الا انها لا تقاس ، من هذه الناحية ، بقصتى . واذا كانت هذه قد ماتت - وانى لأدرك هذا ، وأعرف السبب - الا انها لن تلبث أن تبعث من جديد !

وما كنت اخشى سوى ان يكون تطور القصة مملا ، بحكم بساطته ، وأن أكون قد عجزت عن توفير قدر كاف من الاهتمام ، يظل مستمرا حتى نهايتها ، ولكنى لم ألبث أن اطمأننت ، بفضل واقعة هزت مشاعرى أكثر مما هزتها جميع التهانىء والمديح التى اجتلبها على هذا الكتاب :

ذلك ان القصة ظهرت فى بداية أعياد المرافع (الكرنفال) . فحملها أحد الباعة المتجولين الى السيدة الأميرة «دى تالمون» (١)، فى أحد الأيام التى أقيمت بها الحفلات الراقصة بدار «الاوبرا» . وبعد ان تناولت السيدة العشاء ، ارتدت ثيابها تأهبا للذهاب الى الحفلة . حتى اذا اضطرت الى الانتظار ساعة ، عمدت الى قراءة القصة الجديدة . وعند منتصف الليل ، امرت بأن تشد

---

(١) استدرك «روسو» فى هامش كتابه قائلا : «لم تكن هى ، وانما كانت سيدة أخرى ، لا أعرف اسمها .. بيد أننى تأكدت من الواقعة ذاتها » .



الجياد الى عربتها ، ثم واصلت القراءة . وأقبل من أعلنها بأن العربة معدة ،ولكنها لم تجب . واذ رأى خدمها أنها قد نسيت نفسها ، أقبلوا ينبهونها الى ان الساعة بلغت الثانية صباحا . فقالت وهى مسترسلة فى القراءة : « لا داعى بعد للعجلة ! » . وبعد فترة ، تبينت ان ساعتها كانت قد توقفت عن العمل ، فدقت الجرس لتستعلم عن الوقت ، فقيل لها ان الساعة كانت الرابعة . فقالت : « اذن فالوقت جد متأخر ، ولا سبيل الى الذهاب الى المرقص ، فأطلقوا الجياد ! » . وخلعت ثيابها ، ثم قضت بقية الليل فى القراءة !

ومذ رويت لى هذه الواقعة ، أصبحت مشوقا دائما الى رؤية السيدة دى تالمون ، لا لكى أعرف منها ـ بالذات ـ ان الواقعة صحيحة ، فحسب ، وانما لأننى لم أكن أظن قط ان من الممكن أن يشعر أى شخص بمثل هذا الاهتمام المحتدم نحو « جولى » ، دون ان يكون قد أوتى الحاسة السادسة .. حاسة الادراك الخلقى والأدبى التى لم تحظ بها سوى قلوب قلائل ، والتى لا سبيل بدونها الى فهم قلبى !

ولقد كان الأمر الذى جعل النساء يؤثرننى بهذه الدرجة ، هو الاعتقاد الذى داخلهن بأننى اودعت الكتاب سيرتى الحقيقية، واننى بالذات ، كنت بطل هذه القصة . ولقد بلغ من تغلغل

هذا الاعتقاد ، ان كتبت السيدة دى بولينياك الي السيدة دى فرديلان ، لترجونى أن أسمح لها بأن ترى صورة « جولى ». فلقد اقتنع الناس جميعا بأن من المستحيل التعبير عن الأحاسيس بهذا الابداع ، دون أن أكون قد شعرت بها .. ولا وصف فورات الحب بهذا الأسلوب المتأجج ، ما لم تكن منبعثة من الفؤاد مباشرة . ولقد كان الناس على حق فى ذلك ، فمن المحقق اننى كتبت هذه القصة وأنا فى أشد حالات الجوى استعارا .. على ان من الخطأ الظن بأنه لا بد من مادة واقعية لاحداث هذا اللهيب .. كما ان من أبعد الأمور عن الادراك ، تصور مدى الوجد الذى كانت تذكيه فى فؤادى مخلوقات خيالية موهومة . ففيما عدا بعض ذكريات قلائل من الصبا ، ومن السيدة دوديتو ، لم يكن الشوق — الذى كابدته ووصفته — قائما الا نحو أطياف الخيال السابحة فى الهواء .

ولم أشأ أن أعزز أو أن أهدم خطأ كان فى صالحى . ومن الميسور للمرء ان يتبين من المقدمة التى صغتها على شكل حوار ، والتى طبعتها على حدة ، كيف تركت الرأى العام فى شك ازاء هذه النقطة . وقد يقول المتزمتون ان الواجب كان يقتضينى أن أعلن الحقيقة بجلاء تام . على اننى — من ناحيتى — لا أرى التزاما كان يحدونى الى أن أفعل ذلك ، وأعتقد أننى كنت خليقا بأن أبدو غبيا ، اكثر منى صريحا ، لو اننى أقدمت على هذا البيان ، دون ما ضرورة تدعو اليه !

* * *

• **وظهر** حوالى ذلك الوقت — تقريبا — « السلام الدائم » ، الذى كنت قد عهدت ، فى العام السابق ، بمخطوطه الى شخص — يدعى السيد « دى باستيد » — كان رئيس تحرير صحيفة تدعى « لوموند » ، أى العالم ، وقد رغب فى أن ينشر كل مخطوطاتى فى هذه الصحيفة ، رضيت أم لم أرض ! .. ولقد

كان من معارف السيد ديكلو ، فراح يلح على باسمه فى أن أساعده على ملء صفحات « لوموند » . وكان قد سمع عن « جولى » ، فأرادنى على ان انشرها فى صحيفته ، كما ود لو أنشر فيها « اميل » . وكان خليقا بأن يرغب فى أن أنشر فيها «العقد الاجتماعى» لو انه حدس وجوده . فلما ضقت بالحاحه — فى النهاية — قررت أن أنزل له عما خرجت به من « السلام الدائم » فى مقابل اثنى عشر « لوى » . وكان الاتفاق بيننا على ان ينشره فى صحيفته ، ولكنه لم يكد يستولى على المخطوط ، حتى رأى أن يطبعه فى كتاب مستقل ، بعد حذف فقرات منه اقتطعها الرقيب . ترى ما الذى كان خليقا بأن يحدث ، لو اننى كنت قد أضفت الى المخطوط آرائى وتعليقاتى على الكتاب الأصلى ؟ اننى لحسن الحظ لم أتحدث عنها الى السيد دى باستيد ، ومن ثم فانها لم تدخل ضمن صفقتنا ! .. ولا تزال هذه الآراء بين اوراقى ، مسجلة بخط اليد(١) . واذا قدر لها أن تظهر ، فسوف يتجلى كم كانت فكاهات « فولتير » وآراؤه المعتدة ، فى هذا الموضوع ، خليقة بأن تضحكنى .. أنا الذى ادرك تمام الادراك مدى ذكاء هذا المسكين ، فيما يتعلق بالأمور السياسية التى جرؤ على ان يقحم نفسه فيها !

وفى غمرة نجاحى لدى الرأى العام ، والحظوة التى نلتها لدى السيدات ، رحت أشعر بأننى كنت أفقد مكانتى فى قصر دى لوكسمبورج ، لا لدى السيد المارشال — الذى كان يبدو انه راح يضاعف بره بى وصداقته لى ، يوما بعد يوم — وانما لدى السيدة المارشالة ! .. فان مخدعها لم يعد يفتح كثيرا فى وجهى ، بعد أن لم يعد لدى ما أقرأه عليها . ومع اننى كنت اتردد على القصر بانتظام بالغ — خلال زياراتهما لمونمورنسى — الا اننى اصبحت نادرا ما أراها ، فى غير أوقات اجتماعنا حول

---

(١) اقرأ عن أصل هذا الكتاب فى صفحات ٢١٢و٢١٣و٢١٤ من الجزء الثالث

المائدة . بل ان المقعد المجاور لها ، لم يعد قاصراً على وحدى ، كما كان العهد من قبل ! .. واذ لم تعد السيدة تعرضه على، وأصبحت تقسط فى الحديث الى ، ولم يعد لدى ـ أنا الآخر ـ الكثير مما يقال لها ، فاننى ارتحت كثيرا الى اتخاذ مكان آخر حول المائدة ، كنت أشعر فيه بالحرية ، لا سيما فى المساء ، اذ وجدتنى أتعود ـ دون أن أفطن ـ الجلوس على مقربة من السيد المارشال .

وبمناسبة « المساء » ، اتذكر اننى قلت اننى لم أكن أتناول العشاء فى القصر . وقد كان هذا صحيحا ، فى بداية التعارف . على انه لما كان السيد دى لوكسمبورج قد اعتاد أن لا يتناول غداء قط ، بل ولا الى أن يظهر حول مائدة الغداء ، فقد ترتب على ذلك اننى لم أتناول الطعام معه قط ، رغم انقضاء شهور عديدة على تعارفنا ، كنت فيها قد ألفت التردد على الدار . وكان من الكرم بحيث أشار الى ذلك ، مما دعانى الى أن أقرر الذهاب لتناول العشاء هناك ، فى بعض الأحيان التى لا يكون فيها ثمة ضيوف عديدون . وكنت استمتع بذلك كثيرا ، اذ اننا كنا قد اعتدنا ـ تقريبا ـ تناول الغداء فى الهواء الطلق ، و« دون ما كلفة » ـ كما يقال ـ فى حين أن العشاء كان يستغرق وقتا طويلا ، لأن الضيوف كانوا ينشدون فيه فرصة للراحة بعد نزهة طويلة على الأقدام .. وكان الطعام جد شهى ، لأن السيد دى لوكسمبورج كان أكولا .. كما كانت المائدة مستحبة ، لأن السيدة دى لوكسمبورج كانت تقترح الانخاب ، فى كثير من الجلال واللطف الساحرين . وبدون هذا الايضاح يتعذر ادراك الفقرة التى وردت فى ختام احدى رسائل السيد دى لوكسمبورج (الملف « ج » ـ رقم ٣٦) ، اذ قال السيد انه كان يتذكر نزهاتنا بكثير من السرور ، لاسيما حين كنا نعود الى القصر فى المساء ، فلا نجد اثرا لعجلات العربات فى ساحة القصر . ذلك لأنه لما كانت الرمال ـ التى يكتسى بها الفناء ـ

لاتسوى الا فى الصباح ، فاننى كنت استطيع ان احدس من عدد الخطوط التى تخلفها عليهـا العجلات ، عدد الضيوف الذين وصلوا فى فترة الأصيل !

* * *

• **ولقد** أترعت تلك السنة (١٦٧١) كأس المحن التى أحاقت بهذا السيد الكريم مذ كان لى شرف التعرف اليه ، وكأنما كانت الشرور التى راح القدر يعدها لى ، مسوقة لأن تبدأ بالرجل الذى شعرت نحوه بأصدق الود ، والذى كان جديرا بكل ولاء . ففى العام الأول لتعارفنا ، فقد اخته : السيدة الدوقة دى فيلروى .. وفى العام الثانى ، فقد اخته السيدة الأميرة دى روبيك .. وفى الثالث ، فجع فى ابنه الأوحد - الدوق دى مونمورنسى - وفى حفيده الكونت دى لوكسمبورج ، الوريث الأوحد والأخير للأسرة ولقبها . **ولقد تحمل السيد المارشال كل هذه النكبات بجلد باد - فى الظاهر - ولكن قلبه ظل - فى الخفاء - داميا ، ما تبقى من حياته ، وراحت صحته تضمحل . وكانت ميتة ابنه - المفجعة ، غير المتوقعة - جديرة بأن تكون أشد تأثيرا عليه من كل شىء ، اذ أنها حدثت فى عين اللحظة التى كان الملك قد منح فيها ابنه - ووعد بأن يمنح حفيده - الحق فى ان يخلفه فى قيادة الحرس الخاص .** وقدر عليه ان أن يتعذب برؤية حياة هذا الطفل - حفيده - الذى تركزت فيه كل هذه الآمال ، تذوى رويدا أمام عينيه ، من جراء ماكان لامه من ثقة عمياء بالطبيب الذى تسبب فى وفاته .. فقد مات الطفل لفرط حاجته الى الغذاء ، اذ انه لم يكن يتغذى على غير العقاقير !

واحسرتاه ! .. ليتهم أخذوا برأيى ، فلو انهم فعلوا لظل الجد والحفيد على قيد الحياة ! .. فكم قلت وكم كتبت للسيد المارشال .. وكم جلوت الرأى للسيدة دى مونمورنسى ، بصدد

نظام التغذية ، الذى كان يتجاوز حدود التقشف ، والذى كانت تتبعه نحو ابنها ، بسبب ثقتها بالطبيب ! .. ومع ان السيدة دى لوكسمبورج كانت تشاطرنى الرأى ، الا انها لم تشأ ان تتدخل فى سلطه الأم ، كما ان السيد دى لوكسمبورج كان لطيفا ، لينا ، فلم يشأ ان يعارضها ! .. وكانت السيدة دى مونمورنسى تكن للطبيب « بوردو » ثقة انتهت بأن راح ابنها ضحية لها ! .. لشد ما كان الصغير المسكين يغتبط ، كلما استطاع ان يحصل على اذن بالحضور الى (مون — لوى) مع السيدة دى بوفليير ، اذ كان يطلب الى تيريز بعض الطعام ، فيودع امعاءه الخاوية شيئا من الغذاء ! .. **لكم كنت ارثى — فى دخيلتى — لتعاسات العظمة ، كلما رأيت هذا الوريث الأوحد لمثل هذه الثروة الواسعة ، ومثل هذا الاسم الرفيع ، ومثل هذه الألقاب والرتب الكثيرة ، يلتهم فى نهم المتسول كسرة صغيرة ، متواضعة ، من الخبز ! .. على ان الطبيب انتصر على كل ما قلت وفعلت .. ومات الصغير جوعاً !**

وهذه الثقة فى الدجالين وادعياء الطب — التى اهلكت الحفيد — هى ذاتها التى حفرت قبر الجد ، فضلا عن انه كان من ضعف العقل ، بحيث راح يحاول ان يخفى على نفسه علل الشيخوخة . فلقد كان السيد دى لوكسمبورج يعانى — بين آن وآخر — آلاما فى الأصبع الكبرى لقدمه . وقد تعرض — أثناء وجوده فى مونمورنسى — لنوبة حرمته النوم ، وجعلته شبه محموم . واذ جرؤت على أن ألفظ كلمة « النقرس » ، انهالت السيدة دى لوكسمبورج على تأنيبا ، فقد اعلن وصيف السيد المارشال وجراحه أن مرضه لم يكن من النقرس فى شىء ، وراحا يسبغان على العضو الموجوع بلسما . وهدأ الألم — لسوء الحظ — فلما أخذ يعود بعد ذلك ، كانوا يلجأون ، دون ما تردد ، الى عين الدواء الذى أحدث الراحة وسرى الوجع من قبل .. وباضمحلال صحة السيد المارشال ، اخذت آلامه

تزداد ، فكانت العقاقير تزداد معها ! .. وعندما تبينت السيدة دى لوكسمبورج – فى النهاية – ان النقرس هو الذى كان مصدر الآلام ، عارضت هذا العلاج الأخرق . فراحوا يكتمون عنها – بعد ذلك – حاله ، حتى مات السيد دى لوكسمبورج بعد سنوات قلائل ، بفضل خطأه ، ومن جراء اصراره على أن يعالج نفسه بنفسه ، وفق هواه . ولكن .. ليس لنا ان نمعن فى استباق المصائب ، فكم لدى من حديث أريد أن أرويه قبل ذلك !

* * *

• **ولقد** كان من النحس العجيب حقا ، ان كل شىء كنت أقوله أو أفعله ، بدا وكأنه مسوق الى ان يسوء السيدة دى لوكسمبورج ، ولو كنت فى أشد الشوق الى أن أحتفظ برضاها ! .. ولم تكن الآلام التى احتملها السيد دى لوكسمبورج – من الصدمات التى تعاقبت عليه – تزيدنى الا تعلقا به ، وبالتالى ، بالسيدة دى لوكسمبورج ، اذ كانا يبدوان دواما صادقى الاتحاد الى درجة ان العواطف التى تخالج المرء نحو أحدهما ، كانت تمتد بطبيعة الوضع الى الآخر ! .. **ولقد راحت الشيخوخة تثقل كاهل السيد المارشال . كان حضوره المتواصل فى البلاط الملكى ، والواجبات التى يتطلبها ذلك ، ورحلات الصيد المتتابعة ، والارهاق الذى كان يترتب على الخدمة خلال فصل الصيد ، كل هذه كانت تتطلب قوة الشباب ، ولم أكن أرى ثمة وسيلة تمكنه من القوة التى يتطلبها منصبه** . واذ لم يكن ثمة بد من أن توزع رتبه على الغير ، وان ينطفىء بريق اسمه بعد موته – لعدم وجود وريث له – فلم يكن هناك ما يدعوه الى ان يستمر فى حياة عملية مرهقة ، كانت الغاية الرئيسية منها هى ان يستبقى لأبنائه ما كان له من حظوة لدى العاهل !

وفى أحد الأيام ، كنا نحن الثلاثة معا ، ولا غريب بيننا ، وقد راح السيد المارشال يشكو من متاعب واجباته فى البلاط ،

بروح الرجل الذى ثبطت المصائب عزيمته . فجرؤت على أن أحدثه عن التقاعد ، وأزجيت اليه النصيحة التى قدمها «سينياس» الى «بيروس» (١) . فتنهد ولم يجب برأى قاطع. ولكن السيدة دى لوكسمبورج راحت - فى أول لحظة رأتنى فيها على حدة - تلومنى فى عنف على نصيحتى التى ازعجتها .. على ما بدا لى . وأضافت الى ذلك اشارة لم ألبث أن شعرت بعدالتها ، ولم تلبث ان حولتنى عن فكرة العودة ثانية الى هذا الموضوع .. تلك هى أن اعتياد العيش فى البلاط الملكى طويلا ، أصبح ضرورة لا غنى عنها . بل انه كان - حتى فى تلك الظروف - ملهاة تصرف بال السيد دى لوكسمبورج عن همومه ، وان اعتزال البلاط - الذى نصحته به - لن يكون مبعث راحة واستجمام له ، بقدر ما يكون اقصاء ونفيا ! .. ولن يلبث الخمول والملل والحزن ان يضعا لحياته نهاية ! .. ومع انها رأت ولا بد انها قد اقنعتنى ، ومع انها كانت تستطيع ان تركن الى الوعد الذى قطعته لها ، والذى ظللت أصونه ، فقد لاح لى انها لم تطمئن يوما من هذه الناحية . وانى لأذكر ان اختلائى بالسيد المارشال أصبح - منذ ذلك الحين - نادرا ، وكانت خلواتنا تتعرض باستمرار لما يقطع علينا حبلها !

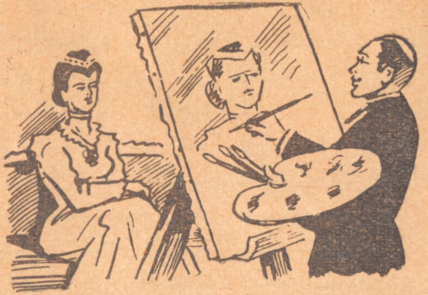
وفى الوقت الذى تعاونت فيه بلاهتى ونحسى على الاساءة الى - لدى السيدة - لم يكن هناك من يشفع لى لديها ، ممن كانت تؤثرهم بمقابلاتها ومودتها .. لاسيما الراهب دى بوفلير ،

---

(١) كان «بيروس» ملكا على (ايبروس) بين سنتى ٣١٨ و ٢٧٢ قبل الميلاد ، وقد غزا ايطاليا قبل وفاته بثمانى سنوات ، ومع انه هزم الرومان مرتين ، الا انه تكبد خسائر جسيمة ، وكتب عليه أن ينكسر فى النهاية وأن يعود الى بلاده اليونانية ، أما «سينياس» فكان وزيره ومستشاره ، وكان الملك يقول أنه بحكمته أكسبه من المدن ما لم تكسبه اياها الجيوش . على أن الوزير كان يعارض جموح الملك فى مطامعه ، وقد حاول أن يثنيه عن غزو ايطاليا بحديث سجله التاريخ مثالا للنصح البليغ . وهو الذى أشار اليه « روسو » .

الذى أوتى أكبر قسط من الذكاء يتاح لشاب فى سنه ، والذى لم يكن يميل الى البتة ! .. ولم يقتصر أمره على انه كان الوحيد ـ ، فى حاشية السيدة المارشالة ـ الذى لم يكن يبدى اتفه احتفاء بى ، على الاطلاق ، بل اننى لاحظت ـ فى كل زيارة يؤديها الى مونمورنسى ـ اننى كنت افقد شيئا من حظوتى لدى السيدة . على انه من المحقق ان من الصحيح ان مجرد وجوده كان كافيا لأن يؤدى الى ذلك ، دون أى تعمد من ناحيته .. فان سخافاتى كانت تبدو معتمة ، ثقيلة ، الى جانب لمحاته المتسمة بالجلال وبسمو الروح . ولقد كانت زياراته لمونمورنسى نادرة ، خلال العامين الأولين ، وكنت بفضل تسامح السيدة المارشالة ، قادرا على ان احتفظ بمكانتى ولكنه لم يكد يزداد انتظاما فى زياراته ، حتى وجدتنى مقصيا عن هذه المكانة ، دون ما أمل فى استعادتها !

ولقد كنت على استعداد لأن أنطوى تحت جناحه ، وأن أتخذ الوضع الذى يحمله على مصادقتى ، لولا أن حرج موقفى ـ الذى جعل من رضاه عنى ضرورة لازمة لى ـ كان هو عين السبب الذى منعنى من أن أكسب هذا الرضى ! .. واذا كل ما رحت أبذل فى هذا الصدد ، يطيش فيؤدى الى القضاء على ما كان لى من حظوة لدى السيدة المارشالة ، دون أن يجدينى أى نفع فى التقرب اليه ! .. وكان فى وسعه ان يوفق فى كل شىء ، بفضل ذكائه ، بيد أن عجزه التام عن الاستمرار فى الدأب ، وميله الى النزق واللهو ، لم يمكناه من أن يكتسب سوى حذق غير مكتمل فى كل عمل . ولقد اتيح له ـ على سبيل التعويض ـ ان يؤدى كثيرا من هذه الأعمال ، فكان هذا ـ فى حد ذاته ـ هو كل مايلزمه لكى يلمع فى المجتمع الراقى ، الذى كان يصبو الى التألق فيه ! .. كان يحسن نظم القصائد الصغيرة ، ويتقن كتابة الرسائل القصيرة ، ويعزف الموسيقى ببعض المهارة ، ويرسم هونا ما بالطباشير الملونة .



وقد أبدى رغبة فى ان يرسم لوحة للسيدة دى لوكسمبورج ، فجاءت اللوحة بشعة ، وقالت السيدة انها لم تكن تشبهها فى شيء ، وقد كانت محقة تماما فى ذلك . ولقد سألنى الراهب الغادر رأيى ، فاذا بى — كأى غبى كذاب — أزعم ان اللوحة كانت تشبهها . وكنت بذلك أرجو أن أتملق الراهب ، ولكننى لم أتملق السيدة المارشالة ، فسجلتها ضدى فى قائمة الأخطاء ، بينما راح الراهب يضحك منى ، بعد ان نجحت خدعته ! .. ولقد تعلمت — بفضل نتيجة هذه المحاولة التى جاءت متأخرة ، فى الملق والمداهنة — ان لا أقدم مختارا على الرياء والتملق ، بالرغم من منيرفا ! (١)

* * *

• **لقد** كانت ميزتى التى فطرت عليها ، هى أن أقول للناس حقائق مفيدة — ولكنها جافة قاسية — فى كثير من التحمس والشجاعة . وكان خليقا بى أن أظل على ذلك .. اننى لم أخلق قط لكى أطرى — ولن أقول : أتملق — الغير . ولقد كان سوء

---

(١) «بالرغم من منيرفا» : مثل اصطلح عليه ، فى الحديث عمن يصر على عمل لم يؤت موهبة تمكنه من اتقانه ، وكان يطلق أصلا على الشاعر الذى يمارس النظم وان لم يؤت ملكة الشعر .

توجيه الاطراء الذى حاولت أن أزجيه ، أكثر ايذاء لى من أقسى لوم قدر لى أن أصدره . وانى لأذكر هنا مثالا بلغ من فظاعته أن عواقبه لم تغير مجرى حياتى فحسب ، بل انها ربما اثرت على سمعتى كذلك ، عبر الأجيال !

فلقد اعتاد السيد « دى شوازيل » (١) ان يفد الى القصر لتناول العشاء ، فى بعض الأحيان ، خلال فترات اقامة السيد والسيدة دى لوكسمبورج فى مونمورنسى . وأقبل ذات يوم ، وانا اغادر القصر . فدار الحديث عنى ، وروى له السيد دى لوكسمبورج قصتى فى (البندقية) مع السيد دى مونتيجى . **فقال السيد دى شوازيل انه كان من الخسارة حقا ان هجرت العمل الدبلوماسى ، واننى اذا رغبت فى العودة الى هذا العمل ، فلن يجد ما يسره أكثر من ان يستخدمنى .** وابلغنى السيد دى لوكسمبورج بالأمر ، فتأثرت به أكثر مما ينبغى ، اذ أننى لم أعتد أن ألقى من الوزراء أية مجاملة . وليس بوسعى أن أجزم بأننى لم أكن على استعداد لأن أجعل من نفسى احمق ، مرة أخرى ـ بالرغم من قراراتى السابقة ـ لو ان صحتى كانت تتيح لى أن أفكر فى الأمر ! ان الطموح لم يعتد ان يتملكنى الا فى الفترات الموجزة التى كانت كل الشهوات الأخرى تفارقنى خلالها . ولكن فترة واحدة من هذه الفترات ، كانت كفيلة بأن تزكى عواطفى مرة اخرى . ومن ثم فان هذه النية الكريمة من السيد دى شوازيل ، ملكت على شعورى ، ودعمت التقدير الذى كانت بعض أعماله الوزارية قد حملتنى على أن أكنه له . فقد كان « حلف الأسرة » بالذات ، يبدو ـ فى نظرى ـ دليلا

---

(١) الدوق اتيين ـ فرانسوا دى شوازيل ، كان وزيرا للخارجية فى عهد لويس الخامس عشر ، وأبدى براعة فى اصلاح النتائج السيئة التى ترتبت على حرب السنوات السبع . وتدين له فرنسا بكثير من الافضال العسكرية والدبلوماسية . وقد عاش بين عامى ١٧١٩ و ١٧٨٥ .

على ان الرجل كان سياسيا من ساسة الصف الأول (١) .
وقد ازددت تقديرا له عندما قارنت اعماله بأعمال من سبقوه في المنصب ، دون ان استثنى منهم السيدة دي بومبادور التى كنت اعتبرها بمثابة « رئيس للوزراء » !.. وعندما كان يشاع ان واحدا من هذين الاثنين يناجز الآخر العداء ، فأعتقد انني كنت أدعو بالنصر لفرنسا ، عندما كنت أدعو بالنصر للسيد دى شوازيل .

ذلك لأننى كنت استشعر دائما نفورا من السيدة دى بومبادور ، حتى عندما رأيتها ـ قبل أن يرتفع نجمها ـ لدى السيدة ديلابوبلينيير ، وكانت اذ ذاك لا تزال تحمل اسم السيدة ديتوال . ومنذ ذلك الحين ، أحنقنى منها صمتها ازاء موضوع « ديدرو » (٢) ، ومسلكها نحوى ، سواء فيما يتعلق بتمثيليتى «أعياد رامير» (٣) أو «عرائس الشعر اللطاف» (٤) ، أو أوبرا « عراف القرية » (٥) التى لم تعد على بأى دخل أو نفع يتناسب مع نجاحها . ففى كل هذه المناسبات ، كنت اجد السيدة دى بومبادور قليلة الحرص على أن ترضينى . على أن هذا لم يمنع الشيفالييه دى لورنزى من ان يقترح على أن

---

(١) حلف الاسرة : معاهدة تحالف عسكرى ، أبرمت فى سنة ١٧٦١ ، بين الاسرتين الملكيتين فى فرنسا واسبانيا ، وكانتا تنتميان معا الى آل بوربون

(٢) كان « ديدرو » قد سجن ، وكتب « روسو » الى السيدة دى بومبادور كى تعمل على اطلاق سراحه (صفحة ١١٦ ـ الجزء الثالث) .

(٣) أوبرا كان « فولتير » قد وضع كلماتها ، كما وضع « رامو » ألحانها ، ثم عهد الدوق ريشليو الى « روسو » بأن يعيد كتابة الكلام والموسيقى مع تنقيحهما (انظر صفحة ٩٣ ، من الجزء الثالث) .

(٤) أوبرا كان قد شرع فى تأليفها فى أول عهده بالاقامة فى باريس (صفحة ٢٤ ـ الجزء ٣) ، وعرضت فى حفلة خاصة حضرها ريشيليو (صفحة ٩٢ ـ جزء ٣) .

(٥) أوبرا من تأليف روسو ، عرضت على مسرح القصر الملكى بحضور الملك . (صفحة ١٦٠ ـ الجزء ٣) .

أؤلف شيئا فى مديح هذه السيدة ، فى تلك الآونة ، موحيا الى بأن هذا قد يجدينى نفعا . ولقد أثار هذا الاقتراح استنكارى، لا سيما اذ رأيت بجلاء انه لم يكن صادرا عنه شخصيا .. وقد أدركت تماما ان هذا الرجل ، الذى لم يكن ذا قيمة – فى حد ذاته – لم يكن ليفكر أو يعمل قط ، الا بايعاز من سواه . ولم أوت قط من القدرة ما يمكننى من كبح نفسى لكى أخفى عنه ازدرائى لاقتراحه .. أو لكى أخفى عن أى امرىء آخر عدم ميلى الى الحظوة الموعودة . ولقد ادركت هى ذلك ،وانى لموقن من ذلك .. كل هذه الاعتبارات وحدت بين مصلحتى الذاتية وميولى الطبيعية ، فى الأدعيات التى كنت ارجو فيها النجاح للسيد دى شوازيل .. وكنت قد شعرت – قبل ذلك – بتحبيذ لمقدراته ومواهبه ، التى كانت كل ما اعرفه عنه .. كما اننى كنت مفعما بالعرفان لما ابداه نحوى من نوايا طيبة ، جاهلا – فى عزلتى – بأذواقه ومسالكه فى الحياة ، ومن ثم فقد رحت أتطلع اليه كأنه المنتقم للجمهور ولى ! .. ولما كنت – فى ذلك الحين – منصرفا الى وضع الخطوط النهائية فى مؤلفى « العقد الاجتماعى » ، فاننى وضعت فى فقرة واحدة رأيى فى الوزارات السابقة ،وفى هذه الوزارة التى أوشكت أن تطغى عليها.

ولقد أغفلت – فى هذه المناسبة – أكثر مبادئى رسوخا فى نفسى ، ولم يخطر ببالى ان المرء اذا أراد أن يتحمس فى المديح وفى اللوم ، فى مقال واحد – دون ان يورد اسماء ما – فمن الواجب أن يقصر المديح على اولئك الذين يقصدهم به ،بأسلوب لايجعل مجالا لأشد النفوس أنانية ، لأن تسىء فهمه . ولقد كنت من الحماقة بحيث ظننتنى فى مأمن من هذا ، فلم يخطر ببالى قط ان من الممكن تأويل ما قصدت اليه .ولسوف يتجلى فيما بعد ما اذا كنت قد أصبت !

ومن مظاهر سوء طالعى ، اننى كنت دائما على اتصال ببعض الكاتبات من النساء . وقد خلت اننى لن البث أن اتفادى

ذلك ، بعلاقاتى بسيدات الطبقة الراقية على الأقل . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، بل ان حظى ظل يلاحقنى . ومع ان السيدة دى لوكسمبورج لم تتعرض قط لهذه النزوة - فيما كنت اعرف - الا ان السيدة الكونتة دى بوفلير كانت مصابة بها . فقد كتبت مأساة - تمثيلية نثرية - قرئت فى البداية ، ثم أديرت على حاشية السيد الامير دى كونتى فقوبلت باطراء . ولكن السيدة لم تقنع بكل هذا الاطراء ، فشاءت ان تستشيرنى انا الآخر ، لتحظى بالثناء منى . **وقد منحتها هذا الثناء ، ولكن فى عبارات معتدلة ، بقدر ما كان المؤلف يستحق . وفوق ذلك ، فقد رأيت أن من واجبى أن أطلعها على ان تمثيليتها - التى كانت بعنوان ((العبد الكريم)) - شديدة الشبه جدا بمسرحية انجليزية لم تكن معروفة على نطاق واسع ، ولكنها ترجمت الى الفرنسية ، وكانت تحمل اسم ((اورونوكو))** . ولقد شكرت لى السيدة دى بوفلير رأيى ، وأكدت لى لفورها ان لا علاقة البتة لمسرحيتها بالمسرحية الأخرى . ولم أبح قط بهذه السرقة الأدبية لمخلوق من البشر سواها ، وما صارحتها - هى - الا أداء لواجب ألقته على عاتقى . بيد أن هذا لم يصدنى عن أن أكثر من التفكير - منذ ذلك الحين - فى الطريقة التى أدى بها ((جيل بلا)) واجبه نحو الأسقف الواعظ ، وما ترتب على ذلك . (١)

* * *

• والى جانب الراهب دى بوفلير - الذى لم يحبنى قط -

---

(١) قصة « جيل بلا » من أكمل المؤلفات الخلقية ، وقد وضعها « لوساج » فى سنة ١٧١٥ ، وجعل بطلها يعيش مثالا للأخلاق ، رغم ما كانت الحياة تطوح به اليه من أحداث . والحادث الذى أشار اليه « روسو » ، دار بين « جيل بلا » و « أسقف غرناطة » ، وقد رسم فيه « لوساج » صورة رائعة للكتاب الذين يتظاهرون بالتحمس الشديد للحقيقة ، ولكنهم لا يفون لها فيما بينهم وبين أنفسهم !

والسيدة دى بوفليير ، التى ارتكبت نحوها اخطاء لا تغتفرها امرأة ولا كاتبة ، فان بقيـة أصدقاء السيدة المارشـالة كانوا دائما قليلى الميل الى ان يكونوا أصدقاء لى . وكان منهم السيد دى «هينو» رئيس البرلمان ، الذى لم يعفه انضمامه الى زمرة المؤلفين من عيوبهم .. والسيدة « دوديفان » ، والآنسة «دى ليسبيناس » ، اللتان كانتـا على صلة وثيقة بفولتير ، وعلى صداقة حميمة بدالمبير ، الذى انتهت ثانيتهما الى الاقامة معه .. بكل شرف وصلاح طبعا ، فيجب ألا يؤول هذا على أى محمل آخر ! .. **ولقد بدأت بشعور قوى نحو السيدة دوديفـان ، التى أثار ضياع بصرها اشفاقى . ولـكن منهجها فى المعيشة كان يناقض منهجى تماما ، حتى ان ساعة استيقاظ احدنا من النوم ، كانت هى ساعة هجوع الآخر تقريبا .. وكان شغفها الجامح بالطرائف الفكرية البسيطة ، والاهميـة التى كانت تضفيها ــ سواء بالحق أو بالباطل ــ على كل خلاف كان يظهر ، والعنف الغاشم الذى كانت تطلق به تعليقاتها فى لهجة خطابية ، ومغالاتها فى التعصب لكل شىء أو ضد كل شىء ــ مما لم يكن يسمح لها بأن تتكلم فى موضوع الا بانفعال ــ وتحيزها الذى كان يفوق المعقول ، وعنـادها الذى لا يلين ، وتحمسها غـير الحكيم الذى كان يحملها عليه التعنت لآرائهـا المستوحاة من العاطفة .. كل هـذه لم تلبث ان حولتنى عن الاهتمام الذى كنت على استعداد لأن أوليها اياه !.. فأهملتها .** ولقد لاحظت ذلك ، فكان هذا كافيا لأن يثير سخطها ، ومع اننى شعرت بمدى ماينبغى ان يخشاه المرء من امراة لها هذه الشخصية ، الا اننى كنت أوثر أن أعرض نفسى لسعار حقـدها ، على أن أعرضها لودها !

وكأنما لم يكف أن يكون لى أصدقاء قليلون فى حاشية السيدة دى لوكسمبورج ، فاذا لى اعداء فى اسرتها .. ومع أن هؤلاء الاعداء انحصروا فى واحد ، الا انه كان ــ فى الموقف الذى أصبحت

أجد نفسى فيه ــ يعادل مائة . ومن المحقق ان هذا الشخص لم يكن اخاها ، السيد الدوق دى فيلروى ، الذى لم يكتف بأن زارنى فى دارى ، بل دعانى عدة مرات الى ضيعة (فيلروى) .. ولما كنت قد أجبت دعوته بكل احترام وأدب ، فانه أخذ هذا الجواب على محمل القبول ، ودبر مع السيد والسيدة دى لوكسمبورج رحلة تستغرق حوالى خمسة عشر يوما ، كان على أن أرافقهم فيها . وكانت التدابير التى تتطلبها صحتى ، لاتسمح لى بأن انتقل من دارى دون ما تعرض للضرر ، فرجوت السيد دى لوكسمبورج بأن يتكرم بالاعتذار عنى . ويرى من جوابه (الملف «د» ــ رقم ٣) انه ادى ذلك ابدع اداء ممكن ، ولم يبد لى السيد الدوق دى فيلروى عطفا يقل عما عهدت منه. **ولكن ابن أخيه ، ووريثه ــ المركيز دى فيلروى الشاب ــ لم يشاطر ما شرفنى به من عواطف كريمة .. واعترف اننى ــ بدورى ــ لم أوله ما كنت أولى عمه من احترام** . وكانت مظاهره المتعجرفة ، الفاسدة ، تجعله ــ فى نظرى ــ لايطاق ، فاذا فتورى نحوه لا يجلب على سوى بغضائه .

وفى ذات مساء ، ذهب الى درجة أن سبنى على المائدة ، فأسأت تلقى الاهانة ، لأننى غبى ، ولست حاضر البديهة ، بل ان الغضب يسلبنى القدر الذى أوتيته من الذكاء ، بدلا من ان يرهفه ويشحذه . وكان لدى كلب تلقيته هدية ــ وهو بعد صغير ــ عقب وصولى الى (ليرميتاج) مباشرة ، وأطلقت عليه اسم « دوق » . ومع ان هذا الكلب لم يكن جميلا ، الا انه كان من سلالة نادرة ، وقد جعلته صديقى وصاحبى ، وكان ــ يقينا ــ أكثر استحقاقا لهذا الوصف من معظم اولئك الذين استحلوه لأنفسهم ، فلم يلبث أن غدا محبوبا فى قصر مونمورنسى بفضل طبيعته اللطيفة المستملحة ، وبفضل تعلق كل منا بالآخر ، بيد اننى فى لحظة من لحظات الضعف الأحمق ، غيرت اسمه الى « تركى » ، وكأنما لم تكن هناك مئات من الكلاب

تدعى « مركيز » ، دون ان يشعر أى « مركيز » باهانة فى ذلك . ولقد راح المركيز دى فيلروى — الذى علم بهذا التغير فى الاسم — يلح على ، حتى اضطرنى الى ان أروى ما فعلت ، فى حضور القوم .. ولم تكن الاهانة التى نشأت عن اسم « دوق » — فى القصة — ممثلة فى اطلاقه على كلب ، وانما فى اننى لم ألبث أن حرمته منه . **وكان أسوأ ما فى الأمر ، هو ان كثيرا من الأدواق (١) كانوا حضورا ، وكان السيد دى لوكسمبورج دوقا ، وكذلك كان ابنه . وكان المركيز دى فيلروى مرشحا لأن يصبح دوقا — وانه لكذلك الآن — فراح يلهو فى قسوة بالحرج الذى دفعنى اليه ، وبالأثر الذى أحدثه . ولقد تأكدت — فى اليوم التالى — بأن عمته قد أنبته فى عنف على ذلك . ومن الممكن تصور مدى ما كان هذا التقريع كفيلا بأن يصلح علاقاتى به كثيرا ، لو اننا افترضناه صادقا !**

ولم يكن لى من مدافع ضد هذا كله — سواء فى قصر لوكسمبورج أو فى القلعة — سوى الشيفالييه دى لورنزى ، الذى كان يجاهر بأنه صديقى . ولكنه كان لا يزال صديقا لدالمبير ، اكثر مما كان لى ، فقد راح — تحت رعايته — يلقى حظوة لدى النساء ، بزعم انه عالم هندسى كبير . وكان الى جانب ذلك ، المدلل صاحب الحظوة — أو بالأحرى القط الوادع — للسيدة الكونتة دى بوفلير ، التى كانت هى الأخرى صديقة حميمة لدالمبير .. فما كان للشيفالييه دى لورنزى من وجود ولا كان بوسعه أن يفكر ، الا بقربها . وهكذا كان كل من يتصلون بالسيدة دى لوكسمبورج يبدون وكأنهم يعملون معا على ايذائى فى رأيها ، فى الوقت الذى كنت فيه بعيدا عن أن أجد مقاومة خارجية تصلح من نزقى ، وتستبقى لى رضاء

---

(١) يفضل المترجم أن يجمع « دوق » على « أدواق » ، تمييزا له عن « دوقات » ، وهى جمع « دوقة » .

السيدة . ومع ذلك فانها ــ الى جانب تكرمها بأن تتعهد كتاب « اميل » ــ، أبدت لى دليلا جديدا على كرمها وعطفها ، مما حملنى على ان اعتقد بانها كانت لا تزال تحتفظ لى ــ بل وستظل دائما تحتفظ لى ــ بالصداقة التى كثيرا ما وعدتنى بأن تؤثرنى بها الى نهاية عمرى ، حتى وان كانت قد بدأت تسأمنى !

وما ان خطر لى ان بوسعى أن أطمئن الى هذا الشعور من ناحيتها ، حتى شرعت اسرى عن فؤادى ، بأن اعترف لها بكل أخطائى نحوها . اذ كان مبدئى الوطيد ، يحملنى على أن أبين نفسى لأصدقائى على حقيقتها ، لا أسوأ ولا أطيب . فأطلعتها على علاقاتى بتيريز ، وبنتائجها جميعا ، دون أن أغفل الطريقة التى تخلصت بها من أطفالى . وتلقت اعترافاتى فى تلطف ، بل فى تلطف بالغ ، وأعفتنى من اللوم الذى كنت أستحقه . . وكان أكثر ما أثر فى نفسى ــ بوجه خاص ــ ذلك الكرم الذى أغدقته على تيريز ، فكانت تمنحها هدايا صغيرة ، وتستدعيها ، وتشجعها على أن تزورها ، وتتلقاها بكثير من الحنان واللطف . . وكثيرا ما كانت تقبلها أمام الجميع . ولقد استخف الفتاة المسكينة الفرح والعرفان اللذان كنت اشاطرها اياهما يقينا . . بل ان الكرم الذى كان السيد والسيدة دى لوكسمبورج يغمراننى به خلالها ، اكثر تأثيرا فى نفسى من ذاك الذى كانا يظهرانه نحوى مباشرة .

* * *

• **ظلت** الأمور على هذا الوضع فترة طويلة ، ولكن السيدة المارشالة لم تلبث ــ فى النهاية ــ ان أمعنت فى تفضلها ، فأعربت عن رغبتها فى أن تسترد أطفالى وتكفلهم (١) . وكانت قد

---

(١) كان « روسو » قد أنجب خمسة من « تيريز » سفاحا ، وأودعهم ملجأ اللقطاء ، وروى المناسبات والمبررات فى الصفحات من ١٠٦ الى ١٣٣ من الجزء الثالث .

عرفت اننى قد وضعت رمزا فى ثياب الطفل الأكبر ، فسألتنى النسخة الثانية لهذا الرمز ، فقدمتها اليها . واستخدمت فى هذا البحث وصيفها الخاص وموضع ثقتها «لاروش» ، الذى قام بتحريات لم تؤد الى طائل ، فلم يتمكن من العثور على شىء ، بالرغم من انه لم يكن قد انقضى على ايداع الطفل اكثر من اثنتى عشرة أو أربع عشرة سنة ، ولو ان سجلات ملجأ اللقطاء كانت منظمة ، أو لو ان التحريات كانت دقيقة ، لما عز العثور على الرمز . ومهما يكن من الأمر ، فاننى كنت أقل استياء لهذا الفشل ، مما كان ينبغى على لو اننى كنت قد تتبعت آثار الطفل منذ مولده . **ولو أن طفلا قدم الى – على هدى البيانات التى قدمتها – على انه ابنى ، لكان الشك فيما اذا كان هو ابنى حقا ، او انه أبدل بطفل آخر ، خليقا بأن يبعث هواجس تضنى فؤادى ، ولما نعمت بالاحساس الطبيعى الصادق ، فى أكمل آيات سحره .. فلا بد – لاستبقاء هذا الشعور وسحره – من توفر الألفة والاعتياد منذ مولد الطفل ، على الأقل ، ولكن البعاد الطويل لطفل لم يعرفه المرء بعد ، يوهن شعور الأبوة والأمومة ، ولا يلبث أن يقضى عليه تماما فى النهاية . فلا سبيل هناك البتة الى ان يحظى طفل كفلته مربية ، بحب يضارع ما يحظى به طفل نشأ تحت بصر المرء .. وقد يخفف هذا الخاطر من التبعات التى ترتبت على أخطائى ، ولكنه يضاعف من وطأة أصلها ومنبعها !**

وقد يكون من المفيد ان نلاحظ ان «لاروش» هذا ، بالذات ، قد تعرف – عن طريق تيريز – بالسيدة لوفاسير ، التى ظل « جريم » يكفلها فى (دويى) ، على مقربة من (لاشيفريت) ، وعلى مسافة جد قصيرة من (مونمورنسى) . فلما غادرت هذه المنطقة ، استعنت بلاروش فى مواصلة ارسال النقود التى لم أكف يوما عن امدادها بها . وأعتقد انه كثيرا ما كان يحمل اليها هدايا من السيدة المارشالة ، ومن ثم فانها لم تكن تستحق

أى عطف أو رثاء ، رغم انها ظلت دائمة الشكوى . أما «جريم»، فاننى طبعت على ألا أحب الكلام عمن أرى ان من واجبى أن أكرههم ، ومن ثم فاننى لم أتحدث عنه اطلاقا الى السيدة دى لوكسمبورج ، اللهم الا فى الحالات التى كنت اضطر فيها الى ذلك اضطرارا . على انها ذكرت اسمه مرارا ، دون ان تنبئنى بما كان من رأيها فيه ، بل ودون أن تدعنى استشف ما اذا كان هذا الرجل من معارفها ، أو لم يكن . ولما كان التحفظ من أولئك الذين أحبهم ، أو الذين درجوا على الصراحة التامة معى، امرا لا يلائم مزاجى ـ لا سيما حين يكون فى أمور تخصهم ـ لذلك فاننى كثيرا ما فكرت ، منذ ذلك الحين ، فى أمر هذا التحفظ الذى أبدته السيدة لى .. على ان هذا التفكير لم يكن يراودنى ، الا عندما تجعله الأحداث أمرا طبيعيا !

واذ مكثت فترة طويلة ،دون أن أسمع أى حديث عن «اميل» ـ بعد أن وكلت أمر الكتاب الى السيدة دى لوكسمبورج ـ علمت فى النهاية ، ان الصفقة قد أبرمت فى باريس ، مع الكتبى «دوشين» ، ثم أبرمت بوساطته مع «نياولم» فى (امستردام) . وقد ارسلت السيدة دى لوكسمبورج الى نسختى العقدين ـ مع دوشين ـ كى أوقعهما . وتبينت انهما كتبتا بنفس الخط الذى كانت تكتب به رسائل السيد دى ماليزيرب ، اذ أنه لم يكن يكتبها بيده .

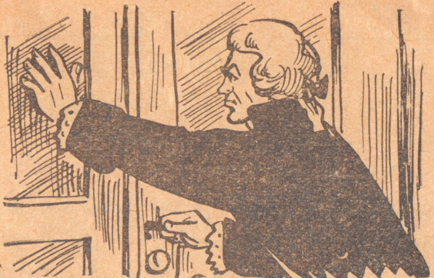
وحملنى تأكدى من ان الاتفاق قد عقد تحت بصر هذا السيد وبموافقته ، الى أن اوقع وانا مطمئن . واذ ذاك اعطانى « دوشين » عن نسخته من المخطوطات ستة آلاف فرنك ـ هى نصف الحساب ـ ومائة أو مائتى نسخة من الكتاب المطبوع ، على ما أظن . وما ان وقعت نسختى العقد حتى أرسلتهما الى السيدة دى لوكسمبورج ـ وفقا لرغبتها ـ فأعطت احداهما الى « دوشين » ، واستبقت الأخرى ، بدلا من أن ترسلها لى ، فلم أرها بعد ذلك !

ومع ان تعرفى الى السيد والسيدة دى لوكسمبورج أدخل شيئا من التعديل على شروعى فى الاعتزال ، الا انه لم يصرفنى تماما عن هذه الخطة . بل اننى ظللت أشعر — حتى فى أوج حظوتى لدى السيدة المارشالة — بأننى ماكنت لأحتمل أو اطيق الاشخاص المحيطين بالسيد المارشال وبها ، لولا صدق تعلقى بهما . **وكانت كل حيرتى تتمثل فى محاولة التوفيق بين هذا التعلق وبين نوع الحياة الأكثر ملاءمة لذوقى وأقل ايذاء لصحتى . فقد كان الارهاق المستمر ، والعشاء المتأخر يجعلان صحتى غير مستقرة على حال ، رغم كل العناية التى كانت تبذل لتجنب تعريضى لأى ضرر .** اذ كان السيد المارشال وزوجته يبديان كل اهتمام بهذه الناحية ، شأنهما بأية ناحية أخرى . ففى كل مساء — مثلا — لم يكن السيد المارشال ليغفل أن يصطحبنى بعد العشاء ، شئت أو لم أشأ ، لأحذو حذوه فى الايواء الى الفراش مبكرا . ولم يكف عن ذلك الا قبيل نكبتى بأمد وجيز ، ولسبب لم أدر به !

بل اننى قبل أن ألمح فتور السيدة المارشالة ، رغبت فى أن أحقق مشروعى القديم ، حتى لا أعرض نفسى لهذا الفتور ، ولكن الوسائل أعوزتنى لهذا التحقيق ، فكنت مضطرا الى أن أنتظر حتى يتم ابرام الاتفاق الخاص بكتاب « أميل » .. وفى خلال هذا الانتظار ، وضعت الخطوط الأخيرة فى كتاب « العقد الاجتماعى » ، ثم أرسلته الى « ريى » ، محددا ثمن المخطوط بألف فرنك ، فأعطانى هذا المبلغ . وربما كان من المستحسن أن لا أغفل هنا واقعة صغيرة تتعلق بالمخطوط المذكور . فلقد أرسلته فى غلاف محكم الأختام الى «ديفوازان» ، وكان كاهنا من بلاد (الفود) (١) ، وقسا تابعا لسفارة هولندا ، وقد اعتاد أن يفد أحيانا لزيارتى . فتكفل بحمل المخطوط الى « ريى »

---

(١) بلاد (الفود) : المقاطعات السويسرية التى يتكلم أهلها الفرنسية



الذى كان على اتصال به . ولقد كان المخطوط مكتوبا بخط جد رفيع ودقيق ، فكان من الصغر بحيث انه لم يملأ جيبه . ومع ذلك ، فقد حدث ـ بينما كان يجتاز الحدود ـ أن وقعت الحزمة ، بطريقة لا أدريها ، فى أيدى موظفى الجمارك ، الذين فضوها ، وفحصوها ، ثم ردوها اليه فى الحال ، عندما طالب بها باسم السفير . وقد أتاح له هذا الحادث فرصة الاطلاع على المخطوط ، كما انبأنى فى سذاجة ! .. ولقد اطنب ـ فى الوقت ذاته ـ فى اطراء المؤلف ، دون ما كلمة لوم أو انتقاد ، محتفظا لنفسه ـ بلا ريب ـ بحق القيام بدور المنتقم للمسيحية عندما يقدر للكتاب أن يظهر ! .. ولقد استخلص المخطوط وارسله الى « ريى » .. هذه ـ فى الواقع ـ هى القصة التى أوردها فى الرسالة التى انبأنى فيها بالأمر ، وهذا كل ما قدر لى أن أعرفه عن الواقعة

والى جانب هذين الكتابين ـ «اميل» و «العقد الاجتماعى» ـ و « الموسوعة الموسيقية » التى كنت أعمل فيها من وقت الى آخر ، كانت لدى مؤلفات أخرى ، أقل أهمية ، وكلها معدة للنشر ، فاعتزمت أن أنشرها متفرقة ، أو مع مجموعة عامة تشمل مؤلفاتى ، اذا قدر لى أن أصدر واحدة . وكان أهم هذه المؤلفات ـ التى لايزال اغلبها مخطوطات كتبها « روبيرو » ـ « رسالة فى منشأ اللغات » ، كنت قد قرأتها على السيد دى

ماليزيرب والشيفاليـيـه لورنزى الذى استحسنها . ولقـد حسبت ما تدره على هذه المؤلفات جميعا ـ بعد تغطية كافة النفقات ـ بما بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف من الفرنـكات ، على الأقل .. وهو مبلغ قررت أن أستثمره ليدر ريعا مدى الحياة ، لصالحى ولصالح تيريز . **على أن نذهب بعد ذلك ـ كما ذكرت لها ـ لنقيم معا فى أعماق أحد الأقاليم الريفيـة ، حيث لا أزعج الرأى العام بنفسى ، ولا اشغل نفسى بشىء اللهم الا أن أختم أيامى فى سلام ، مواصلا عمل الخير قدر وسعى ، فى الوسط المحيط بى .. ومستأنفا كتابة الذكريات التى كنت أفكر فيها ، على مهل !**

هكذا كان المشروع الذى يسر لى تحقيقه كرم « ريى » .. هذا الـكرم الذى ينبغى الا أمر به مر الصامتين . فان هـذا الناشر ، الذى سمعت عنه الكثير من السوء ، فى باريس ، كان الوحيد ـ بين كل أولئك الذين كانت لى بهم علاقات ـ الذى كنت أجد منه ما يرضينى دائما (١) . ومن المحقق اننـا كنا نختلف أحيانا بشأن نشر كتبى ، اذ انه كان متلكأ ، بينما كنت أنا متعجلا . ولكننى كنت أجده جد أمين ودقيق فى المسـائل المادية والاجراءات التى تتعلق بها ، بالرغم من اننى لم أعقـد معه قط اتفاقا رسميا . وهو ـ كذلك ـ الوحيـد الذى أقر صراحة بأنه افاد من معاملاته معى ، وكثيرا ، ما أنبأنى بأنه مدين لى بثروته ، وعرض على أن يشركنى فيها . **ولما كان عاجزا عن أن يظهرنى مباشرة على عرفانه ، فقد رغب فى أن يشهدنى عليـه بما يبديه لخليلتى ، فرصد لها معاشا سنويا قـدره ثلاثمائة فرنك مدى حياتها ، وأثبت فى عقد التسجيل ان هذا**

---

(١) عقب « روسو » على هذا بقوله : « عندما كتبت هـذا ، كنت بعيدا عن أن أتصور ، أو أتبين ، أو أحدس أعمال الغش التى اكتشفت ـ فيما بعـد ـ حدوثها فى طبع مؤلفاتى ، والتى اضطر الى الاعتراف بها »

المبلغ كان عرفانا منه بالفوائد التى أتحتها له . ولقد سوى هذه المسألة معى فى غير ضجة ولا اعلان ولا من ، ولو لم أكن أنا أول من تحدث عنها الى الناس أجمعين ، لما علم أحد عنها شيئا ! .. فلقد تأثرت بهذا الاجراء ، الى درجة أننى منذ ذاك الحين أصبحت مرتبطا بريى بود صادق . ولقد رغب — بعد ذلك بوقت وجيز — فى أن أكون أبا روحيا — «أشبينا» — لأحد أطفاله ، فوافقت . وكان من دواعى أساى ، اننى — فى الحال التى انحدرت اليها — كنت محروما من كل فرصة تمكننى من أن أجعل وفائى ذا نفع لابنتى الروحية ولأهلها . **ترى كيف تسنى لى — وانا الممتن الى هذه الدرجة لما أبداه هذا الناشر من كرم متواضع — أن أكون أقل امتنانا للعواطف الصارخة التى كان كثير من علية القوم يبدونها وهم يملأون الكون بالطنطنة بالخير الذى يقولون انهم رغبوا فى اسدائه الى، والذى لم أشعر به ألبتة ؟ .. أفكان الذنب فى ذلك ذنبهم ، أم تراه كان ذنبى ؟ .. أفكان الأمر مجرد زهو باطل منهم ، أم انه كان جحودا منى ؟ .. الا زن الأمر — ايها القارىء العاقل — واحكم .. أما أنا ، فسوف ألوذ بالصمت !**

ولقد كان هذا المعاش موردا كبيرا لتيريز ، وعزاء عظيما لى . وفيما عدا هذا العزاء ، كنت أبعد من أن أطمع فى أن أحصل منه — ولا من جميع الهدايا التى كانت تقدم اليها — أى نفع مباشر لى شخصيا . فكانت هى المتصرفة الوحيدة فى الجميع، على الدوام ، وعندما كنت احتفظ لها بمالها ، كنت اقدم لها عنه حسابا أمينا ، دون أن أضع فلسا واحدا منه فى نفقاتنا المشتركة، حتى عندما يقدر لها أن تكون أكثر منى ثروة . وكنت أقول لها : **« ان مالى لنا معا ، أما مالك فانه لك وحدك ! »** . وما كففت قط عن أن أتبع معها هذا المبدأ الذى كثيرا ما كنت أردده على مسمعها . أما اولئك الذين اوتوا من الخسة ما أباح لهم أن يتهمونى بأننى كنت أتقبل بيديها ، ما كنت أرفضه بيدى ،

فليسوا يحكمون على قلبى الا بما كانت عليه قلوبهم ـ دون شك ـ وانهم ليسيئون فهمى كل الاساءة . ولقد كنت على استعداد لأن أشاطرها ـ عن طيب نفس ـ الخبز الذى تكسبه بعرقها ، ولكنى ما كنت قط لأشاطرها ما تتلقاه احسانا ! .. وانى لألجأ الى شهادتها فى هذه المسألة ، سواء الآن أم فيما بعد ، عند ما يقدر لها أن تعيش بعدى ، وفقا لسنن الطبيعة !

على انها ـ لسوء الحظ ـ قليلة الالمام بالشئون الاقتصادية ، من كافة الاعتبارات ، قليلة الحرص على المال ، مسرفة .. لا عن غرور أو نهم ، وانما عن اهمال فذ ، عجيب ! .. وليس فى هذه الدنيا من أوتى الكمال ، فاذا لم يكن ثمة بد من أن يكون لصفاتها الرائعة ، ما يقابلها فى كفة التناقض ، فاننى أوثر أن تكون لها عيوب ، على أن تكون لها رذائل .. وان كانت هذه العيوب اكثر اساءة الينا معا من الرذائل ، فى بعض الأحيان !.. ان الجهود التى بذلتها من أجلها ـ كما فعلت من قبل ، من أجل « ماما » ـ كى أجمع لها بعض المدخرات التى تصبح يوما موردا لعيشها ، تفوق كل تصور .. بيد أنها كانت دائما جهودا مضيعة . فان أيا منهما ـ سواء هى أو ماما ـ لم تحاول يوما أن تعمل لمصلحتها ، فكان كل شيء لا يلبث ـ رغم كل جهودى ـ أن يضيع بمجرد أن يأتى ! .. ومع البساطة التى كانت « تيريز » تنتهجها ، فان المعاش الذى رصده لها « ريى » لم يكن قط كافيا لحاجاتها ، كما أننى لم أكن أستبقى شيئا من دخلى فى كل عام . فكلانا لم يخلق ليصبح غنيا ، فى اى يوم من الأيام ، ولست أعتبر هذا من مساوىء حظنا ، اطلاقا !

* * *

• **وطبع** « العقد الاجتماعى » دون ما كثير ارجاء ، فكان على النقيض من « اميل » الذى كنت مضطرا الى انتظار نشره ، قبل أن أنفذ مشروع اعتكافى . وكان « دوشين » يبعث الى ـ

من وقت الى آخر ـ بنماذج من الحروف لأختار منها . وكلما اخترت ، أرسل لى نماذج أخرى غيرها ، بدلا من أن يشرع فى الطبع . فلما استقر رأينا فى النهاية على الشكل وحجم الحروف ، وبعد أن أرسل لى عدة صفحات مطبوعة ، أدخلت عليها بعض تعديلات طفيفة ، أعاد الطبع من جديد .. فوجدنا أننا ـ بعد ستة أشهر ـ أقل تقدما مما كنا فى أول يوم . **وبينما كانت هذه التجارب تجرى ، اكتشفت أن الكتاب كان يطبع فى فرنسا ، كما كان يطبع فى هولندا ، طبعتين مستقلتين ! .. فما الذى كنت أملك أن أفعله ؟ .. اننى لم أعد مالك مخطوط كتابى .** وكنت بعيدا كل البعد عن أن تكون لى أية يد فى الطبعة الفرنسية ، بل اننى كنت دائما أعارض فى اصدارها ، ولكن .. لما كان طبعها جاريا على قدم وساق ، بالرغم منى ، وما دام من الممكن استخدامها كمثال للطبعة الأخرى ، فاننى وجدت من المستحسن أن ألقى نظرة على التجارب « البروفات » ، حتى لا يحرف كتابى أو يشوه . ثم أن المؤلف كان يطبع بموافقة تامة من رقيب المطبوعات ، فهو الذى كان يوجه المشروع ـ بطريقة ما ـ وكثيرا ما كتب الى ، بل انه جاء لزيارتى بصددها فى مناسبة معينة ، سأتكلم عنها حالا !

وبينما كان « دوشين » يتقدم بخطى سلحفائية ، كان « نياولم » ـ الذى تعمد أن يعوقه ـ يتقدم بخطى أكثر بطءا ، اذ أن الصفحات لم تكن ترسل اليه بالانتظام الذى كانت تطبع به . وقد خامره الظن فى أنه لاحظ سوء نية من جانب « دوشين » ، أعنى « دى جاى » الذى كان يمثله . واذ رأى ان الاتفاق لم يكن ينفذ ، كتب الى خطابات اثر خطابات ، مليئة بالشكايات والتظلمات ، التى كنت أقل مقدرة على علاجها منى على علاج المشكلات التى كانت تتعلق بمصلحتى . ولقد كان صديقه « جيران » ـ الذى كان يكثر جدا من زيارتى فى ذلك الحين ـ لا يفتأ يتحدث الى عن هذا الكتاب ، ولكن فى كثير من التحفظ

المسرف . كان يعرف ، ولا يعرف ، أن الكتاب كان يطبع فى فرنسا .. وكان يعرف ، ولا يعرف ، أن الرقيب كان مهتما به بنفسه .. وكان يشفق على من الحرج الذى سببه لى هذا الكتاب ، بينما كان ــ فى الوقت ذاته ــ يتهمنى بالخرق ، دون أن ينبئنى قط بما هناك من خرق .. وكان يراوغ ويداور ويمارى دون انقطاع .. كان يبدو وكأنه يتكلم ليستدرجنى الى الكلام . وكانت طمأنينتى ــ خلال تلك الفترة ــ مكتملة الى درجة أننى كنت أضحك من اللهجة المتحفظة والغامضة التى كان ينتهجها فى هذه المسألة ، واعتبرها عادة نشأت عنده من الاتصال المستمر بالادارات الوزارية والقضائية . **وكنت متأكدا من ان كل الاعتبارات الخاصة بهذ الكتاب كانت كما ينبغى لها ان تكون ، ومقتنعا كل الاقتناع بأن الكتاب لم يحز رضاء ورعاية الرقيب فحسب ، وانما كان يستحق رضاء الوزير نفسه ، وقد ظفر به ومن ثم فقد رحت أهنىء نفسى على حسن تصرفى ، وأضحك من ضعف قلوب أصدقائى ، الذين كانوا يبدون القلق من أجلى** . ولقد كان « ديكلو » من هؤلاء القلقين ، وأعترف أن ثقتى فى استقامته وحصافته كانت خليقة بأن تنذرنى بالخطر ، لو اننى كنت أقل اطمئنانا الى فائدة مؤلفى والى شرف من كانوا يرعونه . وقد زارنى ، موفدا من السيد « باى » ، أثناء طبع « اميل » ، فحدثنى عنه . وقرأت عليه اعلان أسقف سافوا لايمانه ، فأنصت فى اعجاب بالغ ، وفى اغتباط عظيم ، على ما لاح لى . فلما فرغت من القراءة ، **قال لى : « عجبا ، أيها المواطن ! .. أفهذا جزء من كتاب يطبع فى باريس ؟ »** . **فقلت له : « أجل .. وقد تقرر طبعه فى اللوفر ، بأمر من الملك »** . **فقال لى : « انى مقتنع بذلك ، ولكن .. هل لك فى أن ترضينى بأن لا تذكر لأى امرىء أنك قرأت على هذا الجزء ؟ ! »** .. وكان هذا الأسلوب الشاذ فى التعبير عما بنفسه ، خليقا بأن يدهشنى ، ولكنه لم يرهبنى . فقد كنت

أعرف ان ديكلو كان كثير الالتقاء بالسيد دى ماليزيرب ، ومن ثم فقد شق على أن أدرك كيف كان رأيه يختلف كثيرا عن رأى ذاك السيد ، فى موضوع واحد .

* * *

• **ولقد** أقمت فى مونمورنسى فوق أربع سنوات ، دون أن أستمتع بصحة طيبة ليوم واحد . فبالرغم من ان الهواء كان بديعا ، الا ان الميــاه كانت رديئة ، ومن المحتمل كل الاحتمال ان يكون هذا من الاسباب التى ســاهمت فى استفحال عللى المعهودة . وفى أواخر خريف سنة ١٧٦١ ، سقطت مريضا ، وقضيت الشتاء كله فى أوجاع لم تكن تهن تقريبا . وكان سقمى البدنى يزداد وطأة بألف هم وقلق ، مما يضاعف احساسى به وتوجعى له . فلقد ظلت تراودنى – فترة من الزمن – وساوس خفية ، كئيبة ، لم أكن ادرى لها مأتى . وكنت أتلقى رسائل جد عجيبة ، خاليــة مما ينم عن مرسليها .. بل ورســائل كانت تحمل توقيعات كاتبيها ، ولا تقل عنهــا غرابة . **وكانت منها رسالة من مستشار بالبرلمان ، فى باريس ، لم يكن راضيا عن الوضع الراهن ، ولا مطمئنا الى نتائجه ، فشاء أن يستشيرنى فى أن أختار ملاذا فى (جنيف) أو فى (سويسرا) يستطيع أن يأوى اليه مع أسرته .. ورسالة أخرى من السيد دى ... ، رئيس الدورة النيابية فى برلمان (...) الذى سألنى أن أوجه مذكرة استنهض بها أعضاء هذا البرلمان ، الذى كان – فى ذلك الوقت – على غير وئام مع البلاط الملكى وعرض – فى الوقت ذاته – أن يمدنى بكل الوثائق والمواد التى احتاج اليها فى هذا الصدد .**

وعندما أكون معذبا بالألم ، أغدو فريسة سهلة للانفعال . وهذا ما حدث عندما تسلمت هذه الخطابات ، وقــد أظهرت حالى فى اجاباتى ، اذ رفضت فيها رفضا باتا أن أفعل ماسؤلته .

ويقينا اننى لا ألوم نفسى على هذا الرفض ، اذ كان من المحتمل أن هذه الخطابات فخاخ أعدها أعدائى (١) ، وقد كان ماسؤلته مخالفا للمبادىء التى كنت لا أزال أقل ميلا الى التحول عنها ، منى فى اى وقت آخر . ولكنى رفضت بفظاظة ، فى حين أننى كنت أملك أن أرفض فى أدب . وقد كنت فى هذا مخطئا

ولسوف توجد الرسالتان اللتان ذكرتهما ، بين أوراقى . ولم يدهشنى خطاب المستشار البتة ، لأننى كنت أرى — مثله ومثل كثيرين غيره — ان تداعى الدستور كان ينذر فرنسا بخراب قريب . **كانت الخسائر التى خلفتها حرب منكودة ، ترتبت بأسرها على خطأ من الحكومة (٢) .. وكان الارتباك المالى الذى يجل عن التصور .. والخلافات المستمرة فى الهيئة التنفيذية التى كانت موزعة — حتى ذلك الحين — بين وزيرين او ثلاثة ، كل منهم فى حرب مكشوفة مع الآخر ، وثلاثتهم يسعون الى توريط المملكة فى مآزق ، ليكيد كل منهم للآخر (٣) .. والتذمر العام الذى ساد الشعب وكافة طبقات الدولة .. وتشبث امرأة عنيدة ، درجت دائما على أن تضحى مواهبها الذهنية — اذا كانت قد أوتيت مواهب ما — فى سبيل ميولها ونزواتها ، وكانت دائما ما تقصى القادرين عن مناصب الدولة ، لكى تملأها بالمقربين اليها .. كانت كل هذه العوامل ، تساهم فى**

---

(١) أضاف « روسو » الى هذا : « كنت أعرف — على سبيل المثال — ان رئيس برلمان (...) ، كان وثيق الصلة بجماعة دائرة المعارف ، وبعصبة دولباخ »

(٢) حرب السنوات السبع

(٣) كان وزير المالية ووزير الحربية فى صراع مستمر ، على نسق الصراع الذى كان دائرا بين البرلمان ورجال الدين .. وكان البلاط الملكى ذاته منقسما الى فريقين ، أحدهما يتزعمه دوق ديجيون ، ويلتف حول ولى العهد ، والآخر يتزعمه الكونت دى ستانفيى — الذى أصبح دوق دى شوازيل — ويلتف حول محظية الملك ، مدام دى بومبادور !

تبرير مخاوف المستشار ، والجمهور ، وأنا !

ولقد حملتنى هذه الوساوس مرارا على أن أتساءل عما اذا كان من الجدير بى أن أبحث أنا الآخر عن ملجأ لى خارج المملكة ، قبل قيام الاضطرابات التى كان يبدو أنها تتهددها . ولكننى كنت — اطمئنانا الى تفاهة شأنى ، والى مسلكى الوادع — أعتقد أن شيئا من العاصفة ما كان ليقوى على أن يصل الى ، فى العزلة التى اعتزمت أن أعيش فيها . ولم يكن يحزننى سوى أن السيد دى لوكسمبورج ، انصرف — فى هذه الظروف — الى الاضطلاع بمهام كانت خليقة بألا تجعله موضع رضى من حكومته ذاتها . وكنت أود لو انه أعد لنفسه — فى مثل هذه الحال — مخرجا ، وتأهب لكل الطوارىء ، اذا ما قدر للجهاز الضخم أن يتهدم .. الأمر الذى كان ثمة ما يبرر الخوف من حدوثه ، تحت الظروف القائمة ، ولا يزال يبدو لى — فى الوقت الحاضر — انه لا مجال للشك فى انه لو لم تقع جميع أزمة الحكم — فى النهاية — فى يد واحدة (١) ، لكانت الملكية الفرنسية الآن فى النزع الأخير !

وبينما كانت حالى تزداد سوءا ، أخذ طبع « اميل » يزداد بطءا ، ثم أوقف تماما ، فى النهاية ، دون أن أتمكن من معرفة السبب ، ودون أن يتنازل « دى جاى » فيكتب لى ، أو يرد على رسائلى . ولم أستطع أن أحصل على أنباء من أحد ، ولا عرفت شيئا مما كان يجرى ، اذ ان السيد دى ماليزيرب كان فى الريف ، فى تلك الآونة . وما قدر لأية محنة — مهما تكن — ان تزعجنى أو أن تربكنى ما دمت أعرف كنهها ومبناها ، ولكننى فطرت على التخوف من الظلمات ، فأنا أكره وأرهب مظهرها الأسود .. ان الغموض يقلقنى دائما ، فهو شديد التناقض مع طبيعتى التى تتسم بصراحة تكاد تبلغ التهور

---

(١) الدوق دى شوازيل

ومجافاة الحكمة . أن مرأى أفظع الهوام لايفزعنى الا قليلا — فيما أحسب — ولكننى أذعر اذا ما لمحت فى الليل شبحا تحت كساء أبيض ! .. **ومن ثم فقد شغل خيالى — اذ أذكاه هذا الصمت الطويل — برسم أشباح مرعبة لى . وكنت كلما تحمست لنشر آخر مؤلفاتى وأفضلها ، أمعنت فى اضناء نفسى بحثا عما قد يكون السبب فى تأخره. ولما كنت أمعن فى التطرف — فى كل شىء — فقد خيل الى اننى ألمح وراء ايقاف طبع الكتاب ، بوادر مصادرته !**

على اننى لعجزى عن تصور السبب أو الطريقة ، لهذه المصادرة ، ظللت فى أقسى ألوان الشك فى الدنيا . ورحت أكتب الخطابات اثر الخطابات ، الى « جاى » ، والى السيد دى ماليزيرب ، والى السيدة دى لوكسمبورج ، دون ان تصلنى الاجابات قط ، أو انها لم تكن تفد فى الأوقات التى كنت أتوقعها ، فاشتد اضطرابى ، حتى لقد رحت أهذى . وسمعت — لسوء الحظ — فى تلك الآونة ، ان الأب « جريفيه » — وكان من الجيزويت — قد تحدث عن « اميل » ، بل وسرد فقرات منه ، فاذا خيالى يفض — كالبرق الخاطف — هذا الغموض المحير بأسره . ورأيت بجلاء تام تطورات الأمور ، كما لو انها كانت قد كشفت لى .. فتمثلت أن الجيزويت قد هاجتهم لهجة الازدراء ، التى تحدثت بها عن مدارسهم ، فاستولوا على مؤلفى ، وانهم هم الذين كانوا يعطلون نشره .. وأنهم قد علموا من صديقهم « جيران » بحالى الراهنة ، فتوقعوا قرب موتى — الأمر الذى لم أكن ، أنا نفسى ، أرتاب فيه — ومن ثم فقد كانت غايتهم هى تعطيل الطبع الى أن تحدث الوفاة ، معتزمين أن يشوهوا ويحرفوا الكتاب لكى يخدم أغراضهم هم ، بأن يعزوا الى آراء تخالف آرائى تماما !

وما كان أعجب تلك الوقائع والظروف التى توافدت على عقلى والتفت حول هذه الفكرة الحمقاء ، فأكسبتها مظهر الحقيقة ..

بل راحت تثبت صدقها ! وكنت أعرف ان «جيران» كان على ولاء تام للجيزويت ، فعزوت اليهم كل المحاولات الودية التى عرضها على من قبل ، وأقنعت نفسى بأنه ما ألح على بالاتفاق مع « نياولم » الا بواعز منهم ،وبأنهم ماتوصلوا الى الصفحات الاولى من مؤلفى ، الا عن طريق هذا الناشر ، وانهم لم يلبثوا ان اهتدوا الى طريقة لحمل « دوشين » على ان يوقف الطباعة، ولعلهم استطاعوا أيضا ان يستولوا على الأصل الخطى للكتاب، كى يعملوا على مهل فى تحريفه ، حتى يطلق موتى الحرية لهم فى ان ينشروا هذا الزيف وفق هواهم . ولقد كنت أشعر دائما – وبالرغم من ملق الأب بيرتييه – ان الجيزويت لم يكنوا لى شيئا من الحب ، على الاطلاق ، لا لاشتراكى فى جماعة الموسوعة أو « القاموس المحيط » فحسب (١) ، وانما لأن آرائى – أيضا – كانت أشد عداء لمبادئهم ونفوذهم من كفر زملائى ، اذ ان من الممكن التطرف الزندقى والتطرف الدينى ان يتقاربا بفضل تعصبهما المشترك ، بل ان من الممكن ان يتحدا، كما فعلا فى الصين، وكما يفعلان الآن فى عدائهما لى . اما العقيدة القائمة على العقل والمبادىء الخلقية ، والتى تلغى كل سلطان انسانى على الضمائر ، فانها لا تدع موردا يستغله اولئك الذين يزعمون لأنفسهم هذا السلطان !

ولقد كنت أعرف – كذلك – ان السيد المستشار (٢) كان صديقا حميما للجيزويت ، فخشيت ان يكون الابن قد وجد نفسه مضطرا الى ان يسلمهم المخطوط الذى تكفل بحمايته ، تحت الشعور بالحرج أمام ابيه ! .. بل لقد زين لى الوهم أن أرى أثر هذا التخلى منه عن المخطوط ، فى تلك التحرشات التى بدىء فى توجيهها الى ، بصدد الجزءين الأولين من الكتاب ،

---

(١) تحدث « روسو » عن هذا المشروع فى صفحة ١١٥ – الجزء الثالث
(٢) المستشار دى ماليزيرب ، والد رقيب المطبوعات

اللذين احتجزا ، دون تجليد لبعض أمور تافهة .. فى حين ان الجزءين الباقيين ، كانا - كما هو غير مجهول - مفعمين بآراء عنيفة ، مما كان يستدعى اعادة صوغهما بأكملهما ، اذا كان الرقيب قد انتقدهما ، كما فعل بسابقيهما . ثم اننى كنت أعرف - فوق هذا ، كما انبأنى به السيد دى ماليزيرب نفسه - ان الراهب « دى جراف » ، الذى وكل اليه أمر مراجعة هذه الطبعة ، كان هو الآخر من اتباع الجيزويت . وهكذا لم اكن ارى سوى الجيزويت فى كل مكان ، دون ان افكر فى انهم كانوا على أعتاب ابادتهم ، وانهم كانوا جد منهمكين فى الدفاع عن أنفسهم ، فكان لديهم ما يشغلهم عن التآمر ضد طبع كتاب لم يكن لهم به أى شأن .

بل اننى لأخطىء اذ أقول : « دون أن أفكر » ، فالواقع اننى فكرت جيدا ، وكان هذا بالذات من الاعتراضات التى عنى السيد دى ماليزيرب بأن يبديها لى ، بمجرد أن فطن الى الفكرة الواهمة التى تملكتنى . ولكننى بنزوة من تلك النزوات التى تتملك رجلا يحاول - من أعماق معزله - ان يجلو اسرار جسام الأمور ، وهو لايعرف عنها شيئا ، لم أشأ قط أن أصدق ان الجيزويت كانوا فى خطر ، بل اعتبرت مثل هذه الشائعات بمثابة حيلة منهم لتخدير اعصاب خصومهم . وكانت انتصاراتهم الماضية - التى لا سبيل الى انكارها - توحى الى بفكرة رهيبة عن نفوذهم ، حتى اننى رحت أنعى على البرلمان هوانه ازاءهم . **وكنت أعرف ان السيد دى شوازيل قد درس على ايدى الجيزويت ، وان السيدة دى بومبادور لم تكن على علاقات سيئة معهم ، وان تحالفهم مع ذوى الحظوة والوزراء ، كان يعتبر دائما ذا نفع كبير لكل من الطرفين ضد عدوهما المشترك . وكان البلاط الملكى يبدو متباعدا عن الزج بنفسه فى هذه الأمور .. ولما كنت مقتنعا بأن المجتمع اذا تعرض يوما لأية هزة عنيفة ، فلن يكون البرلمان من القوة بحيث يحدث هذه**

الهزة ، فقد اتخذت من هـذا الاعراض عن العمل من جانب البلاط ، اساسا لثقة الجيزويت واطمئنانهم الى الفوز .

وقصارى القول ، اننى لم اكن ارى فى كل شـــائعات تلك الفترة ، سوى تعمية وشباك من جانب الجيزويت ، ولما كنت مؤمنا بأنهم — فى موقفهم الأمين — قد أوتوا الوقت الكافى لكى يعدوا عدتهم لـكل شيء ، فاننى لم اكن أرتاب قط فى انهم لن يلبثوا ان يسحقوا اليانسيين ، والبرلمان . واصحاب الموسوعة، وكل من لم ينصاعوا لربقتهم .. وانهم اذا اتاحوا لـكتابى ان يظهر — فى النهاية — فلن يـكون ذلك الا بعـد أن يحولوه الى سلاح ، وان يستغلوا اسمى فى التغرير بقرائى .

ولقد كنت أشعر بأننى موشك على الموت ، ومن ثم فاننى لا أكاد أدرى ، كيف ان هذا التهوس لم يقض على ! .. فشد ما جزعت لفكرة ان ذكراى قد تشوه بعد موتى ، فى أفضـل كتبى وأجدرها بالمجد ! .. أبدا ما شعرت بمثل ذلك الخوف من الموت الذى تولانى اذ ذاك ، واعتقد انه لو كان مقدرا لى أن أمـوت اذ ذاك ، لقضيت نحبى وأنا فى يأس قاتل . بل اننى اليوم، وأنا أرى أسود وأبشع مؤامرة دبرت ضد ذكرى امرىء، تسير قدما نحو غايتها ، أشعر بأننى سأموت أكثر طمأنينة ، اذ أترك خلفى — فى كتاباتى — شاهدا لن يلبث ان ينتصر — أن عاجلا أو آجلا — على مؤامرات البشر !

سنة ١٧٦٢

• وكان السيد دى ماليزيرب هو شاهد انفعالى ، ومستودع سري بشأنه ، فبـذل فى سبيل التسرية عنى جهودا نمت عن طيبة قلب لا ينضب لها معين . ولقـد ساهمت السيدة دى لوكسمبورج فى هذا العمل الطيب ، وزارت « دوشين » عدة مرات ، لكى تتبين مدى تقدم سير الطبعة . واخيرا ، استؤنفت الطباعة ، وراحت تتقـدم أسرع من ذى قبل ، وما قـدر لي

قط أن أعرف سر توقفها من قبل . ولقد تجشم السيد دى ماليزيرب عناء الحضور الى (مونمورنسى) كى يهدىء من هواجسى ، ووفق فى ذلك ، اذ أن ثقتى التامة باستقامته ، تغلبت على تخبط فكرى ، فجعلت كل مجهود منه – ليعيد الى ذهنى اتزانه – مجهودا مثمرا . وكان من الطبيعى ان يجدنى جد جدير بالرثاء ، بعد كل الذى شهده من شجونى وآلامى . ولقد عاودته فكرة التعنت الفلسفى التى كانت تحيط به وتردد على سمعه باستمرار . فلقد قيل الملأ ، عندما ذهبت للاقامة فى (ليرميتاج) – كما ذكرت من قبل – اننى لن اطيق البقاء طويلا ، فلما رأى المتقولون اننى بقيت هناك ، زعموا ان بقائى انما كان بدافع من عنادى ، وكبريائى ، واستحيائى من ان أتراجع .. واننى كنت فى الحقيقة أعانى ضيقا قاتلا ، وشقاء بالغا . ولقد صدق السيد ماليزيرب ذلك ، وكتب الى . فكان شعورى مضاعفا لصدور هذا الخطأ عن رجل كنت أكن له كثيرا من التقدير ، ومن ثم كتبت له أربع رسائل تباعا ، شرحت له فيها الدوافع الحقيقية لمسلكى ، ووصفت له باخلاص ميولى ، ونزعاتى ، وشخصيتى ، وكل ما يخالج فؤادى .. **هذه الرسائل الأربع ، التى كتبت دون تحضير ولا مسودات ، وانما بسرعة ، وبجرة قلم ، ودون ما مراجعة ، قد تكون المؤلفات الوحيدة – فى حياتى – التى كتبتها بسهولة .. والأعجب من هذا اننى كتبتها وسط آلامى والتداعى المفرط الذى كنت أعانيه . واذ كنت أشعر بأن قواى كانت فى اضمحلال ، فقد تنهدت حسرة اذ فكرت فى اننى سأخلف ورائى – فى اذهان الرجال الأشراف – مثل ذاك الرأى الظالم عن نفسى ، ومن ثم فقد حاولت بالصورة السريعة التى رسمتها فى الرسائل الاربع ، أن أسد الفراغ الذى كان يجب ان تملأه المذكرات التى اعتزمت من قبل أن أكتبها ! ..**
ان هذه الرسائل التى أعجب بها السيد دى ماليزيرب ، والتى

اطلع عليها أهل باريس ، تعتبر ـ الى حد ما ـ ملخصا لهذا الذي أعرضه هنا بالتفصيل ، ومن ثم فهي جديرة بأن تصان. ولسوف توجد منها ـ بين اوراقى ـ نسخة نقلها برجاء منى، وارسلها الي بعد ذلك بسنوات .

وأصبح الشيء الوحيد الذى يكربنى ـ منذ ذلك الحين ـ كلما فكرت ، اننى كنت موشكا على الموت ، هو اننى كنت محروما من أى أديب أركن اليه ، واستطيع ان أضع بين يديه اوراقى ، لكى يراجعها ويفرزها بعد وفاتى ! .. وكنت منذ رحلتى الي (جنيف) ، قد اتصلت بـ « مولتو » برباط من المودة ، فقد شغفت بهذا الشاب ، وكنت أتمنى لو انه جاء ليغمض عينى عندما أموت . ولقد أطلعته على هذه الرغبة ، وأعتقد أنه كان على استعداد لأن يؤدى هذا الواجب الانسانى، وهو راض ، لو ان شئونه وأسرته سمحت له بذلك . أما وقد حرمت من هذا العزاء ، فقد رغبت فى أن أهبه دليلا على ثقتى فيه ـ على الأقل ـ بأن أرسلت اليه « اعلان اسقف سافوا ايمانه » ، قبل النشر . ولقد سر بها ، ولكنى لم أشتم فى لهجة رده ما ينم عن انه كان يشاطرنى الاطمئنان الى الثقة التى أردت بعملى أن أشعره بها . فقد رغب فى الحصول على بضع قطع أدبية لم يقدر لسواه ان يحرزها . ومن ثم ارسلت اليه : « رثاء الدوق دورليان عند وفاته » ، وكنت قد كتبت هذا الرثاء للراهب دارتى ، بيد أنه لم يقدر له أن يلقيه ، اذ عهد بمهمة رثاء الفقيد الى سواه ، على غير ما كان يتوقع !

وما ان استؤنف طبع « اميل » ، حتى مضت العملية قدما وانتهت فى هدوء ، وقد لاحظت فى هذه المرة ظاهرة عجيبة ، فبعد الصفحات التى حذفت فى قسوة من الجزءين الأولين ، أجيز الجزءان التاليان دون ما اعتراض ، ودون ان يتخذ من محتوياتهما ما يعرقل النشر . **وكنت لا أزال احتفظ ببعض التوجس الذى ينبغى الا أغفله هنا . فبعد ان كنت فى خوف**

من الجيزويت ، اذا بى فى خوف من اليانسيين ومن الفلاسفة . اذ انني كعدو لكل ما يسمى تحزبا ، او تعصبا ، او تعنتا ، لم أكن أتوقع قط اى خير من أولئك الذين أوتوا شيئا من ذلك .

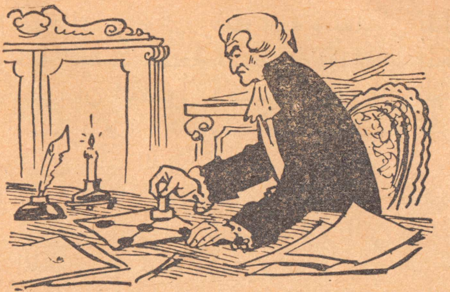
وكان « الثرثاران » (١) قد خلفا ـ قبل ذلك بزمن ـ مقرهما القديم ، واستقر بهما المقام جد قريب منى ، حتى لقد كان من الممكن ان يسمع فى غرفتهما كل مايقال فى غرفتى أو شرفتى ، كما كان من السهل جدا تسلق السياج القصير الذى كان يفصل حديقتهما عن شرفتى المغلقة الجوانب ، وكنت قد اتخذتها حجرة مكتب ، فأقمت فيها منضدة تكدست عليها «بروفات» وصفحات « اميل » و«العقد الاجتماعى » . ولقد اعتدت ان اخيط هذه الأوراق بعضها الى بعض ، عندما ترسل الى ، وبهذا كنت أحصل على نسخ من كتبى قبل ظهورها بوقت طويل . وكان غبائى واهمالى وثقتى فى السيد متى(٢) ، واطمئنانى الى الحديقة التى كانت تحيط بمسكنى .. كل هذه كثيرا ما كانت تجعلنى انسى اغلاق الشرفة فى الليل ، فكنت أجدها فى الصباح مفتوحة .. وما كان هذا ليسبب لى أتفه شاغل ، لولا ان خيل الى اننى لاحظت ان أوراقى لم تكن كما رتبتها . واذ لاحظت هذا عدة مرات ، أصبحت أكثر عناية باغلاق شرفتى . وكان القفل رديئا ، لا يكاد المفتاح يدور فيه سوى نصف دورة . واذ ازددت انتباها ، وجدت أن العبث بأوراقى أصبح اكثر مما كان عندما كنت أترك الباب مفتوحا .

وأخيرا ، اختفى أحد كتبى يوما وليلتين ،وعجزت تماما عن أن أتبين ما جرى له ، الى ان كان صباح اليوم الثالث ، اذ وجدته ثانية على المنضدة ! ..ولم أشعر اذ ذاك ـ ولا شعرت

---

(١) أورد « روسو » ذكرهما فى الجزء الرابع

(٢) صاحب (مون ـ لوى) ، الدار التي سكنها « روسو » فى (ونمورنسى) بعد أن غادر (ليرميتاج)



يوما ـ بأى ارتياب فى السيد متى ، ولا فى ابن اخيه السيد دومولان ، اذ كنت أعرف أن كلا منهما كان يحبنى ، ومن ثم فقد كنت اوليهما كل ثقة . **وبدأت أشعر باطمئنانى الى « الثرثارين » يتضاءل . وكنت أعرف ان لهما علاقة بدالمبير ـ رغم انهما كانا من اليانسيين ـ كما انهما كانا يقيمان معه فى مسكن واحد فى باريس . وقد سبب لى هذا شيئا من عدم الارتياح ، وجعلنى أكثر حذرا** . فنقلت أوراقى الى مخدعى ، وانصرفت نهائيا عن زيارة هذين الشخصين ، لا سيما واننى سمعت كذلك انهما عرضا ـ فى عدة بيوت ـ الجزء الاول من « اميل » ، الذى كنت من عدم الحكمة بحيث أننى اعرتهما اياه . ومع انهما ظلا يجاوراننى فى السكنى الى ان غادرت المكان ، الا اننى لم أتصل بهما قط منذ ذلك الحين !

★ ★ ★

• **وسبق** « العقد الاجتماعى » كتاب «اميل» الى الظهور ، بشهر أو شهرين . وكان « ريى » ـ الذى اعتدت دائما أن أحرم عليه تحريما باتا ادخال أى كتاب من كتبى الى فرنسا ـ قد أرسل الى المستشار يرجو الحصول على اذن بأن يدخل « العقد الاجتماعى » الى فرنسا ، عن طريق (روان) ، حيث كان قد أرسله بحرا . ولم يتلق « ريى » ردا ، فظلت طروده

فى (روان) عدة أشهر ، ثم ردت اليه ، بعد أن بذلت محاولة لمصادرتها ولكنه احدث ضجة اضطرت اصحاب المحاولة الى ردها اليه . على ان الفضول دفع البعض الى الحصول على نسخ من (امستردام) ، تدوولت فى غير ضجة تذكر . ولقد حدثنى « موليون » — الذى كان قد سمع ، بل ورأى بعض هذه النسخ — عن الأمر ، فى شىء من الغموض الذى أدهشنى ، وكان خليقا بأن يثير قلقى — كذلك — لولا اننى فى تأكدى من اننى اتبعت القانون فى كافة الاعتبارات ، ولم أت ما أؤاخذ نفسى عليه ، رحت اطمئن نفسى مستندا الى مبدئى العظيم . **ولم يخالجنى شك فى ان السيد دى شوازيل — الذى كان قد أبدى ميلا طيبا نحوى ، ورضاء عن المديح الذى دفعنى تقديرى اياه الى أن أورده فى هذا الكتاب — لن يتردد عن مؤازرتى ، فى هذه المناسبة ، ضد النوايا السيئة التى تصدر عن السيدة دى بومبادور !**

وكان من المؤكد أن بوسعى اذ ذاك أن أركن الى أفضال السيد دى لوكسمبورج ، أكثر من ذى قبل ، وأن أطمئن الى تعضيده لى عند الضرورة . اذ انه لم يبد لى يوما ما يفوق ما كان يبديه لى اذ ذاك من دلائل الود والصداقة . ومع ان حالتى الصحية المحزنة لم تكن تتيح لى أن أسعى الى القصر — عندما قدم فى رحلة عيد الفصح — الا انه لم يكن يدع يوما يمر دون ان يزورنى . واذ رأى أن آلامى لاتنقطع ، أقنعنى — فى النهاية — بأن أعرض نفسى على الأخ «كوم» (١) . وأرسل يبحث عنه ، ثم أحضره بنفسه ، وأوتى الجلد على ان يبقى معى اثناء العملية التى كانت مؤلمة وطويلة ، وهو أمر نادر — وجدير بالتقدير — لدى نبيل عظيم الجاه مثله . على ان العملية

---

(١) الأخ « كوم » ، هو جان باسيبلاك ، الذى عاش بين سنتى ١٧٠٣ و ١٧٨١ ، وكان حجة فى « الحصوة » وعلل المثانة والكلى . وكان راهبا

لم تكن تتجاوز استخدام المسابر والمجسات ، بيد أننى لم أكن يوما قادرا على تحملها ، حتى على يدى «موران» الذى حاولها عدة مرات ، ولكنه باء بالفشل باستمرار . على ان الأخ «كوم» - الذى أوتى مهارة وخفة يد لا تضارعان - وفق فى النهاية ، الى انفاذ مسبر جد صغير ، بعد ان سبب لى ألما عظيما لأكثر من ساعتين ، كنت خلالهما أبذل قصارى جهدى لأكتم صرخاتى ، حتى لا أمس الفؤاد الحساس الذى أوتيه المارشال الطيب !.. وخيل الى الأخ كوم - بعد الفحص الأول - انه قد اهتدى الى « حصوة » كبيرة ، وأنبأنى بذلك . بيد أنه لم يستطع العثور عليها فى الفحص الثانى . وبعد أن أجرى فحصا ثانيا ، وثالثا ، فى عناية ودقة جعلتانى أشعر بالوقت يستطيل كل الطول ، اعلن ان لا « حصوة » هناك البتة ، ولكن « البروستاتا » كانت متحجرة ، ومتضخمة الى درجة غير عادية . ووجد ان المثانة كبيرة وفى حال جيدة ، وانتهى بأن ابدى لى اننى سأعانى كثيرا ، ولكننى سأعيش طويلا . واذا كان قد قدر للنبوءة الثانية ان تكتمل ، كما اكتملت الأولى ، فان آلامى لم تقترب بعد من نهايتها !

وهكذا انتهى بى الأمر ، بعد ان عولجت طيلة هذه السنين المتتابعة من علل لم تكن بى ، الى أن اعرف ان دائى لم يكن منه شفاء ، وان لم يكن مميتا ، وانه خليق بأن يظل ما ظللت أنا على قيد الحياة . ولم يعد خيالى - بعد ان كبحته هذه المعرفة - يصور لى وفاة أليمة قاسية ، تتم وسط الأوجاع الناشئة عن « الحصوة » . ومن ثم فقد كففت عن الخوف من ان تكون نهاية مسبر كسرت - منذ امد طويل - فى القناة البولية ، قد غدت نواة تكونت حولها « حصوة » . واذ تحررت من شرور الوهم - التى كانت اقسى من اوجاع الحقيقة - رحت أتحمل هذه الحقيقة فى جلد وصبر . وليس من شك فى اننى منذ ذلك الحين ، أصبحت أقل توجعا من مرضى ، من ذى قبل .

وما تذكرت مرة اننى كنت مدينا بهذه الراحة الى السيد دى لوكسمبورج ، دون ان تهتز مشاعرى من جديد، تأثرا لذكراه !

واذ عدت ـ بهذا ـ الى الحياة ، كما ينبغى ان يقال ، أصبحت أكثر من ذى قبل انشغالا بانجاز ما تبقى من مشروعى (١) . ولم أكن أنتظر ـ لهذا الانجاز ـ سوى ظهور « اميل » . وفكرت فى (تورين) التى كنت قد زرتها من قبل ، والتى راقت لى ، نظرا للطف جوها وأهلها

« فالأرض الحنون ، الخصبة ، البهيجة

« وأهلها يشبهونها فى كل شىء » ! (٢)

وكنت قد تحدثت عن مشروعى الى السيد دى لوكسمبورج ، فحاول ان يثنينى عنه . وعدت الى ان اكلمه بصدده كأمر استقر الرأى عليه . واذ ذاك اقترح على قصر « ميرلو » ـ الذى كان يقع على خمسة عشر فرسخا من باريس ـ كملجأ قد يناسبنى ، وأعرب عن اغتباطه وزوجته بأن يريانى استقر فيه . ولقد صادف الاقتراح هوى من نفسى ، فلم أر فيه ما يضير . وكان لا بد من رؤية المكان ، قبل كل شىء ، فاتفقنا على ان يرسل وصيفه الخاص مع عربة ، لتقلنى الى هناك فى يوم محدود . ولكنى شعرت ـ فى ذلك اليوم ـ بوعكة شديدة ، ومن ثم أرجئت الرحلة . ثم تكاتفت عدة عوائق بعد ذلك ، على ان تحول بينى وبين القيام بها . واذ قدر لى ـ فيما بعد ـ أن أسمع أن ضيعة (ميرلو) لم تكن من أملاك السيد دى لوكسمبورج ، وانما كانت من أملاك زوجته ، فاننى لم أجد كثير عناء فى أن أعزى نفسى لعدم ذهابى الى هناك !

* * *

● **وظهر** « اميل » أخيرا ، دون أن أسمع أى نبأ جديد عن

---

(١) مشروع اعتزال الأدب والناس

(٢) بيت من الشعر اللاتينى للشاعر تاسو

حذف شيء آخر ، أو عن أية عقبات . وكان السيد دى لوكسمبورج قد طلب الى ، قبل ظهور الكتاب ، كل رسائل السيد دى ماليزيرب التى تتعلق بهذا المؤلف . ولقد حالت ثقتى فى كل منهما ، وشعورى بالطمأنينة التامة ، دون أن أرى فى هذا الطلب أية غرابة أو شبهة . ومن ثم فاننى أعدت الخطابات ، فيما عدا واحد أو اثنين ، تخلفا عفوا بين صفحات بعض الكتب . وكان السيد دى ماليزيرب قد أشار - قبل ذلك بفترة من الزمن - الى انه قد يسحب الرسائل التى كتبتها الى « دوشين » ، عندما كنت فى جزع بشأن الجيزويت . ومن الواجب أن أعترف بأن هذه الرسائل لم تكن مما يشرف عقلى وتفكيرى . ولكنى أنبأته بأننى لم أكن تواقا الى أن أظهر بمظهر يفضل حقيقتى بأية حال ، وان من الخليق به ان يدع الرسائل لدوشين .. ولست أدرى ما اذا كان قد فعل

ولم يقابل ظهور هذا الكتاب بالضجة والاعجاب اللذين اعتادا أن يحفا بظهور كل مؤلفاتى . بل ان كتابا سواه لم يقابل بمثل ما قوبل به هو من اطراء من الخاصة ، ومن استحسان واهن من العامة . فان كل ما كتبه وقاله لى أقدر الناس على الحكم ، عزز رأيى فى أنه أفضل مؤلفاتى وأهمها قيمة . ولكن كل الذى قيل لى قيل فى أغرب مظاهر التحوط والحذر ، وكأنما كان من المهم تكتم الاستحسان واعتباره سرا ! .. فالسيدة « دى بوفلير » ، التى ذكرت لى ان مؤلف مثل هذا الكتاب جدير بأن تقام له تماثيل ، وان يتلقى آيات التكريم من البشر قاطبة ، رجتنى فى نهاية رسالتها - فى غير ما مواراة - بأن أرد اليها الرسالة ! .. أما « دالمبير » - الذى كتب لى ما معناه ان الكتاب قد أقر تفوقى وسمو شأنى ، وانه خليق بأن يجعلنى على رأس كافة الأدباء - فقد أغفل توقيع الرسالة ، مع انه اعتاد توقيع كل الرسائل التى أرسلها الى قبل ذلك . ولقد كان « ديكلو » صديقا جديرا بكل ثقة ، وكان رجلا صادقا ، ولكنه

كان حذرا حريصا . ومع انه قدر هذا الكتاب تقديرا عاليا ، الا انه تجنب ابداء أى رأى فيه كتابة !. . ولقد حمل «لاكوندمين» على «اعلان الايمان» ، وراح يتخبط فى أقواله . **وكذلك اقتصر « كليرو » على عين هذا الجزء من الكتاب – فى رسالته – ولكنه لم يخش أن يجاهر بمدى تأثره بقراءته ، فأطلعنى بعبارات صريحة على أن هذه القراءة قد بعثت الدفء فى نفسه العجوز . وكان – دون جميع من ارسلت اليهم كتابى – الوحيد الذى أعلن على الملأ جهرا وبصوت مدو ، مدى اكباره هذا الكتاب**

أما «متى» – الذى كنت قد أعطيته احدى النسخ الأول ، قبل أن يعرض الكتاب للبيع – فقد أعار السيد « دى بلير » المستشار البرلمانى ، ووالد ممثل الحكومة فى (ستراسبورج) ، هذه النسخة .. اذ كان للسيد دى بلير بيت ريفى فى (سان جراسيان) ، وقد اعتاد « متى » – الذى كان من معارفه القدامى – أن يزوره من آن الى آخر ، كلما استطاع الى ذلك سبيلا . ومن ثم فقد مكنه من أن يقرأ « اميل » قبل صدوره ، فلما رد السيد دى بلير اليه الكتاب ، أفضى بهذه الملاحظة ، التى رددت على سمعى فى اليوم ذاته : **« هذ كتاب جد بديع يا سيد متى ، ولكنه لن يلبث أن يثير أحاديث تتجاوز ما قد يوده المؤلف ! »** . ولقد اكتفيت ، حين ردد لى هذا القول ، بأن أضحك ، ولم أر فى هذه الملاحظة أكثر من مجرد مظهر من أساليب المستشارين ، الذين يحبون أن يضفوا جوا من الغموض على كل شىء . وهكذا لم تترك كل التعليقات المشحونة بالقلق ، والتى نميت الى ، سوى أثر ضئيل فى نفسى . فقد كنت أبعد من أن أبصر الكارثة التى كانت موشكة ان تحيق بى ، مقتنعا بجمال مؤلفى ونفعه ، واثقا من أنه فى حدود القانون من كل ناحية ، مرتكنا – كما خيل الى – الى كل ما للسيدة دى لوكسمبورج من نفوذ ، بل والى رضاء الوزراء كذلك . فرحت أحبذ لنفسى القرار الذى اتخذته باعتزال الأدب وأنا فى غمرة انتصاراتى ،

وبعد أن سحقت كل الحاسدين لى !

ولم يزعجنى من نشر هذا الكتاب سوى شىء واحد ، ولم يكن ازعاجه صادرا عن مراعاة لسلامتى ، بقدر ما كان منبعثا عن رغبة فى أن أطمئن ضميرى . ذلك اننى كنت قد شهدت عن كثب ، وباستنكار — اثناء وجودى فى (ليرميتاج) ، و (مونمورنسى) — المنغصات التى كان تنافس الأمراء على اللهو يفرضها على الفلاحين البائسين ، فيضطرهم الى تحمل الخسائر التى كانت تصيب حقولهم من جراء الصيد والقنص ، دون أن يجسروا على الذود عن هذه الحقول الا باحداث الضجة ، ويضطرهم الى ان يقضوا الليالى بين فولهم وبازلائهم ، وهم يدقون على الاوانى والطبول والاجراس ، لينفروا الوعول البرية . ولقد شهدت الوحشية القاسية التى كان السيد الكونت دى شارلروا يعامل بها هؤلاء المساكين ، فحملت — عندما أوشكت على نهاية « اميل » — حملة شعواء على هذا التصرف القاسى . وكان هذا العمل منى ، خرقا آخر لمبادئى ، ولم يقدر له أن يمضى دون ما عقاب . فقد سمعت ان رجال السيد الأمير دى كونتى ، لم يخففوا من قسوتهم على فلاحى أراضيه . ورحت أرتجف خشية أن يكون هذا الأمير — الذى كنت أكن له أعمق مشاعر الاحترام والعرفان — قد حمل على محمل الاساءة اليه ، ما دفعنى الشمم الانسانى الى أن أوجهه الى عمه الكونت دى شارلروا . على اننى رحت أطمئن نفسى ، فقد كان ضميرى يبرر كل التبرير حملتى هذه ، وقد كنت مصيبا فى ذلك . اذ اننى لم أسمع قط ان هذا الأمير العظيم قد ابدى اتفه اهتمام لهذه الفقرة التى كتبتها قبل ان احظى بشرف التعرف اليه ، بوقت طويل

★ ★ ★

• **ولقد** ظهر قبل نشر كتابى بأيام قلائل ، أو بعده — اذ أننى لا اذكر الوقت تماما — كتاب آخر فى الموضوع ذاته ، نقل

بنصه عن الجزء الأول من مؤلفى - كلمة بكلمة - فيما عدا بعض تعديلات نثرت خلاله . وكان هذا الكتاب يحمل اسم شخص من (جنيف) كان يدعى « باليكسير » ، قيل - على ما جاء فى عنوانه - انه كان قد فاز بجائزة مجمع (هارليم) . وادركت دون عناء ان هذا المحفل وهذه الجائزة ابتدعا حديثا ، لتعمية الرأى العام عن السرقة . بيد اننى رأيت - كذلك - ان فى هذا مؤامرة داخلية ، لم أستطع أن أدرى أكانت تتمثل فى نقل مخطوطى الى الناشر - الأمر الذى لم يكن من سبيل الى السرقة بدونه - أم فى انشاء قصة الجائزة المزعومة ، التى كانت تستدعى ضرورة انشاء الهيئة التى منحتها ! .. ولم أستطع أن أبدد هذا الغموض الا بعد سنوات عديدة ، وبناء على كلمة أفلتت من « ديفيرنوا » ، فمكنتنى من أن أتبين خلال الأحداث أولئك الذين رسموا دور السيد باليكسير !

وبدأت الغمغمة المكتومة التى تسبق العاصفة ، تتناهى الى السمع ، ورأى كل من أوتى بصيرة ثاقبة ، أن ثمة مكيدة كانت تتفاعل ، لتحيق بكتابى وبى ، وأنها لن تلبث أن تنفجر . اما انا ، فان اطمئنانى وغبائى كانا من الضخامة بحيث اننى لم أبصر محنتى .. بل اننى لم أحدس شيئا عن سببها ، بالرغم من اننى بدأت أشعر بأثرها . فقد تمثلت بدايتها فى دهاء بارع ، اتجه الى الترويج لفكرة مؤداها ان المعاملة القاسية التى كان الجيزويت يلقونها ، ما كان ينبغى ان توحى بأى سبيل الى ابداء العطف نحو الكتب والمؤلفين الذين يهاجمون الدين . ولقد وجه الى اللوم لأننى وضعت اسمى على «اميل» ،وكأننى لم أكن قد وضعته على كل كتاباتى الاخرى دون ان يقال لى شىء عن ذلك . وبدا كأنما كان ثمة خوف من أن يضطر القوم الى اتخاذ خطوات قد يأسفون لها ، ولكن الظروف كانت تجعلها ضرورية ، وكانت رعونتى قد مهدت السبيل اليها !

ولقد بلغتنى هذه الأقاويل ، ولكنها لم تسبب لى أقل قلق ،

بل انه لم يخطر لى اطلاقا ان فى المسألة كلها ما يمسنى شخصيا .. أنا الذى كنت أشعر بأننى فوق كل لوم ، وأننى مؤيد أشد تأييد ، وأننى بخير من كافة النواحى ، وانه لم يكن لى أن أخشى أن تتركنى السيدة دى لوكسمبورج وسط المآزق ، من أجل ذنب ، اذا كان قد ارتكب حقا ، فقد كانت هى منشأه الأوحد ! .. على اننى لما كنت قد عرفت من تطورات الأمور عادة — فى مثل هذه القضايا — ان السخط كان ينصب على الناشرين ، دون المؤلفين ، فقد داخلنى القلق من اجل « دوشين » المسكين، لو ان السيد دى ماليزيرب تخلى عنه !

وظللت ساكنا .. وتضاعفت الشائعات ، وسرعان ما تغيرت لهجتها ، وبدا أن الرأى العام ، والبرلمان بوجه خاص ، قد أهاجهما صمتى . وبعد أيام قلائل ، أصبح الانفعال فظيعا ، وتبدل هدف التهديدات وأصبحت موجهة الى — أنا بالذات — مباشرة ، **وسمعت أعضاء البرلمان يقولون بكل صراحة ان لا نفع يرجى من احراق الكتب ، وانما يجب احراق المؤلفين ، أما الناشرون ، فلم تذكر كلمة واحدة عنهم !** .. وفى المرة الأولى التى رددت فيها أمامى هذه الآراء — التى كانت أجدر بأن تصدر عن محقق مغرض ، وليس عن عضو فى الشيوخ — لم يداخلني أى شك فى انها كانت ابتكارا من عصبة دولباخ ، أريد به اثارة ذعرى ودفعى الى الفرار . وضحكت لهذه الحيلة الصبيانية ، وقلت لنفسى وأنا أسخر منهم ، انه لو اتيح لهم أن يعرفوا حقيقة الأمور ، لبحثوا عن وسيلة أخرى لارهابى ، بيد ان الشائعة لم تلبث ان بلغت من الوضوح ما أوحى بأنها جدية . وكان السيد والسيدة دى لوكسمبورج قد بكرا فى زيارتهما الثانية لمونمورنسي ، بحيث انهما كانا هناك فى بداية شهر يونيو . ولم أسمع فى دارهما حديثا يذكر عن كتابى الجديدين ، رغم الضجة التى أحدثاها فى باريس ، كما أن ربى الدار لم يحدثانى اطلاقا فى هذا الصدد .

ومع ذلك ، فقد تصادف ان كنت على انفراد مع السيد دى لوكسمبورج ـ ذات صباح ـ فسألنى : « هل تحدثت بسوء عن السيد دى شوازيل فى كتاب : العقـد الاجتماعى ؟ » . فأجفلت دهشة ، وقلت : « انا ؟ .. يقينا : لا ! .. اقسم لك . على اننى قدمت له عكس هذا .. فبقلم لم يكن يوما متملقا ، كتبت فيه أبدع اطراء حظى به وزير ، فى أى يوم من الأيام ! » . وأردفت بأن تلوت عليـه الفقرة كلها ، فعاد يتساءل : « وفى أميل ؟ » . فأجبت : « ولا كلمـة .. ليست به كلمة واحدة تتعلق بالسيد » . فهتف فى حرارة لم تكن من عادته : « آه ! .. كان خليقا بك ان تفعل الشىء ذاته فى الـكتاب الآخر ، أو أن تكون أكثر وضوحا فيما كتبت ! » . فأجبت : « لقـد خلت اننى فعلت .. لقد قدرته تقديرا كافيا » . وكان على وشك ان يرد الى القول ، ولمحت انه كان يتـأهب لأن يصارحنى بما كان يخفى ، ولـكنه كبح نفسه ، ولاذ بالصمت . فمـا أتعس سياسة عضو حاشية الملك ، اذ أنها تطغى على الصداقة ذاتها ، فى أحسن القلوب !

ولقد أنار هـذا الحديث ، على قصره ، بصيرتى ، بشـأن موقفى ـ أو بشأن ناحية معينة ، على الأقل ـ وجعلنى أدرك أننى كنت هدف المهاجمين . ورحت أنعى هذا النحس ـ الذى لا نظـير له ـ والذى قلب الى غير صالحى كل طيب قلته أو فعلته . ومع ذلك ، فقد ظللت أشعر بأنه كان لى أن أعتمد فى هـذه المسالة على السيـدة دى لوكسمبورج ، والسيد دى ماليزيرب ، فلم أر كيف كان فى الوسع ازاحتهما للوصول الى . اذ أننى ـ منذ تلك اللحظة ـ شعرت بجلاء أن المسألة لم تعد مسألة انصـاف أو عدالة ، وانه لن يكون ثمـة اكتراث يتبين ما اذا كنت مخطئا حقا ، أو لم أكن . على ان هدير العاصفـة أخذ يزداد شيئا فشيئا . بل ان « نياولم » نفسه ، لم يلبث أن أطلعنى خلال ثرثرته المسهبة ، على أسفه لأنه أقحم نفسه

فى هذا المؤلف ، وعلى يقينه من سوء الطالع الذى كان يتهدد الكتاب وكاتبه . ومع ذلك ، فقد بقى أمر واحد ظل يطمئننى دائما : فلقد كنت أرى السيدة دى لوكسمبورج جد هادئة النفس ، مطمئنة ، بل وضاحكة ، مما أوحى بأنها كانت واثقة من نفسها ، اذ أنها لم تبد أى قلق من ناحيتى ، ولم تنبس بكلمة اشفاق أو اعتذار ، وأنها كانت ترمق تطور هذه المسألة فى هدوء ، وكأنما لم تكن لها يد فيها ، أو كأنها لم تكن تشعر بأنفه اهتمام بأمرى ! .. ولم يكن يدهشنى سوى أنها لم تقل لى شيئا البتة ، اذ لاح لى أنه كان خليقا بها أن تقول لى شيئا ما. أما السيدة دى بوفلير ، فقد تراءت اقل طمأنينة ، وكانت تروح وتغدو والاضطراب يلازمها ، وتسرف فى الحركة ، وتؤكد لى أن السيد الأمير دى كونتى كان يبذل الكثير لصد الضربة التى كانت تعد لى ، والتى كانت تعزوها دائما الى الأحوال الراهنة ، التى كان على البرلمان فيها أن لا يتيح للجيزويت فرصة اتهامه بالتهاون ازاء الدين . على أنها كانت تبدو قليلة الثقة فى نجاح خطوات الأمير وخطواتها . وكانت أحاديثها ادعى الى الجزع منها الى التسرية ، فقد مالت دائما الى حملى على مغادرة البلاد . وكانت لا تنى تنصحنى بالنزوح الى انجلترا ، حيث كان بوسعها ان تتيح لى كثيرا من الاصدقاء بينهم « هيوم » الشهير ، الذى كان صديقا لها منذ أمد طويل . واذ رأتنى سادرا فى سكينتى ، اتخذت نهجا آخر كان أقدر على زحزحتى من جمودى . فقد أوحت الى بأننى قد أضطر – اذا قبض على ، واستجوبت – الى أن أذكر اسم السيدة دى لوكسمبورج ، وبأن صداقتها لى كانت تستحق ما هو أفضل من أن أعرض نفسى للاضطرار لاحراجها ! .. ولقد أجبتها بأن بوسعها أن تطمئن الى أننى لن أقحمها فى مثل هذه الحال . فردت بأن هذا العزم أيسر قولا منه تنفيذا ، وقد كانت على صواب فى ذلك ، لا سيما معى أنا بالذات ، اذ كنت مصرا كل الاصرار على

أن لا أحلف كذبا أو أقول زورا أمام القضاة ، مهما يكن الخطر الذى قد يترتب على قول الحق !

واذ رأت ان هذه الفكرة قد أثرت فى نفسى ، وان لم يكن بوسعى بعد أن أحمل نفسى على الفرار ، راحت تتحدث الى عن « الباستيل » ـ بضعة أسابيع ـ كوسيلة للتهرب من سلطة البرلمان التشريعية ، اذ لم يكن للبرلمان أى شأن بمسجونى الحكومة . ولم ابد اعتراضا على هذا الكرم العجيب ، على شريطة أن لا يلتمس باسمى . ولما لم تعد الى الحديث عن هذا الاقتراح مرة أخرى ، أدركت انها انما أبدته لتبلونى ، وان حيلة كهذه ـ تضع نهاية لكل شىء ـ لم تكن مرغوبة !

* * *

• **بعد** ذلك بأيام قلائل ، تلقى السيد المارشال من اسقف (دويى) ـ صديق جريم والسيدة ديبيناى ـ رسالة ضمنها نبأ قال انه من مصدر موثوق به ، عن اعتزام البرلمان أن يتخذ اجراءات غاية فى القسوة ضدى ، وان مرسوما بالقاء القبض على سيصدر فى يوم حدده . ورأيت ان هذا النبأ فرية من عصبة دولباخ ، فقد كنت أعرف ان البرلمان كان شديد الحرص على الشكليات ، وانه من الانتهاك لجميع هذه الشكليات ان يبدأ ـ فى هذه المناسبة ـ بمرسوم بالاعتقال ، قبل ان يتثبت بالطرق المشروعة مما اذا كنت اعترف بالكتاب وبأننى كنت مؤلفه حقا . وقلت للسيدة دى بوفلير : « ان امر الاعتقال ـ المبنى على مجرد البلاغ العادى ـ لا يصدر الا فى حالة تلك الجرائم التى تمس الأمن العام وذلك خشية تمكن المجرمين من الفرار . اما اذا أريد عقاب ذنب كذنبى ، لا يستحق سوى التكريم والمكافأة ، فان العرف يقضى باتخاذ الاجراءات القضائية ضد الكتاب ، مع تفادى المساس بالمؤلف قدر الامكان ! » .

وعند ذلك نبهتنى الى فارق دقيق ، كنت قد نسيته ، لتبين

لى انه كان من التكريم لى ان يصدر قرار بالقبض على ، بدلا من استدعائى لسماع أقوالى !

وتلقيت فى اليوم التالى رسالة من ((جاى)) الذى انبأنى بأنه كان ــ فى عين اليوم الذى كتب فيه الرسالة ــ فى زيارة للسيد المدعى العام ، فلمح على مكتبه مسودة ((دعوى)) ضد كتاب ((اميل)) ومؤلفه . ولاحظوا ان «جاى» كان شريكا لدوشين الذى طبع الكتاب ، وانه كان مطمئنا الى حسابه الخاص ، فتطوع لازجاء هذا النبأ الى المؤلف من قبيل الاحسان ! .. وكان من البسيط ، بل من الطبيعى ، ان يتاح لتاجر كتب قدر له ان يزور السيد المدعى العام ، ان يقرأ ــ فى هدوء ــ المخطوطات والمسودات المتناثرة على مكتبه !! .. ولقد أكدت لى السيدة دى بوفلير وغيرها ان الأمر كان صحيحا . ومن جراء السخافات التى كانت تلقى فى أذنى دون انقطاع ، أصبحت ميالا الى الاعتقاد بأن الناس جميعا قد اختبلوا !

وشعرت بيقين من ان ثمة سرا وراء كل هذا .. سرا كان يحجب عني ، فرحت ارقب فى هدوء مجرى الأحداث ، وانا وطيد الثقة باستقامة مسلكى ، وببراءتى فى المسالة بأسرها . **بل اننى كنت جد سعيد بأن أساق الى شرف المعاناة فى سبيل الحقيقة ، مهما يكن الجور الذى يرتقبنى . وبدلا من ان أخاف واستتر ، واظبت على زيارة القصر يوميا ، وعلى التريض على قدمى ــ كعادتى ــ فى أصيل كل يوم .** وفى اليوم الثامن من شهر يونيو ــ وهو اليوم السابق لاصدار المرسوم ــ قمت برياضتى فى صحبة استاذين من الوعاظ ، هما الأب المانى والأب ماندار . وحملنا معنا بعض القوت ، الى (شامبو) ، حيث استمتعنا بوجبة شهية . وكنا قد نسينا ان نحمل معنا كوبات ، فاستعضنا عنها بأعواد من القش ، رحنا نمتص خلالها النبيذ من الزجاجات ، متلهفين على اختيار أسمك الأعواد ، لكى نرى أيها أكثر قدرة على الامتصاص . وما كنت يوما أكثر مني طربا

فى ذلك اليوم !

ولقد ذكرت كيف اننى كنت اعانى من الارق فى صباى . ولقد تعودت من ذلك الحين أن أقرأ فى السرير — فى كل ليلة — حتى أشعر بعينى تغفوان ، فأطفىء الشمعة ، وأحاول أن أنام لبضع دقائق ، لم تكن تدوم طويلا . وكانت مطالعاتى الليلية المعتادة هى « التوراة » ، واستطعت بهذه الطريقة أن أقرأه خمس مرات أو ستا ، على الأقل . وفى مساء ذلك اليوم بالذات ، وجدت نفسى أكثر يقظة من المعتاد ، فواصلت القراءة فترة أطول ، حتى أتيت على السفر الذى ينتهى بقصة اللاويين وافرايم ، وهو سفر القضاة ، اذا لم تخنى الذاكرة ، اذ اننى لم أنظر اليه قط منذ ذلك الحين . ولقد تأثرت كل التأثر بهذه القصة . وكنت مستغرقا فى التفكير فيها ، بين النوم واليقظة ، عندما انتبهت فجأة الى ضجة وضوء . وكانت « تيريز » هى التى حملت الضوء ، وتقدمت تقود السيد « لاروش » ، الذى



قال اذ رآنى أجفل مذعورا : « لا تنزعج ! .. لقد أقبلت من لدن السيدة المارشالة ، التى كتبت لك ، كما ارسلت اليك خطابا من السيد الأمير دى كونتى » . وفعلا وجدت داخل رسالة السيدة دى لوكسمبورج ، رسالة من الأمير حملها اليها أحد رسله ، وقد ضمنها انه قد تقرر — برغم كل جهوده —

اتخاذ أقسى الاجراءات ضدى. ومما ذكره : ((**ان الانفعال بالغ الشدة ، ولا سبيل الى منع هذه الضربة ، فالبلاط يطالب بها ، والبرلمان راغب فيها . وفى الساعة السابعة صباحا ، سيصدر المرسوم بالقاء القبض ، وسيجرى تنفيذه فى الحال . وقد توصلت الى انه لن يطارد اذا بادر الى الابتعاد ، أما اذا أصر على رغبته فى ان يسلمهم نفسه ، فسيلقى القبض عليه)) ! ..**
وراح ((لا روش)) يستحلفنى - باسم السيدة المارشالة - ان أبادر فأذهب للتشاور معها . وكانت الساعة الثانية صباحا ، وقد أوت الى مخدعها ، ولكنه أضاف : ((انها فى انتظارك ، ولن تنام حتى تراك)) . فبادرت الى ارتداء ثيابى ، واسرعت اليها !

وبدت لى مضطربة ، لأول مرة . ومس قلقها مشاعرى . وما كنت بمنجى من الانفعال - أنا الآخر - فى هذه اللحظة المفاجئة ، فى جوف الليل - ولكنى نسيت نفسى حين رأيتها ، فلم أعد أفكر الا فيها ، وفى الدور المحزن الذى كان عليها ان تؤديه ، اذا أسلمت نفسى . ذلك لاننى فى شعورى بأننى أوتيت الشجاعة على أن لا أقول سوى الحق - ولو أدى ذلك الى الاضرار بى والى اهلاكى - لم أتوقع أن يكون لدى من حضور الذهن ، أو الدهاء ، بل ولا ان يكون لدى الجلد الكافى على أن أتحاشى اقحامها ، اذا ما اشتد الضغط على . **ودفعنى هذا الى أن أقرر أن اضحى بسمعتى فى سبيل راحة بالها ، وأن أفعل من أجلها - فى هذه المناسبة - ما لم يكن فى وسع أية قوة أن تغرينى على أن أفعله من أجل نفسى . وما ان استقر رأيى ، حتى أعلنته لها ، غير راغب فى أن أحط من قيمة تضحيتى بأن أمكنها من أن تشتريها ! وانى لواثق من انها ما كانت لتخطىء فهم الحافز الذى دفعنى الى ذلك . بيد انها لم تفه لى بكلمة توحى بأنها قدرت هذا الحافز . ولقد بهتت لهذا التغافل ، حتى لقد وجدتنى أوازن بين المضى والتراجع .** ولكن السيد المارشال أقبل ، كما وصلت السيدة دى بوفلير من (باريس) بعد

لحظات ، ففعـلا ما كان خليقـا بالسيدة دى لوكسمبورج أن تفعله . واستسلمت لاطراءاتهما، فقد استحييت من أن أتراجع ، ولم تعد ثمة مسألة سوى اختيار المكان الذى ألوذ به ، وموعد رحيلى . وعرض السيد دى لوكسمبورج أن أبقى أياما مستخفيا فى داره ، لأن هذا يتيح لى وقتا للتدبر والبت فى بحبوحة من الوقت . ولم أقبل هذا اطلاقا ، ولا قبلت اقتراح الانتقال سرا الى قلعة الأسرة ، بل أصررت على رغبتى فى الرحيل فى اليوم ذاته ، مفضلا هذا على البقاء مستخفيا فى اى مكان !

* * *

• **ولما** كنت قد شعرت بأن لى أعداء مستترين وأقوياء فى المملكة ، فقد رأيت أن لا بد لى من أن اغادر فرنسـا — رغم حبى اياها — لأضمن راحة بالى . وكانت رغبتى الأولى هى أن ألجأ الى (جنيف) ، ولكن لحظة تفكير واحدة ، كانت كافية لأن تحولنى عن ارتكاب هذه الحماقة . فقد كنت أعرف أن الحكومة الفرنسـية — التى كان لهـا فى جنيف نفوذ يفوق ما لهـا فى باريس — لن تدعنى فى سلام فى أى من هاتين المـدينتين ، اذا كانت قد عقدت عزمها على اضطهادى . وكنت أعرف ان كتابى : « حديث فى عدم المساواة » قد أثار ضـدى — فى المجلس — كراهية كان يزيد من خطورتها أن هـذه الهيئة لم تكن تجسر على ان تكشفها علانية . ثم أننى كنت أعرف ان المجلس كان شـديد التحمس لتحريم تداول كتابى « هيلويز الجديدة » ، عند ظهوره — بناء على تحريض الدكتور ترونشان — ولـكنه حين تبين أن أية هيئة أخرى لم تحذ حذوه — ولا فى باريس ذاتها — خجـل من خسته ، ورجـع عن التحريم . لذلك لم يخالجنى شك فى ان المجلس اذا ماوجد الفرصة الراهنة سانحة، لن يدخر وسعا فى استغلالها . وكنت أدرك ان ثمة غيرة خفية توغر صدور كل أهل جنيف ضدى — رغم كل المظاهر الجميلة

ـ وان هذه الغيرة لم تكن ترجو سوى مناسبة سانحة لتشبع نهمها . **ومع ذلك فان الشعور الوطنى كان يدعونى الى العودة الى وطنى ، ولو اننى استطعت أن أقنع نفسى بأنه كان فى وسعى أن أعيش فى سلام هناك ، لما ترددت لحظة . أما وقد كانت الكرامة والعقل لا يقران أن ألوذ بوطنى كلاجىء ، فقد عزمت على أن أقيم على مقربة منه فحسب ، فأمكث فى سويسرا فى انتظار ما قد يجرى فى (جنيف) بشأنى . ولسوف يتجلى أن هذا التردد لم يدم طويلا !**

وعارضت السيدة دى بوفلير هـذا القرار طويلا ، وعادت تبذل جهودا جديدة لحملى على أن أنتقل الى انجلترا . ولكنها لم تزعزع عزيمتى ، فما احببت قط انجلترا ولا الانجليز . وبدلا من ان تتغلب لباقـة السيدة دى بوفـلير عـلى نفورى ، بدا انها راحت تضاعفه ، دون ان أدرى السر فى ذلك .

واذ اعتزمت الرحيل فى اليوم ذاته ، فقـد شرعت فى ذلك منذ الصباح ، واعتبرتنى مسافرا بالنسبة للجميع، ومن ثم فان « لاروش » ـ الذى كنت قد ارسلته ليحضر الى اوراقى ـ لم يشأ ان يقول لتيريز نفسها ماإذا كنت قد رحلت أو لم أرحل . وكنت منذ اعتزمت يوما أن أكتب ذكريات حياتى ، قد جمعت عددا من الرسائل والأوراق ، ومن ثم فقد اضطر الى أن يذهب الى دارى عـدة مرات لنقلها . وكانت هـذه الأوراق ـ التى فحصتها من قبل ـ قد جمعت على حدة ، لذلك قضيت بقية الصباح فى فحص الأوراق الأخرى ، معتزما ألا آخـذ معى الا ما يكون ذا نفع لى ، وأن أحرق الباقى . ولقد رغب السيد دى لوكسمبورج فى أن يساعدنى فى هذا العمـل ، الذى استغرق وقتا طويلا ، حتى أننا لم نستطع أن نفرغ منه فى فترة الصباح، ولم أجد متسعا من الوقت كى أحرق شيئا . **فعرض السيد المارشال أن يتكفل بفحص الأوراق المتبقية ، وأن يحرق بنفسه الفضلات ـ دون أن يدع هذه المهمة لأحد سواه ـ وأن يرسل**

الى كل ما يستبقيه . ولقد قبلت هذا العرض وأنا جد مغتبط بأن أتحرر من هذا الشاغل ، حتى أتمكن من أن أقضى الساعات القلائل التى ما زالت باقية لدى ، مع اولئك الذين كانوا جد أعزاء على ، والذين كنت مزمعا فراقهم الى الأبد ! .. وأخذ السيد المارشال مفتاح الحجرة التى تركت فيها هذه الأوراق ، وأرسل - تحت الحاحى الدائب - فى استدعاء « عمتى » المسكينة ، التى كانت تكتوى بالحيرة القاتلة ازاء ما قد جرى لى ، وما هو موشك أن يجرى .. والتى كانت ترتقب الجنود - فى كل لحظة - دون أن تدرى كيف تعاملهم ، ولا ما ينبغى ان تجيبهم به !

وأحضرها «لاروش» الى القصر ، دون أن يذكر لها شيئا . وكانت تظننى قد أصبحت على بعد شاسع . فما ان رأتنى ، حتى أطلقت صرخاتها الحبيسة ، وارتمت بين ذراعى . فياللمودة ، وياللتجاوب القلوب ، وياللمعاشرة ، وياللألفة ! .. **لقد تجمعت فى تلك اللحظة - العذبة والقاسية - كل الأيام الهنيئة ، الناعمة ، الوادعة ، التى قضيناها معا ، لتزيدنى شعورا بوطأة اول فراق لنا ، بعد ان كان كل منا لا يكاد يغيب عن بصر الآخر يوما واحدا ، خلال فترة تقرب من سبعة عشر عاما ! .. ولم يقو المارشال - الذى كان يشهد هذا العناق - على كبح دموعه ، فتركنا !** .. ولم تشأ تيريز ان تفارقنى ، فأوضحت لها ما فى مرافقتها اياى - فى تلك الظروف - من صعاب ، وضرورة بقائها لكى تسوى شئونى ، وتحصل اموالى . ولقد كان من المعتاد - عند اصدار مرسوم بالقبض على امرىء - ان يستولى على اوراقه ، أو أن توضع الأختام على مقتنياته ، أو أن يوقع الحجز عليها ويعين وصى لحراستها . ومن ثم فقد كان من اللازم أن تبقى هى ، لكى تراقب ما يجرى ، وتبذل قصارى وسعها . ووعدتها بأنها لن تلبث ان تلحق بى فى القريب . وقد عزز السيد المارشال وعدى ، ولكنى لم أشأ قط أن أنبئها بالمكان الذى كنت

اعتزم الذهاب اليه ، حتى اذا سألها اولئك القادمون للقبض على ، كان بوسعها ان تعرب عن جهلها بذلك صادقة . وعندما احتضنتها فى لحظة الفراق ، شعرت بانفعال عاطفى غير عادى. **فقلت لهـا فى حرارة ، وكأنما كنت ـ واأسفاه ! ـ أتنبأ بما يضمره المستقبل : ((عليك ان تتذرعى بالشجاعة يا بنيتى !.. لقد قاسمتنى نعيم الأيام الحلوة ، وبقى عليك ـ مادامت هذه رغبتك ـ ان تشاطرينى محنى . فلا تتوقعى سوى الاهانات والنكبات اذا تبعتنى . اذ أن الحظ الذى يبدأ معى اليوم ، سيتعقبنى الى آخر ساعة فى حياتى !))**

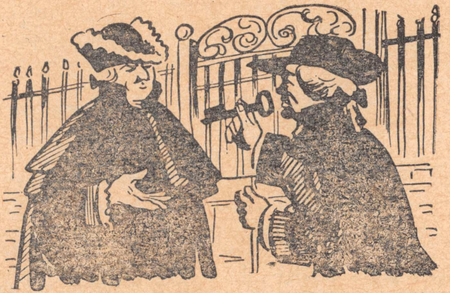
ولم يبق لى ما أفعله سوى أن أدبر أمر رحيلى .. كان من المتوقع أن يكون رجال الأمن قد وصلوا فى الساعة العاشرة ، ولكن الساعة كانت الرابعة ـ بعد الظهر ـ عندما انطلقت ، دون أن يكونوا قد وصلوا بعد . وكان الرأى قد استقر على ان أسافر بعربة البريد ، ولكنى لم أجد محفة تقلنى الى هناك ، فأهدانى السيد المارشال عربة خفيفة ذات عجلتين ، وأعارنى جوادين وحوذيا ريثما أبلغ المحط التالى ، حيث لم أجد عناء فى الحصول على جياد ، بفضل التدبيرات التى كان قد اتخذها

ولم أكن قد تناولت غدائى على المائدة ، ولا أظهرت نفسي فى القصر ، فجاءت السيدات لوداعى ، فى الطابق القائم بين الطابقين الأرضى والأول (الأنترسول) ، حيث قضيت اليوم كله . وعانقتنى السيدة المارشالة عدة مرات فى حزن باد ، ولكننى لم ألمس فى عناقها الحرارة التى كانت قد غمرتنى بها قبل سنتين أو ثلاث . كذلك عانقتنى السيدة دى بوفلير ، ووجهت الى أعذب القول . وكان ثمة عناق فوجئت به دون توقع .. ذلك هو عناق السيدة دى ميربوا ، التى كانت هناك ، هى الأخرى !

فان السيدة حرم المارشال دى ميربوا ، سيدة فاترة العواطف الى أبعد مدى ، شديدة التكلف والتحفظ ، ولا تخلو ـ كما يبدو لى ـ من الكبرياء والترفع اللذين يفطر عليهما أبناء اسرة

« لورين » . ولم تكن قد أعارتنى ـ من قبل ـ أى انتباه . وسواء كنت اذ ذاك ميالا الى أن أضاعف من قيمة هذا الشرف غير المرتقب ـ وقد استخفنى أن أحظى به ـ أو انها مزجت حقا عناقها بقليل من العطف المألوف لدى القلوب الرحيمة ، فاننى لمست فى حركاتها ونظراتها قدرا من الصدق ، مما أحدث فى نفسى أبلغ الأثر . وكثيرا ما خيل الى ـ عندما كنت أفكر فى ذلك ، فيما بعد ـ انها كانت على دراية بالحظ الذى قدر لى ، فلم تقو على مقاومة اشفاق عابر ، ازاء المصير الذى كان يرتقبنى

أما السيد المارشال ، فلم ينبس ببنت شفة .. وكان فى



شحوب الموتى . ورغب ـ فى اصرار ـ فى ان يرافقنى حتى المركبة التى كانت تنتظرنى عند حوض المياه . فقطعنا الحديقة بأسرها معا ، دون أن نتبادل كلمة واحدة . وكان لدى مفتاح للمنتزه ، استخدمته فى فتح الباب ، وبدلا من ان اضعه فى جيبى بعد ذلك ، رددته الى السيد المارشال ، دون أن أتفوه بشىء . فتناوله فى لهفة مدهشة ، لا استطيع أن أمنع نفسى عن التفكير فيها كثيرا ، منذ ذلك الحين . ونادرا ما عانيت فى حياتى لحظة أمر من لحظة هذا الفراق . وكان عناقنا طويلا ، صامتا .. فقد كان كل منا يشعر بأنه الوداع الأخير !

* * *

• وصادفت فى الطـريق بين (لابار) و (مونمورنسى) ، عربة مستأجرة ، كانت تقل أربعة رجال فى ثياب سوداء، حيونى مبتسـمين . ومما أنبأتنى به تيريز ـ فيما بعـد ـ عن مظهر الضباط ، وساعة وصولهم ، ومسلكهم ، لم يداخلنى أى شك فى انهم كانوا نفس ركاب العربة ، لا سيما واننى علمت ـ بعد ذلك ـ ان مرسوم القاء القبض على ، لم يصدر فى الساعة السابعة صباحا ، كما قيل لى من قبل ، وانما أصدر فى منتصف النهار . وكان لا بد لى من أن أمر خلال باريس بأسرها ، ولم تكن ثمة وسيلة للاستتار فى مركبة صغيرة مكشوفة. ورأيت فى الطرقات أشخاصا كثيرين ، حيونى شأن من كانوا يعرفوننى ، وان كنت لم أتعرف على واحد منهم ! .. وفى مساء اليوم ذاته ، انحرفت عن طريقى فى دورة ، لأعرج على (فيلروى) .. **ذلك لأنه كان على المسافرين الذين ينتفعون بجياد المحطات ، ان يسعوا الى ((حكمدار)) المدينة ، فى (ليون) . وكان هـذا أمرا محرجا بالنسبة لمسافر كان غـير راغب فى أن يكذب ، ولا فى أن يغير اسمه . ومن ثم فاننى ذهبت بخطاب من السيدة دى لوكسمبورج لأرجو السيد دى فيلروى أن يعمل على اعفائى من هذا الالتزام. فأعطانى السيد فيلروى رسالة لم افد منها، لأننى لم أمر بمدينة (ليون) . ولا يزال هذا الخطاب ـ بأختامه ـ بين أوراقى . ولقد ألح السيد الدوق كثيرا ، كى أنام ليلتى فى (فيلروى) ، ولكننى استحسنت ان اواصل السفر ، وبذلك قطعت مرحلتين أخريين ، فى اليوم ذاته .**

وكانت مركبتى خشنة ، كما اننى لم أحظ بقدر من الراحة يمكننى من المضى فى الرحيل اياما بطولها . والى جانب ذلك ، لم يكن لى من فخامة المظهر مايمكننى من ان احظى بالخدمات . ومن المعروف فى فرنسا ان خيل البريد لا تشعر بالسوط الا عبر كتفى الحوذى ، ومن ثم فقد خيل الى أننى كنت استطيع ان استعيض بالسخاء فى عطاء الادلاء والمرشدين ، عن كلمات

واشارات الوعيد . ولكن هذا زاد الأمر سوءا ، فقد ظنوا أننى أفاق موفد فى مهمة ، واننى لم اعتد سوى السير على القدمين ، واننى كنت أسافر مستخدما خيل البريد ، للمرة الأولى فى حياتى . ومن ذلك الحين لم أعد أحصل الا على ضعاف الخيل ، كما أصبحت ألعوبة الحوذية . وانتهى بى الأمر الى ما كان يجب أن أتبعه من البداية ، فآثرت الصبر والصمت ، وتركتهم يتصرفون وفق هواهم !

وكان لدى ما يصوننى من السأم خلال الرحلة ، اذ أسلمت نفسى الى الخواطر التى راحت تصور كل ما جرى لى . غير ان هذه لم تكن محور فكرى ، ولا ملتقى ميول فؤادى . فان السهولة التى أنسى بها كل سوء انقضى ــ مهما يكن حديث العهد ــ تدعو الى العجب ! .. وبقدر ما يزعجنى ترقب المحن التى أتمثلها فى المستقبل ، فانها لا تعاود ذهنى ــ بمجرد وقوعها ــ الا فى وهن ، ثم تتلاشى دون عناء ! .. ذلك لان خيالى القاسى ، الذى يضنى نفسه ــ بلا انقطاع ــ فى ارتقاب النوائب قبل ان تحين ، لا يلبث ان يشتت ذاكرتى ، ويحول دون أن أسترجع ذكرى ما انقضى من هذه النوائب . فلا حيلة هناك ازاء ما ولى ، ومن ثم فلا جدوى من الانشغال به . والواقع اننى استنفد محنى مقدما ، بطريقة ما ، فكلما اشتد عنائى فى ارتقابها ، سهل على نسيانها .. فى حين اننى ــ على العكس من ذلك ــ لا أنفك أشغل بالتفكير فى ماضى هنائى ، فأتذكره وأجتره ــ كما ينبغى ان يقال ــ الى درجة اننى أستطيع أن استمتع به من جديد عندما يحلو لى ! .. واعتقد اننى مدين لهذا الطبع السعيد بأننى لم أعرف قط ذلك المزاج الناقم الذى يتخمر فى قلب حقود ــ من جراء التفكير المستمر فى الاساءة التى حاقت ــ والذى يعذب نفسه بكل ما يخطر له من شر يريد أن يوقعه بعدوه ! ..

واذ كنت بطبيعتى حاد المزاج ، فاننى أشعر بالغضب ، بل وبالهياج ، فى عنفوان اللحظة ، ولكن الرغبة فى الانتقام لم تتغلغل

قط فى فؤادى . فما أقل ما أفكر فى الاهانة ، وما أكثر ما أفكر فى صاحبها. ولست أفكر فى الضرر الذى تلقيته منه، الا تقديرا لما قد أتلقاه من ضرر جديد منه ، فاذا ما وثقت من انه لن يلحق بى مزيدا من الضرر ، فان الضرر الذى الحقه بى من قبل ، لا يلبث ان يروح فى أدراج النسيان ! .. اننا كثيرا ما نوعظ بالصفح عن الاساءات ، وهى فضيلة جد بديعة ولا ريب ، بيد أنها لاتصلح لى. فأنا أجهل ما اذا كان قلبى قادرا على ايواء البغضاء ، لأنه لم يحس بشىء منها قط .. كما اننى أقل تفكيرا فى أعدائى من أن أكتسب فضيلة الصفح عنهم ! .. **ولن أقول الى أى مدى يعذب أعدائى أنفسهم لكى يعذبونى . فأنا تحت رحمتهم ، ولديهم كل السلطان ، وانهم ليستخدمونه ! .. على ان ثمة شيئا واحدا فوق سلطانهم ، وانى لأتحداهم ان يفعلوه .. ذلك هو أنهم لايملكون — مهما يعذبون أنفسهم بسببى — ان يضطرونى الى أن أعذب نفسى من أجلهم !**

ومن ثم فاننى — فى غداة رحيلى — نسيت كل ما جرى ، والبرلمان ، والسيدة دى بومبادور ، والسيد دى شوازيل ، وجريم ، ودالمبير ، والمتآمرين معهم والمتآمرات ، حتى اننى ما كنت لأفكر ثانية فيهم ، لولا الاحتياطات التى كنت مضطرا الى ان اتخذها . وواتتنى — بدلا من كل هذا — ذكرى أخرى مطالعاتى ، فى عشية اليوم السابق على رحيلى . كذلك تذكرت قصائد الرعاة للشاعر « جيسنر » التى ترجمها « هوبير » وأرسل الى نسخة منها منذ زمن. ولقد راحت هاتان الذكريان تترددان على فكرى ، وتمتزجان بشتى الأشكال فى عقلى ، حتى اعتزمت أن أحاول الجمع بينهما ، بأن أعالج موضوع قصة « الاويين وافرايم » ، على طريقة «جيسنر» . على أن أسلوب قصائد الرعاة بدا — فى بساطته — قليل الملاءمة لموضوع رهيب كموضوع قصة التوراة ، كما ان من العسير تصور أن حالى الراهنة كانت كفيلة بأن تمدنى بأفكار جديدة تخفف من قتامة

الموضوع . ومع ذلك فقد أقدمت على التجربة ، لمجرد التسلية في مركبتي ، ودون ما أمل في التوفيق . فما ان بدأت ، حتى ذهلت لسلاسة أفكاري ، والسهولة التي أخذت أعبر بها عنها. **وفي ثلاثة أيام ، نظمت الأناشيد الثلاث الأولى في هذه القصيدة التي لم ألبث أن أتممتها في (موتيير) . وأعتقد انني لم أؤلف في حياتي شيئا يفوقها فيما سادها من رقة مؤثرة ، ومن نضارة اللون ، وطرافة التصوير وبساطته ، ودقة الوصف ، والسذاجة العريقة التي شاعت في كل شيء .. كل هذا بالرغم من طبيعة الموضوع المخيفة ، التي كانت في جوهرها منفرة . ومن ثم فقد كان لي الفضل في التغلب على هذه العقبة ، الى جانب الصفات الأخرى . واذا لم يكن ديوان « لاويو افرايم » هو أفضل مؤلفاتي ، فانه سيظل دائما أحبها الى ! ..** فما قرأتها ثانية ، ولن يقدر لي أن أقرأها مرة أخرى ، دون أن ألمس فيها اشراقة قلب خال من السخط ، لا يوغره النحس ، بل انه يجد العزاء في نفسه ، ويستمد العوض والجزاء من دخيلته ولو ان جميع اولئك الفلاسفة الذين يتعالون على الشدائد ولما يعرفوها ، حشدوا ، ووضعوا في موقف كموقفي ، وقدم اليهم — في اولى فورات الكرامة والشرف الجريح — مهمة مشابهة لهذه التي انجزتها ، وسئلوا ان يعكفوا عليها ، لتبدى كيف انهم سيبادرون الى التهرب !

* * *

• **وكنت** — عند مغادرتي (مونمورنسي) الى سويسرا — قد عزمت على أن أذهب للاقامة في (ايفردون) ، مع صديقي القديم الطيب ، السيد « روجان » ، الذي كان قد اعتكف هناك منذ بضع سنوات ، والذي كان قد دعاني الى زيارته . وسمعت في طريقي ان (ليون) ستكون بمنأى عن خط سيري ، الأمر الذي حال دون أن أمر خلالها . ولكنني — من ناحية

أخرى ـ اضطررت الى أن أمر ببيزانسون ، وهى بلدة محصنة، ومن ثم فانها عرضتنى لعين المضايقة التى كنت أخشاها فى ليون . لذلك قررت ان انحرف الى اليسار ، وأن أواصل سفرى عن طريق (سالان) ، بحجة زيارة السيد دى ميران ـ ابن أخ السيد دوبان ـ الذى كان يعمل فى مصانع الملح ، والذى كثيرا ماتلقيت منه دعوات ملحة لأن أزوره . ووفقت فى حيلتى، اذ أننى لم أجد السيد دى ميران ، فاغتبطت لأن هذا جنبنى التأخر ، فاستأنفت رحلتى دون أن يقول لى أى امرىء كلمة واحدة .

واذ اجتزت حدود (بيرن) استوقفت ،فهبطت من المركبة، وارتميت على الارض ، ورحت احتضنها وأقبلها .. وهتفت فى فرحتى : « أحمدك ايتها السماء ، يا حامية الفضيلة .. اننى لأطأ الآن موئلا للحرية ! » . وهكذا اعتدت ـ فى ثقتى العمياء



بأمانى ـ أن أتحمس لما قد يجلب لى الشقاء . ولقد ظن الحوذى المشدوه اننى جننت ! .. وعدت استقل المركبة ، فان هى الا سويعات قليلة ، حتى كنت أحظى بالغبطة النقية العارمة ، التى غمرتنى اذ وجدت نفسى فى أحضان «روجان» الوفى . آه !.. لنتنفس الصعداء لبضع لحظات ، لدى مضيفى الكريم . فلا

بد لى من ان استرد شجاعتى وقوتى ، اذ اننى لن ألبث أن أحتاج اليهما معا !

وما أسهبت — دون داع — فى ذكر تفصيلات كل الظروف التى قدر لى أن أتذكرها ، فى رواية الأحداث السالفة . ومع ان هذه الظروف قد لاتبدو جد براقة ،الا انها قد تلقى ضوءا على مجرى الأحداث ، اذا ما أمسك المرء مرة بخيط المؤامرة. مثال ذلك ، انها وان لم تبين الفكرة الأولى التى نشأت عنها المشكلة التى سأعرضها ، الا انها تساعد كثيرا على حلها !

فلو اننا افترضنا ، ان اقصائى كان ضرورة لا غنى عنها لتنفيذ المؤامرة التى كانت مدبرة لى ، لكان كل شىء مسوقا الى أن يحدث بنفس الشكل الذى حدث به — تقريبا — لكى يتسنى للمؤامرة أن تتم .. **أما لو اننى كنت قد واصلت صمودى — كما فعلت فى بادىء الأمر — بدلا من أن اسمح للذعر بأن يستولى على ، من جراء الرسالة الليلية التى بعثت بها السيدة دى لوكسمبورج ،وبدلا من أن اضطرب لاضطرابها .. واو اننى — بدلا من البقاء فى القصر — عدت الى سريرى ، واستغرقت فى النوم حتى الصباح .. فهل كان سيقدر لأمر القبض أن يصدر بالطريقة التى صدر بها ؟** .. انه سؤال عظيم، يتوقف عليه حل أسئلة أخرى كثيرة .. ولن يكون من غير المجدى — فى دراسته وبحثه — أن نلاحظ الساعة التى انذرت بأن مرسوم القبض على سيصدر فيها ، والساعة التى صدر فيها فعلا . هذا مثال غير مصقول — ولكنه معقول — لأهمية أتفه التفصيلات فى عرض الوقائع التى نبحث خلالها عن الأسباب الدفينة ، حتى يتسنى لنا ان نكتشف هذه الأسباب بالاستقراء والاستنتاج !

الكراسة الثانية عشرة

• **هنا** يبدأ عمل الدياجير ، الذى اتخبط فيه منذ ثمانى سنوات ، دون أن يتسنى لى — مهما تكن حيلتى وجهدى — أن أنفذ خلال الظلام الرهيب .. اننى لأحس — فى غياهب التعاسات التى اكتنفتنى — بايذاء الصفعات التى توجه الى ، وانى لألمح الأداة المباشرة التى توجهها ، ولكننى لا أقوى على أن أرى اليد التى تصدرها ، ولا الوسائل التى تحركها وتستخدمها . ان العار والمحن لتهوى على ، وكأنها تتساقط من تلقاء نفسها ، دون أن يفطن اليها أحد . وعندما يفلت قلبى الممزق شيئا من الأنين ، أبدو فى مظهر الرجل الذى يشكو دون مامبرر للشكوى ، فان مبتدعى دمارى ، وفقوا الى الفن الذى يفوق كل ادراك .. الفن الذى استطاعوا به أن يحولوا الرأى العام الى شريك فى مؤامرتهم ، دون ان يحدس الرأى العام ذلك ، أو يفطن الى نتائجه !.. **ومن ثم فاننى اذ أروى الأحداث المتعلقة بى ، وألوان المعاملة التى عانيتها ، وكل ماجرى لى ، أرانى فى حال لاتمكننى من أن أكشف عن اليد المحركة ، ولا من أن أعين الأسباب وأنا أذكر الأفعال .. فان هذه الأسباب الأولية تلمس جميعا فى الكراسات الثلاث السابقة ، حيث تكشفت كل الالتفاتات التى وجهت نحوى ، والميول المتعلقة بى ، وكل البواعث المستترة . أما أن أذكر كيف تجمعت هذه الأسباب المتباينة ، لتخلق الأحداث العجيبة فى حياتى ، فهذا مالا سبيل لى الى شرحه وتعليله ، ولو بالحدس والتكهن !** .. واذا كان بين قرائى من أوتوا من كرم النفس ما يحفزهم على الرغبة فى الغوص الى أعماق هذه المعميات للكشف عن الحقيقة ، فليعودوا الى مطالعة الكراسات الثلاث السابقة بعناية ، وليفيدوا من كل واقعة يقرأونها ، ومن المعرفة التى يستخلصونها منها ، فى متابعة الوقائع التى تليها .

وليرجعوا القهقرى من مكيدة الى مكيدة ، ومن عميل الى عميل ، حتى يصلوا الى المحركين الأوائل لكل شيء .. وانى لأعرف موقنا ما سوف تنتهي اليه أبحاثهم ، ولكنى تائه اتخبط فى الطريق المظلمة المتعرجة الضاربة فى أعماق الأرض ، حيث قادونى !

* * *

• **تعرفت** ـ خلال اقامتى فى (ايفردون) ـ الى جميع أفراد أسرة السيد « روجان » ، ومنهم ابنة أخيه السيدة « بوى ديلاتور » ، وبناتها اللائى تعرفت الى ابيهن فى (ليون) ، كما أحسبنى قد ذكرت من قبل (١) . وكانت السيدة قد جاءت الى (ايفردون) لتزور عمها وشقيقاتها . ولقد أطربتنى ابنتها الكبرى ـ التى كانت فى حوالى الخامسة عشرة من عمرها ـ بمداركها الواسعة وشخصيتها الرائعة . وسرعان ما ارتبطت بالأم والابنة ، بأرق روابط الود . وكان السيد روجان قد اعتزم أن يزوج الأخيرة من ابن اخت له « كولونيل » ، كان قد تجاوز السن المعقولة ، وكان يولينى ـ هو الآخر ـ أعظم الود . ولكن .. بالرغم من تحمس العم لهذا الزواج ، ومن أن ابن الأخ كان راغبا فيه ، ومن اننى اهتممت ـ فى حرارة ـ بأن أرضى كلا منهما ، الا ان الفارق الكبير فى السن ، والنفور المسف من ناحية الفتاة ، حملانى على أن أعاون الأم فى عرقلة هذا الزواج ، فلم يقدر له أن يتم . وما لبث الكولونيل أن تزوج من الآنسة «ديللان» ، وهى من قريباته ، وكانت سيدة ذات جمال وخلق يروقان لفؤادى ، وقد جعلته اسعد الأزواج والآباء . ومع ذلك فان السيد « روجان » لم ينس لى قط اننى عارضت رغباته ، فى هذه المناسبة . ويعزينى فى ذلك يقينى من أننى أديت ـ سواء نحوه او نحو اسرته ـ اقدس واجبات الصداقة ، وهو

---

(١) ارجع الى صفحة ٧٦ من الجزء الثالث .



ما لا يتطلب من المرء ان يجعل نفسه مرغوبا على الدوام ، ولكنه يتطلب منه أن يكون ناصحا فلا يشير دائما الا بما فيه الخير !

ولم يطل بى الشك فيما قد ينتظرنى من استقبال فى (جنيف)، اذا أنا ملت الى العودة اليها ، اذ ان كتابى أحرق هناك ، كما أصدر مرسوم بالقبض على فى ١٨ يونيو ، أى بعد تسعة أيام من ذاك الذى أصدر فى باريس . **ولقد حشدت فى المرسوم الجنيفى كثير من السخافات التى لا يصدقها العقل ، كما ان المراسم الكنسية انتهكت فيه بشكل واضح ، حتى اننى لم أشأ ان أصدق الأنباء الأولى ، التى تناهت لى عنه ، فلما أيدت فعلا، رحت ارتجف فرقا من أن يؤدى مثل هذا الانتهاك المكشوف الصارخ لكل القوانين ، الى اثارة الرأى العام ، والى قلب جنيف رأسا على عقب ! .. وما كان لى أن أنزعج ، فان كل شىء ظل هادئا ! ..** واذا كانت بعض الاضطرابات قد سرت بين الناس ، فانها كانت موجهة ضدى . . فقد عوملت — فى جميع الشائعات والتقولات التى انتشرت بين الرأى العام فى المدينة — كما يعامل التلميذ الذى ينذر بالضرب بالسياط ، لأنه لم يحسن تلاوة درسه الدينى !

ولقد كان هذان المرسومان ، ايذانا بانطلاق صرخة اللعنة التى تعالت ضدى فى أوربا بأسرها ، مصحوبة بهياج لم يسبقه

مثيل . فاذا جميع النشرات الرسمية ، والصحف ، والكتيبات تردد أفظع اشارات التنبيه الى الخطر . واذا الفرنسيون بوجه خاص ، ذلك الشعب اللطيف ، المؤدب ، الكريم ، الذى يفخر بقوة ميله الى الخير ورعايته للمنكوبين .. اذا بهذا الشعب ينسى فجأة فضائله المحببة اليه ، ويمتاز على ما عداه بعدد وقذاعة الاهانات التى تبارى فى قذفى بها ! .. فرميت بأننى كافر ، زنديق ، معتوه ، متهوس ، وحش كاسر ، ذئب .. وشن المعلق فى « جورنال دى تريفو » – صحيفة الجيزويت – على سعارى الوحشى المزعوم جملة اضافية لم تش الا بسعاره هو . وفى وسعك – بايجاز – ان تقول ان كل كاتب فى باريس ، أصبح يخشى ان يصطدم بالبوليس – عندما ينشر شيئا فى أى موضوع – اذا هو أغفل ان يحشوه ببعض الاهانات ضدى ! .. وأوشكت – فى بحثى عبثا عن سبب هذا العداء الشامل – أن أعتقد ان العالم بأسره قد اختبل . **يا للعجب ! .. ايبث منقح « السلام الدائم » الفرقة والشقاق ؟ .. أيكون مؤلف « اسقف من سافوا » كافرا ؟ .. أيكون كاتب « هيلويز الجديدة » ، ذئبا ، وكاتب « اميل » ملتاثا ؟ .. أواه يا الهى ! .. فماذا كنت أصبح اذن ، لو اننى نشرت كتاب « العقل » (الذى وضعه مونتسكيو ، ودعا فيه الى الايمان بالعقل وحده) أو أى مؤلف آخر على شاكلته ؟ .. ومع ذلك ، ففى عنفوان العاصفة التى انفجرت على رأس مؤلف هذا الكتاب ، لم يضم الرأى العام صوته الى صوت ظالميه ، وانما انتقم للمؤلف بما أهاله عليه من مديح !** .. فمن لى بمن يقارن بين كتابه وكتابى ، والاستقبالين المختلفين اللذين استقبلا بهما ، والمعاملتين اللتين عومل بهما المؤلفان فى مختلف دول اوربا ، ثم يعثر خلال هذه الاختلافات عن أسباب لها تقنع أى امرىء سليم الادراك ؟ ! .. هذا جل ما أطلب ، ولن أزيد !

* * *

• **ووجدت** من الراحة فى (ايفردون) ماجعلنى أقرر المقام هناك ، مستجيبا للالحاح الحار ، الذى انهال على من السيد روجان واسرته . كذلك شجعنى السيد « دى موارى دى جانجان » ــ القائم على الأمن والعدالة فى هذه المدينة ــ على أن أبقى فى ظلال سلطانه ، بما أبداه لى من أفضال . واصر « الكولونيل » كل الاصرار على أن أسكن مبنى صغيرا مستقلا ، بين فناء داره وحديقتها . وما ان قبلت ، حتى انصرف الى تأثيثه وتجهيزه بكل ما كان ضروريا لحاجاتى المتواضعة . وكان « روجان » ــ صاحب الراية (١) ــ شديد الحرص على ملازمتى ، حتى انه لم يكن يفارقنى طيلة النهار . ولقد كنت أقدر مكرماته كل التقدير ، ولكننى كنت أضيق بها أحيانا !

وكان موعد استقرارى فى المسكن الجديد قد حدد ، وكتبت الى « تيريز » كى تلحق بى ، عندما نمى الى أن زوبعة قامت فى (بيرن) ضدى ، وعزيت الى غلاة المتدينين ، ولم يقدر لى قط ان اكتشف منشأها . **فلقد هب مجلس الشيوخ ــ دون أن يعرف من الذى استنهضه ــ وبدا أنه غير راغب فى ان يدعنى فى سلام ، فى عزلتى . وما ان سمع حاكم المدينة بهذا الهياج ، حتى كتب فى صالحى الى عدد من أعضاء الحكومة ، ولامهم على تعصبهم الأعمى ، وعاب عليهم الرغبة فى أن يأبوا على رجل قدير مظلوم ، المأوى الذى يجده كثير من الأشرار فى ولاياتهم! .. ولقد حدس ذووا العقول الحصيفة ، ان تكون حرارة لومه قد أهاجت الأفكار ، بدلا من أن تهدئها** . ومهما يكن الأمر ، فان مكانته وبلاغته لم تستطيعا دفع الصدمة . وما ان تناهت اليه بادرة عن الأمر الذى كان عليه ان يعاملنى بمقتضاه ، حتى أوعز الى به مقدما ، فقررت ان لا أنتظر هذا الأمر ، وأن أرحل فى

---

(١) لقب كان يطلق على أى اقطاعى أوتى عددا معينا من رقيق الأرض . يبيح له ان يرفع على قصره علما خاصا .

اليوم التالى . وكانت الصعوبة تتمثل فى معرفة المكان الذى أذهب اليه . فقد كانت (جنيف) و (فرنسا) مغلقتين فى وجهى ، وقد رأيت ـ مقدما ـ ان كل حكومة تقلد جارتها ، فى مثل هذه المسألة !

واقترحت السيدة « بوى ديلاتور » أن أقيم فى بيت خال، ولكنه مكتمل الاثاث ، كان ابنها يمتلكه فى قرية (موتيير) ، فى (فال دى ترافير) بمقاطعة (نيوشايتل) . ولم يكن على سوى أن أجتاز أحد الجبال ، كى أصل الى هناك . ولقد كان الاقتراح جد مناسب ، اذ اننى خليق بأن أجد ملجأ من الاضطهاد ـ بطبيعة الحال ـ فى اراضى ملك بروسيا ، حيث لا يمكن اتخاذ الدين ذريعة لذلك . بيد أن عقبة خفية ـ لم يكن من اللائق بى ان اذكرها ـ حملتنى على التردد . ذلك ان حب العدالة ، الذى يتغلغل فى قلبى ويعمره دائما ، اتحد مع حبى الخفى لفرنسا ، وأوحيا الى بنفور من ملك بروسيا ، الذى لاح لى انه ـ من حيث المبادىء والسلوك ـ كان يدوس كل اعتبار للقانون الطبيعى والالتزامات الانسانية ، وقد كان بين اللوحات ذات الاطارات ، التى كانت تزين جدران شرفتى فى (مونمورنسى)، صورة لهذا الأمير ، كتبت تحتها بيتين من الشعر ، هذا ختامهما :

« انه يفكر بعقل فيلسوف ، ويتصرف كملك » !

هذه الشطرة التى كانت خليقة بأن تكون مديحا بديعا ـ اذا كتبها أى قلم آخر ـ كانت من قلمى توحى بمعنى غير مبهم ولا غامض ، لا يتضح الا بالشطرة التى كانت تسبقها (١) . وكان الشيفالييه دى لورنزى قد نقل هذا البيت الشعرى وكتبه لدالمبير . وما كان لدى أى شك فى ان « دالمبير » قد عنى بأن

---

(١) تلك هى : « الشهرة والمنفعة .. هذان هما ربه وقانونه » . ولم يكن « روسو » قد كتب هذه الشطرة فوق أختها ـ تحت الصورة ـ وانما كتبها خلفها !

يستغله ، وبأن يرسله قبلى الىهذا الأمير ! .. ولقد ضاعفت من هذا الذنب بفقرة فى ((اميل)) تبدى بجلاء شخصية الملك الذى كنت أتمثله تحت اسم ((ادراستى)) ، ملك (داوينيان) .
ولم تفت هذه التورية النقاد ، اذ رددتها السيدة دى بوفلير أمامى مرارا . ومن ثم فقد كنت واثقا من أن اسمى قد سجل بمداد أحمر فى سجلات ملك بروسيا ، واذ كنت أرى — الى جانب ذلك — أن هذا الأمير قد أوتى ما جرؤت على ان أعزوه اليه من مبادىء ، لذلك لم يكن من سبيل لكتاباتى، ولا لصاحبها، بأن ينالا منه رضى .. فمن المعروف أن أهل الخبث والطغاة اعتادوا أن يكنوا لى دائما أشد الكراهية القاتلة ، بمجرد اطلاعهم على مؤلفاتى ، ولو لم يعرفونى معرفة شخصية !

ومع ذلك ، فاننى لم ألبث ان اقدمت على وضع نفسى تحت رحمته ، وقد خيل الى اننى لن اتعرض لكبير خطر . فقد كنت أعرف ان المشاعر الخسيسة لا تتملك سوى ضعاف الرجال ، ولكنها لا تظفر بسلطان يذكر على النفوس ذات الطابع القوى ، كتلك التى طالما لمستها فى شخصية هذا الأمير . **وقدرت أن من سياسته فى الحكم ، ان يظهر نفسه — فى مناسبة كهذه — بمظهر الشهم العالى النفس .. وحكمت — لنفسى — بأن الانتقام الخسيس السهل ، لا يمكن ان يعدل فى نفسه — ولو للحظة واحدة — حب المجد والشهرة . ووضعت نفسى فى مكانه ، فلم أر من المستحيل عليه ان ينتهز الظرف لكى يثقل بكرمه كاهل رجل جرؤ على أن يسىء الظن به . ومن ثم فقد سعيت الى الاقامة فى (موتيير) ، وانا ملىء النفس بثقة خيل الى انه قمين بأن يدرك قيمتها . ورحت أقول لنفسى : ((اذا رفع جان جاك نفسه الى مرتبة كوريولانوس ، فهل يرضى**

فردريك لنفسه بأن يكون أدنى من قائد الفولك ؟ » (١)

ولقد رغب الكولونيل روجان – فى اصرار – فى ان يجتاز الجبل معى ، ويطمئن الى استقرارى فى (موتيير) . ولم تبتهج لوصولى أخت الزوج السيدة «بوى دى لاتور» – وتدعى السيدة جيراردييه – اذ كانت تجد البيت ، الذى كنت موشكا أن أشغله ، أكثر ملاءمة لها هى . ومع ذلك فانها تركتنى استولى عليه ، فى أدب وتلطف ، وأصبحت أتناول وجباتى لديها ، الى أن وصلت « تيريز » وانتظمت سكناى الصغيرة وحياتى .

* * *

• **وكنت** – منذ رحيلى عن (مونمورنسى) – قد أحسست بيقين بأننى سأغدو ، من ذلك الحين ، جواب آفاق ، هائما فى الأرض . ومن ثم فاننى كنت مترددا فى السماح لتيريز بأن تلحق بى ، وان تشاركنى حياة التجوال التى رأيت انه قد قضى على بها ! . . وشعرت بأن الروابط بيننا خليقة بأن تتبدل ، من جراء هذه الكارثة ، وان ما كان كرما وفضلا – من ناحيتى – من قبل ، يجب ان يصبح كرما وفضلا من ناحيتها ، بعد اليوم . **واذا كان ولاؤها قد ظل فى حصانة ضد محنى وتعاساتى ، فانها ولا بد كانت شديدة الأسى بسبب هذه المحن والتعاسات . وما كان أساها ليزيدنى الا هموما . أما اذا كانت مصائبى قد خففت من عواطفها نحوى ، فلا بد انها مسوقة الى ان ترى فى بقائها على ولاء مستمر لى ، تضحية من ناحيتها . وبدلا من**

---

(١) كان كوريولانوس قائدا رومانيا أدى لوطنه أجل الخدمات فى القرن الخامس ، ولكن مزاحميه أوغروا صدور الشعب ضده ، ففر لائذا بقبائل « الفولك » ، المعادية للرومان ، والتى كان قد هزمها من قبل . وقاد جيشا منها فحاصر روما وكاد يدمرها لولا ضراعات الشعب التى حملتها اليه أمه وزوجته .

ان تشعر بالمتعة التى كنت أحس بها اذ أشركها معى آخر كسرة من الخبز لدى ، فانها كانت خليقة بأن تزداد شعورا بقيمة تضحيتها اذا قدر لها ان تتبعنى الى حيثما كان القدر يسوقنى !

ومن الواجب أن أقول : اننى لم أتستر قط على اخطاء «ماما» ولا على اخطائى . ومن ثم فلا يجدر بى أن أبدى كثير محاباة لتيريز ، بدورها . وبقدر ما يسرنى أن أكرم شخصا مثلها ، جد عزيز على نفسى ، فاننى ماكنت لأبغى التستر على عيوبها ، اذا اعتبر تحول عواطف القلب ــ التحول غير الارادى ــ عيبا . ذلك اننى كنت قد لاحظت من أمد طويل ، ان ودها لى قد فتر . وشعرت بأنها لم تعد لى كما كانت فى أيامنا الهنيئة . وقد زادنى احساسا بذلك ، اننى ظللت دائما على حالى نحوها . وفطنت ــ مرة اخرى ــ الى شعور بالاستياء ، كذلك الذى سبق ان فطنت اليه عندما كنت مع « ماما » ، وكان له عين النتائج . وليس لنا ان نبحث عن الكمال الذى لا وجود له فى الطبيعة ، فان هذا هو عين الشعور الذى كان من المحتمل ان يراود اية امرأة أخرى ، مهما تكن .

وما قدر للتصرف الذى اتخذته نحو أولادى ــ مهما يكن قد لاح لى متمشيا مع العقل والمنطق ــ أن يدع قلبى فى سلام . فبينما كنت أفكر فى كتابى : « رسالة فى التربية » ، شعرت بأننى قد اهملت واجبات لا حجة لى فى اهمالها ولا عذر . وما لبث ندمى ان اشتد ، حتى انه انتزع منى ــ تقريبا ــ اعترافا علنيا بذنبى ، فى بداية كتاب « اميل » . وقد ظل هذا الندم ملحوظا بعد ذلك ، حتى ليغدو من المدهش حقا ، أن ينحى أحد باللائمة على ، بعد مثل تلك الفقرة . **على أن مركزى ظل ــ فى ذلك الوقت ــ على حاله .. بل انه تفاقم بسبب بغضاء أعدائى ، الذين لم يكونوا يرجون سوى أن يعثروا لى على ذنب . ومن ثم فاننى خشيت أن أكرر الذنب .. ولكى لا أتعرض لارتكابه ، آثرت أن أقضى على نفسى بانتهاج زهد شديد ، حتى لا أعرض**

تيريز الى ان تجد نفسها – مرة اخرى – فى نفس الوضع (١).

والى جانب هذا ، كنت قد لاحظت ان معاشرة النساء كانت تؤثر على صحتى تأثيرا محسوسا . ولقد ادت كل هذه الأسباب الى أن عقدت عزمى على أمور لم أكن أواظب على اتباعها فى بعض الأحيان ، الا أننى ازددت اطرادا فى الدأب عليها منذ سنوات ثلاث أو أربع . وفى هذه الفترة بالذات ، شعرت بالبرود يدب فى عواطف تيريز . ولقد ظلت على وفاء لى ، عن واجب وليس عن حب . وكان لا بد من ان يلقى هذا ظلا على بهجة تعاشرنا ، فخيل الى انها فى وثوقها من اننى سأواصل رعايتها اينما كانت ، تؤثر أن تظل فى باريس ، على ان تهيم معى فى ارجاء الدنيا ! .. **ومع ذلك ، فانها أبدت كثيرا من الألم عند فراقنا ، وانتزعت منى وعودا مغلظة بأن نصل شملنا من جديد ، وقد عبرت عن هذه الرغبة – منذ رحيلى – للسيد الأمير دى كونتى ، وللسيد دى لوكسمبورج ، بحرارة لم تجعل من العسير على ان اجد الجرأة على أن أحدثها عن الانفصال فحسب ، بل اننى لم أكد أقوى على أن أفكر فى ذلك . ومن ثم فما ان شعرت فى قرارة فؤادى بمدى استحالة استغنائى عنها ، حتى اصبحت لا افكر الا فى أن أدعوها ، دون ما ارجاء . ولهذا فقد كتبت اليها كى تأتى !**

وجاءت .. ولم يكن قد انقضى شهران على فراقى اياها ، ولكنه كان الفراق الأول بعد سنوات طويلة ، فشعر كل منا بقسوته مضاعفة . وكم اهتز قلبانا عندما تعانقنا !.. ويا لعذوبة دموع الفرح والحنان ! .. لكم ارتوى منها فؤادى !.. فلماذا لم يتح لى أن أذرف منها بحورا ؟ !

* * *

• وكنت – عند وصولى الى (مونتير) – قد كتبت الى

---

(١) أى أنه لم يعد يعاشر تيريز معاشرة الأزواج ، حتى لا تحمل ثمرة تضعه فى موضع المذنب مرة أخرى !

اللوردكييث، مارشال ايقوسيا (اسكتلندا)، وحاكم نيوشاتيل ، انبئه بأنني قد لذت لاجئا بالأرض التي تخضع لسلطانه، وأسأله أن يبسط على حمايته. وقد اجاب بالكرم المعروف عنه ، والذى كنت اتوقعه منه . ودعانى الى أن ازوره ، فذهبت فى صحبة السيد مارتينيه ـ سيد ضيعة (فال ـ دى ـ ترافير) ـ الذى كان يحظى بمكانة رفيعة لدى سعادته . وكان لوقار مظهر هذا السيد الايقوسى الجليل الصالح ومهابته ، أثر فى قلبى ، حتى لقد كانت تلك اللحظة بالذات ، بداية ود حار بيننا ، ظل دائما على قوته ـ بالنسبة لى ـ وكان جديرا بأن يظل كذلك ، بالنسبة له ، لولا ان الغادرين الذين حرمونى كل عزاء فى الحياة، استغلوا غيابى وكهولته ، فشوهوا من أمرى لديه !

وكان جورج كييث ـ مارشال ايقوسيا بالوراثة ، وشقيق الجنرال كييث الشهير ، الذى مات ميتة مشرفة ، فى أعقاب حياة مجيدة ـ قد هجر بلاده فى شبابه ، اذ قضى عليه ، دون محاكمة ، لولائه لآل ستيوارت ، الذين لم يلبث أن عافهم لما ألفاه لديهم من روح ظالمة طاغية ، كانت دائما طابع حكمهم . ولقد أقام زمنا طويلا فى اسبانيا ، ولكن جوها لم يطب له ، وانتهى الأمر الى ما انتهى بأخيه من قبل، فارتبط بملك بروسيا، الذى كان خبيرا بالرجال، والذى كان يتلقاهم بما هم به جديرون. ولقد تلقى الجزاء وافيا على هذا الاستقبال ، بما أداه له المارشال كييث من خدمات جليلة ، وبما هو أثمن من هذا .. وأعنى بذلك ود السيد اللورد المارشال . **فما كان هذا الرجل الجليل، المفعم بالحرية والكرامة ، والذى اوتى نفسا كبيرة ، لينحنى الا اربقة الصداقة والود . على انه فى انحنائه للصداقة كان يسف ، الى درجة انه لم يعد يتطلع الى غير ((فردريك)) ، مذ تعلق به . ولقد عهد اليه الملك بشئون هامة ، وأوفده الى باريس والى اسبانيا ، حتى اذا رآه ـ فى النهاية ـ قد طعن فى السن، وأصبح فى حاجة الى الراحة ، أنعم عليه بحكم (نيوشاتيل)،**

حيث راح يقضي ما تبقى له من عمر فى عزلة ، وقد وجد فى اسعاد أهل هذه الولاية مهمة مستعذبة !

أما أهالى نيوشاتيل ــ الذين لم يكونوا يغرمون بغير المظاهر والسفاسف ، والذين لم يؤتوا القدرة على ان يحكموا على حقائق الأشياء والرجال ، والذين كانوا يولعون بالاطالة فى الحديث ــ فانهم حين رأوا الرجل هادىء النفس ، بعيدا عن التظاهر ، أخذوا بساطته على انها ترفع ، وصراحته على انها غلظة ، وايجازه فى الكلام على انه غباء ، وثاروا على تدابيره وجهوده الرامية الى الخير ، لأنه ــ فى رغبته فى ان يكون نافعا ، دون ما تشدق أو من ــ لم يعرف كيف يتملق القوم الذين لم يقدروه حق قدره . ففى قضية القس ــ « بيتيبيير » ــ الذى اضطهده زملاؤه من رجال الدين ، لأنه ابى ان يؤمن انهم ملعونون الى الابد ، وقف اللورد فى وجه ما كان القساوسة يمارسونه من استغلال ، فاذا بهم يؤلبون عليه كل البلاد التى كان يعمل من اجلها . ولم يكن هذا الهياج الأخرق قد سكن تماما ، فى آونة وصولى الى هناك . اذ كان اللورد معتبرا كرجل متشبث برايه ومعتد به ــ على الأقل ــ وكانت هذه ادنى الاتهامات التى كان يرمى بها الى الظلم !

ولقد كان أول شعور خالجني ــ اذ ابصرت هذا الشيخ الوقور ــ هو الاشفاق على هذا الجسد النحيل ، الذى انهكته الشيخوخة . ولكننى لم اكد أرفع عينى الى تلك الاسارير القوية ، الصريحة ، النبيلة ، حتى شعرت باحترام ممتزج بالثقة يستولى على ، ويطغى على كل احساس آخر . ولقد ردعلى التحية الموجزة التى رفعتها اليه ــ حين قدمت نفسى ــ بأن تحدث عن أمر آخر ، وكاننى كنت معه منذ أيام ثمانية . بل انه لم يأمرنا بالجلوس ، فظل سيد الضيعة ، ذو الثياب المنشاة ، واقفا . اما انا ، فقد رأيت فى نظرة اللورد الحادة ، واللطيفة ــ فى آن واحد ــ عطفا لم ادركنه ، أشعرنى بارتياح وطمأنينة ،

فاذا بى اشاطره اريكته — فى غير ما كلفة — فأجلس الى جانبه. وأدركت من اللهجة الاليفة — التى التزمها فورا — ان هذا التحرر منى، صادف قبولا لديه، وانه قال لنفسه: « هذا ليس على شاكلة أبناء نيوشاتيل! »

فيا له من أثر فذ انبعث عن شخصية كبيرة فذة! .. وفى السن التى يفقد فيها القلب حرارته الطبيعية، شعرت بقلب هذا الشيخ الطيب يشيع نحوى دفءا، بدرجة أدهشت كل امرىء. ولقد جاء لزيارتى فى (موتيير)، بحجة صيد السمانى، فقضى يومين، دون أن يمس بندقية!

* * *

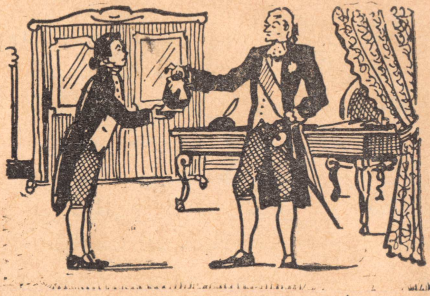
• **وتوطدت** بين الأمير وبينى صداقة — فهذه الكلمة الصحيحة — حتى لم يعد بوسع أحدنا ان يستغنى عن الآخر. وكان قصر (كولومبييه) — الذى اعتاد أن يقيم فيه، فى الصيف — على ستة فراسخ من (موتيير)، فكنت اذهب فى كل خمسة عشر يوما — على الأكثر — لأقضى هناك أربعا وعشرين ساعة، ثم أعود بقلب ملىء بالأمير دائما، وكأننى كنت فى حج. ومن المحقق ان الأحاسيس التى كنت أعهدها فى طريقى من (ليرميتاج) الى (اوبون) — من قبل — كانت تختلف عن هذه التى كنت استشعرها فى عودتى من (كولومبييه) الى (موتيير)، بيد انها لم تكن تفوق هذه لطفا وعذوبة. فكم من دموع كنت كثيرا ما انفقها — فى طريقى — حنانا، اذ افكر فى المكرمات الأبوية، والفضائل الحبيبة، والفلسفة الرقيقة التى اوتيها هذا الشيخ الجليل! .. واعتدت أن أدعوه أبى، فكان يدعونى ابنه. وان هذين الندائين المستعذبين ليوحيان — الى حد ما — بفكرة عن المودة التى وحدت بيننا، ولكنهما لا يصوران مدى حاجة كل منا الى الآخر، والرغبة فى ان يظل قربنا مستمرا. وراح يصر على الرغبة فى أن أقيم بقصر (كولومبييه)، وأخذ

يستحثنى طويلا على ان اتخذ الجناح الذى كنت انزل به مسكنا لى ، ولكننى ـ فى النهاية ـ أنبأته بأننى كنت أنعم بمزيد من الحرية فى مسكنى الخاص ، واننى كنت أوثر أن أنفق عمرى فى السعى لزيارته . فارتاح الى صراحتى ، ولم يعد الى اثارة الموضوع . **اواه ، يامولاى الطيب ! .. اواه ، ياأبى الكريم ! .. لكم يهتز قلبى ـ حتى اليوم ـ كلما تذكرتك ! .. آه ، ياالقساة الغلاظ ! .. اية ضربة انزلوها بى اذ فرقوا بيننا ! ولكن ، كلا ، ثم كلا ، أيها العظيم .. انك اليوم ـ وستظل دائما ـ كما كنت من نفسى ! واذا كانوا قد غرروا بك ، الا انهم لم يحولوك قط ! (١)**

ولم يكن اللورد المارشال مبرءا من العيوب ، فهو انسان ، وان كان حكيما ! .. ومع أنه أوتى أشد العقول قدرة على الغوص فى أعماق الأمور ، وأرق أسلوب يؤتاه بشر ، وأعمق معارف الانسان ، الا أنه كان يستسلم لتغرير الغير به ، ولم يكن خداعه ليستعصى عليهم .. كان ذا مزاج فذ ، فقد كان يشوب سير عقله شىء من الغرابة والطرافة . كان يبدو عليه انه ينسى اولئك الذين كان بصره يقع عليهم فى جميع الأيام ، ثم يذكرهم فى اللحظات التى لايكاد يفكر فيهم خلالها . وكانت التفاتاته تبدو فى غير مواضعها ، وهداياه تمنح جزافا ، دون ما مراعاة لمناسبتها . فهو يبعث او يمنح مايخطر له عفو اللحظة ، غير حافل بعظم قدر الهدية ، أو ببخس قيمتها . ولقد قدم اليه يوما شاب من (جنيف) ، كان راغبا فى العمل فى خدمة ملك بروسيا ، فبدلا من ان يزوده اللورد بخطاب ، دفع اليه بكيس

---

(١) من الصحيح ان اللورد المارشال ، كان وثيق الصلة بهيوم ، ومن ثم فانه تأثر للأخطاء التى ارتكبها روسو نحو الأخير . ولكنه ظل صادق الود لروسو رغم ذلك ، حتى انه أهداه قبيل موته ـ وقد توفى فى مايو سنة ١٧٧٨ ، سابقا روسو بستة أسابيع ـ ساعة لم يكن يفارقها .



صغير ملىء بالبازلاء ، وعهد اليه بأن يسلمه الى الملك الذى لم يكد يتسلم هـذه التوصية العجيبة ، حتى أنعم على حاملهـا بمنصب ! .. ان لهؤلاء العباقرة الأجلاء لغة خاصة ، لن يقدر للعقول العادية ان تفهمها ! .

وما كانت هـذه التصرفات الطريفـة ، التى تشبه نزوات الحسناء ، لتزيد اللورد المارشال الا مكانة ،ولقد كنت متأكدا ـ ووجدت فيما بعد الادلة الكافية ـ على انهذه التصرفات لم تكن لتؤثر أى تأثير على أحاسيسه ، أو على الاهتمام الذى تفرضه عليه الصـداقة فى جلائل الأمور . ولـكن من الصحيح انه فى تفضله ، كان يكشف عن نفس هذه الغرابة التى تخالط مسلكه.

ولن أذكر سوى مثال واحد للدلالة على مسألة تافهة القيمـة كهذه . ذلك انه لما كانت الرحلة من (موتيير) الى (كولومبييه) أشق من أن أقطعهـا فى يوم ، فاننى اعتدت أن أقسمها الى شطرين . فكنت أشرع فيها بعد الغداء ، وأقضى الليل فى (برو)، القائمة فى منتصف الطريق . وكانت لصاحب النزل ـ ويدعى « ساندوز » ـ حاجة فى برلين ، يعلق عليها أهميـة كبرى . فرجانى أن أسأل صاحب السعادة ان يطلبها له باسمه . ووافقت عن طيب خاطر ، فاصطحبته ، وتركته فى الحجرة الخارجية ، ثم ذكرت مسـألته للورد ، الذى لم يرد بشىء ! .. وانقضى الصباح . وفيما كنت اقطع البهو ، فى طريقى الى الغداء ، رأيت

«ساندوز» المسكين، وقد انهكه الانتظار. وخطر لى ان اللورد قد نسى امره ، فعدت الى الحديث عنه قبل ان يجلس الى المائدة . ولكنه لم ينبس بكلمة ، كما فعل من قبل ! .. واشتممت من مسلكه أنه كان يوحى بأننى قد تجاوزت حدى فى مضايقته ، فلذت بالصمت ، وانا أرثى لساندوز المسكين فى سريرتى ! .. وشد ما كانت دهشتى حين قابلنى فى عودتى — فى اليوم التالى — بشكر دافق لما أتاحه له صاحب السعادة من كرم الوفادة ، وشهى الطعام ، فضلا عن تكفله بأوراقه . وبعد ثلاثة اسابيع ، ارسل اليه اللورد الوثيقة الرسمية التى كان يسعى وراءها ، وقد أعدها الوزير ووقعها الملك .. **كل هذا دون أن يبدى أقل رغبة فى الحديث الى ، ودون أن يرد على أو عليه بكلمة واحدة بصدد هذا الأمر الذى خيل الى انه كان غير راغب فى أن يتكفل به !**

وبودى أن لا أكف عن الكلام عن « جورج كييث » ، فمنه تواتينى آخر ذكرياتى السعيدة ، أما بقية عمرى فلم يكن سوى هموم وشجون تعتصر القلب . ولشد ما تبعث ذكراها الأسى فى نفسى ، فهى تواتينى مضطربة مهوشة ، حتى ليعز على أن احتفظ بانتظام سياق قصتى ، ومن ثم فسأضطر — منذ الآن — الى أن أسوقها عفوا ، وحسب ماتخطر لى ، لا حسب ما وقعت !

* * *

• **لم** يطل بى أمد القلق بشأن المكان الذى لجأت اليه ، بفضل رد الملك على اللورد المارشال الذى وجدت فيه — كما يسهل الحدس — محاميا بارعا . فان جلالة الملك لم يقر ما جرى فحسب ، بل انه كلفه — كما ينبغى ان يقال — بأن يمنحنى اثنى عشر « لوى » . واذ شعر اللورد الطيب بالحرج من مهمة كهذه ، ولم يدر كيف ينفذها بنفسه فى تلطف ، سعى الى

تخفيف ما فى تنفيذها من جرح لشعورى ، بأن حول النقود الى حاجيات مادية ، فأشار الى انه تلقى أمرا بأن يزودنى بالخشب والفحم اللازمين لى فى بداية استقرارى فى المسكن الصغير . بل انه اضاف الى هذا ـ وربما صدر فى ذلك عن ايعاز من نفسه ـ بأن الملك سيسر بأن يعمل على بناء منزل صغير لى ، وفق هواى ، اذا أنا اخترت الموقع . ولقد أثر هذا العرض الأخير فى نفسى أبلغ تأثير ، وأنسانى رذالات الاخرين . وبدون أن أقبل ايا من الهبتين ، رحت اتطلع الى فردريك كراع لى وحام . فملت اليه بولاء صادق ، حتى اننى اهتممت بسمعته ، فوجدت ـ منذ ذلك الحين ـ كثيرا من الظلم يشوب انتصاراته . وعندما عقد الصلح ـ بعد ذلك بقليل ـ أعلنت اغتباطى بزينات مفرطة الجمال ، تمثلت فى حبل من زهور الغار زينت به الدار التى كنت أقيم فيها ، وانفقت عليه ـ بدافع من الانتقام لكرامتى ، فى الواقع ـ مبلغا يوازى ذاك الذى أراد ان يمنحنيه .

وخيل الى ، وقد استتب السلام ، وأصبح صيت الملك الحربى والسياسى فى أوجه ، انه لن يلبث ان يسعى الى الحصول لنفسه على صيت من نوع آخر ، وذلك بانعاش ولاياته ، فيمكن للتجارة والزراعة من ان تتسعا ، ويستصلح الاراضى ويعمرها بخلق جديد ، ويحافظ على السلم مع جيرانه ، ويغدو داعية الوئام فى اوربا ، بعد أن كان مصدر الذعر .. كان بوسعه ان يغمد السيف دون أن يتعرض لخطر ، وهو مطمئن الى انه لن يضطر الى ان يشهره من جديد . فلما رأيت أنه لم يخفض من تسلحه ، خشيت ان يسىء استغلال مميزاته ، وان لا يمضى فى طريق العظمة الا الى منتصفه . فجرؤت على أن أكتب اليه بهذا الصدد ، متخذا أسلوب الألفة ـ وهو خير ما ينتهج لارضاء الرجال الذين من نوعه ـ حتى يبلغ مسمعه صوت الحق المقدس ، الذى لا يطيق سماعه سوى قلة من الملوك ! .. وما استبحت

هذا لنفسى الا فى الخفاء ، وفيما بيننا فقط ، فلم أشرك أحدا ، ولا سيدى المارشال ، الذى ارسلت اليه الخطاب الموجه الى الملك مغلقا ، فأرسله بدوره الى هذا ، دون أن يطلع على ماحواه . ولم يجب الملك بشىء . وبعد ذلك بوقت قصير ، ذهب سيدى المارشال الى برلين ، فاكتفى بأن قال له انى عنفت فى تأنيبه !.. وأدركت من ذلك أن خطابى لم يلق استحسانا ، وان تحمسى الصريح أخذ على محمل التطفل الخشن ، وقد يكون الأمر كذلك ، فى جوهره . ولعلنى لم أقل ما كان ينبغى أن يقال ، ولا اتخذت اللهجة التى كان ينبغى أن أتخذها . ولكنى لا أحاسب نفسى الا عن الشعور الذى دفع بالقلم الى يدى !

وبعد استقرارى فى (موتيير – ترافير) بوقت قصير ، واطمئنانى الى كل الضمانات التى تكفل لى العيش فى سكينة ، اتخذت الزى الأرمنى . ولم تكن الفكرة بالجديدة على ، فقد خطرت لى مرارا فى سياق حياتى ، ثم عاودتنى كثيرا فى (مونمورنسى) ، حيث كان استخدامى المستمر للمجسات (لعلاج احتباس البول) ، يضطرنى الى ان ألزم مخدعى فى كثير من الاحيان ، مما جعلنى أكثر شعورا بفوائد الثوب الطويل . ولقد ساقت المصادفة حائكا ارمنيا ، كان يكثر من التردد على قريب له فى (مونمورنسى) ، فأغرانى ذلك بأن انتهز الفرصة لاتخذ الزى الجديد ، رغم ماقد يتقوله الناس ، فما كنت شديد الشغل بتقولاتهم . على أننى شئت – قبل ان اتزيا بهذه الحلة الجديدة – ان أتعرف رأى السيدة دى لوكسمبورج ، فحبذت كل التحبيذ رأيى . **ومن ثم فاننى أعددت ((طاقما)) صغيرا من الملابس الارمنية ، بيد أن الضجة التى أثيرت ضدى ، جعلتنى أرجىء استخدامه الى وقت يكون أكثر هدوءا . ولم يتسن ذلك الا بعد بضعة اشهر ، عندما اضطررت الى العودة الى استخدام المجسات ، مدفوعا بنوبات جديدة لعلتى .. فخيل الى أن بوسعى أن أتخذ هذا الزى فى (موتيير) ، دون أن أتعرض**

لشيء ، لا سيما بعد ان استشرت راعي كنيسة المنطقة ، فأنبأني بأن بوسعي ارتداءه ــ حتى في الكنيسة ــ دون ما استحياء او انكار . ومن ثم أقبلت على ارتداء السترة والقفطان ، والقلنسوة المصنوعة من الفرو ، والحزام . وبعد أن اشتركت في أداء الفروض الدينية بهذا الزى ، لم أر أى ضير في أن أرتديه في زيارتي لسيدى المارشال . وما ان رآني سعادته في هذا اللباس ، حتى قال ، على سبيل الملاطفة : « السلام عليكم » ، فكان في هذا حسم الأمر ، ولم أعد بعد ذلك ارتدى زيا آخر !

* * *

• **ولما** كنت قد هجرت الأدب تماما ، فانني لم أعد أفكر الا في ممارسة حياة هادئة ، وادعة ، في نطاق امكاني . فما عرفت يوما ــ حين أخلو الى نفسي ــ معنى الملل ، حتى عندما أكون متعطلا تماما .. اذ ان خيالي كفيل بأن يملأ كل فراغ ، وهو وحده خليق بأن يشغلني عما سواه . ولكن الذى اعجز عن احتماله دائما ، هو الثرثرة الخاملة ، بين جدران أربعة ، حين يجلس الناس بعضهم الى بعض ، دون أن يحركوا شيئا سوى ألسنتهم ! .. كذلك المشي والتريض من الأمور التي احتملها ، اذ انهما يمكنان القدمين والعينين من أن تعمل ، على الأقل ! .. اما الجلوس بذراعين معقودتين ، والحديث عن الجو ، والذباب يحلق في المكان ، أو تبادل المجاملات ــ وهو أسوأ مما سبق ــ فهذا عبء لا يطاق بالنسبة لي . **ولقد راق لي ــ حتى لا أعيش في عزلة وحشية ــ أن أشغل نفسي بالتطريز ((اللاسيه)) ، فكنت أحمل وسادة الشغل في زياراتي ، أو أنهمك في التطريز لدى بابي ، وأنا أجاذب المارة الحديث ، كما تفعل النساء !**

ولقد ساعدني هذا على احتمال اللغو الفارغ ، وعلى قضاء الوقت ــ دون ما ضجر ــ في دور الجيران ، الذين كان بينهم عدد لا يعوزهم اللطف ، ولا ينقصهم الذكاء . وقد كانت من

هؤلاء امرأة تدعى « ايزابيل دانفرنوا » ، ابنة المدعى العام فى (نيوشاتيل) ، وقد لاح لى انها جديرة بأن أرتبط معها برباط خاص من الود ، لم تجد فيه ما يضيرها ، بفضل النصائح النافعة التى كنت أزجيها اليها ، وبفضل الخدمات التى كنت أؤديها لها فى المناسبات الماسة .. فأصبحت اليوم أما محترمة وربة أسرة فاضلة .. ولعلها مدينة لى بحكمتها ، وزوجها ، وحياتها ، وسعادتها ! .. أما انا ، فأدين اليها بكثير من التسرية الرقيقة ، لا سيما خلال الشتاء الكئيب ، عندما كانت عللى وأوجاعى ترقى الى ذروتها . فكانت تأتى لتقضى مع « تيريز » واياى السهرات الطويلة ، التى تحذق تقصيرها بروحها المرحة ، وبالثقة التى كانت متبادلة بيننا . **وقد اعتادت أن تدعونى « بابا » ، واناديها بيا « ابنتى » . ولا نزال نستخدم هذين اللقبين ، وانى لآمل أن اظل عزيزا عليها ــ دون انقطاع ــ كما هى عزيزة على !**

ولكى أجعل لأشغالى « اللاسيه » نفعا ، أعتدت أن أهديها الى صديقاتى الشابات عند زواجهن ، على شريطة أن يغذين أطفالهن بلبانهن . وعلى هذا ، حصلت الأخت الكبرى لايزابيل على مفرش من « اللاسيه » ، وكانت جديرة به حقا .. ولكنها لم تسعد بحمل الأطفال ، ولم يقدر لها ان تكون أما . ولقد حرصت ــ عند ارسال « اللاسيه » الى «ايزابيل» واختها ــ على أن أكتب لكل منهما رسالة . وقد طافت اولى هاتين الرسالتين أرجاء العالم . أما الثانية ، فلم يقدر لها هذا الحظ من الشهرة .. فان الصداقة لا تستقيم مع الصخب والضجيج !

* * *

• **ومن** الصلات التى عقدتها فى الجيرة ــ والتى لن أخوض تفصيلاتها ــ يجب أن أذكر علاقتى بالكولونيل « بورى » ، الذى كان يمتلك دارا فوق الجبل ، اعتاد أن يقضى فيها فصل

الصيف . ولم أكن مشوقا الى معرفته ، اذ كنت قد عرفت انه على علاقات سيئة مع البلاط الملكى ، ومع السيد المارشال ، الذى لم يزره قط . ومع ذلك ، فقد اضطررت الى ان ازوره ، اذ زارنى وأبدى لى كثيرا من التكريم والحفاوة . وقد استمر تزاورنا ، وكنا نتناول الطعام أحيانا ، على مائدته أو مائدتى . ولقد تعرفت فى داره بالسيد « دوبييرو » ، الذى لم يلبث ان غدا صديقا حميما ، حتى اننى لا أستطيع أن أتحاشى الحديث عنه .

كان السيد « دو بييرو » امريكيا ، ابن قائد (سورينام) الذى تزوجت ارملته من خليفتـه السيد لوشامبرييه ــ من ابناء (نيوشاتيل) ــ حتى اذا ترملت مرة اخرى ، وفدت مع ابنها ليقيما فى بلاد زوجها الثانى . وكان دوبييرو ابنا لا مثيل له ، واسـع الثراء ، مشغوفا بحب أمه ، وقـد نشأ فى رعاية وعناية ، وأفاد من تربيته ، اذ كان قد حصل قـدرا كبيرا من المعرفة العامة ، وكان على ميل الى الفن ، كما كان يفخر بأنه أنمى بنفسه مداركه وعقله ، وكان مسلكه فاترا ، فيلسوفيا ، على نسق الهولنـديين .. وكانت بشرته السمراء ، وخلقـه الصامت المتحفظ تؤيد هذه الفكرة كل التأييد . وكان أصم ، ومصابا بالنقرس ، بالرغم من انه كان شابا . وقد جعل هذا حركاته جد متزنة ، ومفرطة فى التثاقل . ومع انه كان يحب النقاش ــ ويطيله فى بعض الأحيان ــ الا انه كان قليل الكلام ، بوجه عام ، لأنه لم يكن يسمع !

ولقد غرنى كل هذا المظهر ، فقلت لنفسى : « ها هوذا رجل مفكر ، عاقل ، من الصنف الذى يسعد المرء بصـداقته » . ومما زادنى اغترارا فيه ، انه كان كثيرا ما يوجه الى الحديث ، دون أى اطراء . وكان قليل الحـديث عنى وعن كتبى ، وأقل من ذلك عن نفسـه . ولم يكن خـلوا من الآراء ، بل كان كل ما يقوله منها صحيحا الى درجة كبيرة . وقد اجتذبتنى اليه

هذه الدقة ، وهذا الصواب . ولم يؤت عقله شيئا من السمو ولا من الارهاف اللذين أوتيهما السيد المارشال ، ولكنه أوتى البساطة .. فكانت تتمثل دائما فى كل شىء .

ولم اشغف به ، ولكننى انجذبت اليه بشعور من التقدير ، وقد افضى هذا التقدير — تدريجا — الى الصداقة . ولقد نسيت تماما — فى صداقتى معه — الاعتراض الذى كنت أبديته ازاء صداقتى مع البارون دولباخ ، وذلك انه كان واسع الثراء .. واعتقد اننى كنت فى ذلك على خطأ . فلقد تعلمت أن أرتاب فى أن أى رجل أوتى ثروة طائلة ، يستطيع أن يحب مبادئى باخلاص ، وأن يحب صاحبها !

ولقد ظللت فترة طويلة ، لم أكن أرى « دو بييرو » فيهما الا لماما ، اذ أننى نادرا ما كنت اذهب الى (نيوشاتيل) ، كما انه لم يكن يزور الكولونيل « بورى » — فى بيته الجبلى — الا مرة فى العام . فلماذا لم اكن أذهب الى نيوشاتيل ؟ .. لسبب صبيانى ، لا أرى أن أغفله

ذلك اننى وان كنت — فى حماية ملك بروسيا والسيد اللورد — قد نجوت ، فى البداية ، من الاضطهاد فى البلد الذى لذت به ، الا أننى لم أنج قط من تمتمات الجمهور ، ومستشارى البلدية ، والقساوسة . وبعد المثل الذى ضربته فرنسا ، لم يكن من المستحسن أن لا توجه الى بعض الاهانات ، على الأقل . فلقد خشى القوم ان يظهروا بمظهر غير المحبذين لمضطهدى ، اذا هم لم يقلدوهم . وكانت الطبقة الممتازة فى (نيوشاتيل) — واعنى جماعة القساوسة فى تلك المدينة — هى البادئة ، اذ حاولت أن تؤلب مجلس الدولة ضدى . فلما لم يقدر لهذه المحاولة النجاح ، اتجه القساوسة الى اعضاء المجلس البلدى ، الذين بادروا بتحريم كتبى ، وراحوا فى كل مناسبة يعاملوننى فى ازورار ، ليوحوا الى — بالقول وليس بالاشارة فحسب — بأننى اذا كنت أبغى الاستقرار فى مدينتهم ، فانهم لن يطيقوا مقامى .

وملأوا أعمدة صحيفتهم « ميركور » بالسفاسف المضحكة ، والانتقادات السطحية ، التى اضحكت ذوى الادراك ، ولكنها لم تخفق فى اثارة الجمهور وتحفيزه ضدى .

وما كان سماعى بكل هذا ليمنعنى من أن أكون جد شاكر لهم فضلهم البالغ ، اذ سمحوا لى بأن أقيم فى (موتيير) ،حيث لم يكن لهم أى سلطان .. فقد كانوا خليقين بأن يقيسوا الهواء بالشبر ، ليتقاضونى – فى مقابله – ثمنا باهظا ! فلقد كانوا تواقين الى أن يشعرونى بأننى أسير فضل كبير لهم ، من جراء الحماية التى أضفاها الملك على بالرغم منهم ، والتى كانوا دائبين على العمل لحرمانى منها ، واذ تبينوا – اخيرا – انهم لن يوفقوا فى ذلك ، وبعد أن ألحقوا بى كل ما كان بوسعهم من ايذاء ، وأساءوا الى بكل مافى طاقتهم ، فقد جعلوا من قحتهم فضيلة ، بأن راحوا يمنون على بفضلهم اذ تحملوا بقائى فى بلادهم . وكان الجواب الوحيد الذى يخلق بى أن أوجهه اليهم هو .. أن أضحك منهم ساخرا . ولكننى – بدلا من ذلك – كنت من الغباء بدرجة اننى غضبت ، وكنت من الحماقة بدرجة ان عقدت العزم على الا اذهب الى (نيوشاتيل) .. وهو عزم تشبثت به عامين تقريبا ، وكأننى لم أكن أبدى لمثل هؤلاء المخلوقات كثيرا من الاكبار ، بما كنت أبديه من احتفال بمسلكهم الذى ما كانوا ليعتبروا مسؤلين عنه – سواء كان طيبا او خبيثا – لأنهم ما كانوا ليتصرفوا قط ، دون تحريض ! .. والى جانب ذلك ، فان العقول الخالية من الثقافة والنور ، لاتعرف هدفا تقدره سوى الصيت ، والنفوذ ، والمال .. وهى بعيدة كل البعد عن أن تحدس ان المواهب جديرة بشىء من الاحترام ، وأن فى اهانتها عارا يحط من أقدارهم !

ولقد قال مرة احد عمداء القرى – وكان قد أوقف عن عمله لسوء تصرفاته – لرئيس بوليس (فال – دى – ترافير) ، الذي كان زوجا لصديقتي ايزابيل : « يقال ان هذا الـ « روسو »

رجل واسع العقل ، فهاته لى ، كى أتبين مدى صدق هذا !». ومن المؤكد ان عدم رضاء رجل يتحدث بهذه اللهجة، لا يستحق ان يضايق اولئك الذين يريد ان يفحصهم ويختبرهم !

* * *

• **وعلى** ضوء الطريقة التى عوملت بها فى باريس، وجنيف، وبيرن ، ونيوشاتيل ذاتها ، لم أتوقع كثيرا من الاعتبار ، من الراعى الدينى للمنطقة . ومع ذلك فان السيدة «بوى ديلاتور» كانت قد أوصته بى خيرا ، وكان قد استقبلنى فى حفاوة بالغة. ولكن المجاملات لم تكن تعنى شيئا ، فى هذا البلد الذى كان النفاق يسوده . على اننى بعد عودتى الصادقة الى الكنيسة البروتستانتية ، واقامتى فى بلاد بروتستانتية ، لم أعد املك اهمال ابداء ايمانى للملأ بالدين الذى عدت اليه ، والا كنت ناكثا بعهودى ، مغفلا واجباتى كمواطن . ولهذا أخذت أحضر الطقوس الدينية . **ولكنى من ناحية أخرى ، كنت أخشى ان يؤدى حضورى المأدبة الربانية ، الى أن أتعرض للاهانة بأن يرفض القس السماح لى بتناول القربان . فما كان من المحتمل اطلاقا ـ بعد الضجة التى أقامها المجلس ضدى فى جنيف ، وتلك التى اثارها رجال الدين فى نيوشاتيل ـ ان يقوم القس بطقوس المناولة لى ، فى هدوء ، فى كنيسته .** ولما كان موعد المناولة يقترب ، فقد قررت أن أكتب الى السيد « دى مونمولان » ـ وهذا أسم القس ـ معربا عن حسن نواياى ، ومعلنا اليه اننى كنت مرتبطا بقلبى بالكنيسة البروتستانتية دائما. وقلت له فى الوقت ذاته ـ تفاديا لكل خلاف على نصوص العقيدة ـ اننى لم أكن راغبا فى أى شرح خاص لأسس العقيدة. واذ أوضحت موقفى ـ بهذا الشكل ـ لزمت الهدوء ، والشك لا يخامرنى فى أن السيد دى مونمولان لن يأبى ان يعفينى من المناقشات الأولية ـ التى تسبق المناولة عادة ، والتى كنت

مصرا على ان لا أخوضها اطلاقا ــ وان المسالة ستسوى على هذا الوضع ، دون مالوم ينصب على .

ولكن شيئا من هذا لم يحدث ! . ففى اللحظة التى لم أكن أتوقع فيها هذه المفاجأة ، اذا بالسيد دى مونمولان يقبل .. لا لينبئنى بأنه كان راضيا عن مناولتى القربان ــ بالشرط الذى ذكرته ــ فحسب ، وانما ليخبرنى فوق هذا ، بأنه وشيوخ الكنيسة يرون ان فى وجودى عضوا بين رعاياهم شرفا لهم !.. أبدا لم افاجأ فى حياتى كما فوجئت بذلك ، وأبدا لم أجد فى شىء ما وجدت فى هذا النبأ من عزاء

كان اضطرارى الى العيش فى عزلة على الدوام ، يبدو لى مصيرا جد كئيب ، لا سيما فى اوقات المحنة . ففى وسط كل هذه الأحكام التى كنت أدمغ بها ــ دون ما انصاف ــ وكل هذه الاضطهادات ، كنت أجد ترفيها بالغا فى أن أستطيع أن أقول لنفسى : « ها أنذا بين أخوة ، على الأقل ! » . ومن ثم فقد ذهبت للتناول بقلب يفيض بالانفعالات ، وبدموع منبعثة من عواطف رقيقة ، لعلها كانت خير عدة يقبلها الله ، ويستطيع امرؤ أن يحملها الى المائدة الربانية !

وأرسل لى السيد اللورد ــ بعد ذلك بزمن ــ رسالة من



السيدة دى بوفلير، جاءت ـ كما خيل الى ـ عن طريق دالمبير، الذى كان يعرف السيد المارشال . وكانت هذه هى الرسالة الأولى التى كتبتها الى هذه السيدة ، منذ رحيلى عن (مونمورنسى) ، وقد لامتنى فيها ـ أشد اللوم ـ على أننى كتبت الى السيد دى مونمولان ، وعلى اننى تناولت القربان ، بوجه خاص . ولم أكد أفهم داعيا للومها هذا ، اذ اننى ـ منذ رحلتى الأولى الىجنيف ـ كنت أعلن جهارا اننى بروتستانتى، وقد ترددت علانية على كاتدرائية هولندا ، فلم ير أحد فى هذا أى سوء . وبدا لى من المضحك ان ترغب السيدة الكونتة دى بوفلير فى أن تقحم نفسها فى توجيه ضميرى، فى الناحية الدينية. على أننى كنت لا ارتاب فى أن نواياها ـ لا سيما هذه التى لم أستطع أن أفهمها ـ هى خير النوايا ، ومن ثم فاننى لم استأ من هذا العتاب العجيب ، بل أجبت فى غير غضب ، وأوضحت لها الأسباب

وفى تلك الأثناء ، كانت الاساءات المطبوعة مستمرة كشأنها من قبل ، وكان مؤلفوها ((الكرام !)) يؤنبون السلطات لأنهـا تعاملنى فى لين فوق ما ينبغى . ولقد كان هذا النباح ـ الذى ظل قادته يعملون فى الخفاء ـ نذير شؤم وفزع . على اننى ـ من ناحيتى ـ تركتهم يقولون ما شاءوا ، دون أن أتأثر . ولقد أكد لى البعض ان ثمة قرارا بلومى على كتبى ، قد صدر عن ((السوربون)) ، فأبيت أن أصدق ذلك (١). اذ كيف للسوربون ان يتدخل فى هذه المسالة ؟ فهل أريد بذلك تأكيد أننى لم أكن كاثوليكيا ؟ لقد كان كل امرىء يعرف هذا بالفعل ! . . أم أريد به اثبات اننى لم أكن من اتباع « كالفن » الصالحين (٢) ؟ فأى

---

(١) كان « السوربون » معهدا لعلوم اللاهوت ، فى ذلك الحين

(٢) جون كالفن مصلح دينى سويسرى ، قام يبشر باصـلاح الكنيسة منذ سنة ١٥٣٣ . ويسمى المذهب الذى قام على تعاليمه بالمذهب البريسبيتيرى » وهو قريب من المذهب البروتستانتى

شأن للسوربون فى هذا ؟ .. كان معنى هذا ان « السوربون » أخذ على عاتقه مهمة فذة ، وأناب نفسه عن قساوستنا . وأيقنت ـ قبل أن أرى الوثيقة ـ انها كانت تروج باسم «السوربون» ، للسخرية منه ،وقد ازددت اقتناعا بذلك عندما قرأتها .

وعندما عجزت عن ان اشك فى صحة صدورها عن «السوربون» ـ فى النهاية ـ لم يبق لى ما أفكر فيه سوى انه كان من الواجب تحويل « السوربون » الى مصح للأمراض العقلية !

سنة ١٧٦٣

• **وهناك** وثيقة أخرى أثرت فى نفسى فوق تأثير هذه ، لأنها صدرت عن رجل كنت أقدره ـ على الداوم ـ وكنت أعجب بجلده وأنا أرثى لضياع بصره . وأقصد بهذا القول الرسالة الأسقفية التى كتبها كبير أساقفة باريس ضدى . ولقد خيل الى ان ليس ثمة داع لأن أرد عليها . وكان بوسعى أن أفعل، دون ان أنزل من قدر نفسى . فقد كانت مسالة قريبة الشبه من مسألة ملك بولندا (١) . **وما كنت يوما مولعا بالمشاحنات الوحشية ، «على طريقة فولتير» ! .. فلست أجيد سوى النزال الذى يحفظ للمرء كرامته ، ولا بد لى ـ قبل أن أتنازل بالدفاع عن نفسى ـ من أن استوثق من ان الذى يهاجمنى لن يشوه ضرباتى !**

ولم يداخلنى شك فى ان هذه الرسالة الأسقفية كانت من عمل « الجيزويت » ، ومع أنهم كانوا اذ ذاك منكوبين ، الا اننى رأيت فى هذا العمل مصداقا لمبدأهم القديم .. مبدأ سحق المنكودين ! ومن ثم فقد كان بوسعى أن أتبع ـ أنا الآخر ـ مبدأى القديم ، مبدأ تكريم المؤلف وسحق الكتاب . وهذا ما

---

(٢) ارجع الى صفحة ١٤٤ من الجزء الثالث

أعتقد أننى وفقت فى أدائه .

ولقد وجدت اقامتى فى (موتيير) جد مستحبة ، فلم يكن يعوزنى سوى الحاجة الى مورد ثابت للعيش ، كى أقرر قضاء آخر أيام عمرى هناك . بيد ان الحياة كانت باهظة التكاليف ، وكانت كل مشروعاتى القديمة قد انقلبت رأسا على عقب ، بسبب نزوحى عن مكان اقامتى القديم ، والعمل على انشاء مقر جديد لى ، وبسبب بيع أمتعتى أو تبديدها ، وبسبب النفقات التى كنت مضطرا الى تكبدها منذ رحيلى عن (مونمورسى) . **ورحت أرى رأس مالى الصغير يتضاءل يوما بعد يوم ، حتى بات فى وسع عامين أخريين أو ثلاثة ، ان تأتى على ما تبقى منه ، دون ان أرى موردا آخر لتعويضه ، اللهم الا اذا شرعت فى تأليف الكتب من جديد .. وممارسة المهنة المشئومة التى كنت قد نبذتها !**

* * *

• **واذ** كنت مؤمنا بأن الأمور لن تلبث ان تتطور عما قريب ، وأن الرأى العام لن يلبث ان يثوب من تهوسه ، وأن يحمل السلطات على ان تخجل من تصرفها ، فكان همى الأوحد ، هو أن أجعل مواردى تستمر حتى يحدث هذا الانقلاب السعيد ، الذى سيتيح لى وضعا ، أكون أكثر مقدرة فيه على أن أختار موردا من الموارد التى تعرض لى . وفى سبيل ذلك ، عدت الى استئناف موسوعتى الموسيقية التى كنت ـ بعد جهد استغرق عشر سنوات ـ قد قطعت شوطا بعيدا فيها ، فلم يعد ينقصها سوى المراجعة الأخيرة ، وان تنسخ نسخا نظيفا . ولقد وفرت لى كتبى ـ التى كانت قد أرسلت الى منذ وقت قصير ـ وسائل اتمام هذا المؤلف .. **كما أن أوراقى ـ التى أرسلت الى فى الوقت ذاته ـ مكنتنى من البدء فى مشروع مذكراتى ، التى اعتزمت أن أجعلها شاغلى الوحيد ، من ذلك الحين . وقد**

شرعت فى نسخ الرسائل فى مجموعة تهدى ذاكرتى الى نظام الوقائع والتواريخ . وكنت قد اخترت تلك الرسائل التى رأيت أن أعدها لهذا الغرض ، وقد نسقت فى تتابع لم ينقطع زهاء عشر سنوات تقريبا . غير اننى تبينت ـ وانا أراجعها لأنسخها ـ ثغرة خلالها ادهشتنى . وكانت هذه الثغرة تشمل ستة اشهر ، من اكتوبر سنة ١٧٥٦ الى مارس التالى !

وكنت أذكر تمام التذكر اننى ضمنت مجموعتى عددا من الرسائل التى تلقيتها من ديدرو ، ودى ديلير ، والسيدة دبيناى ، والسيدة دى شينونسو وغيرهم ، والتى كانت تملأ هذه الثغرة ، ولم يعد لها وجود . **فما الذى جرى لها ؟ .. هل عبثت يد بأوراقى اثناء بضعة الأشهر التى مكثتها فى قصر لوكسمبورج ؟** .. كان هذا الأمر بعيدا عن المعقول ، اذ أننى رأيت السيد المارشال يأخذ بنفسه مفتاح الغرفة التى أودعت فيها هذه الأوراق . ولما كان كثير من رسائل السيدات ، وكل رسائل ديدرو ، لا تحمل تاريخا ، وكنت قد اضطررت الى ترتيب تواريخها اعتمادا على الذاكرة ، وكنت كمن يتلمس طريقه فى الظلام لتنسيق ترتيبها ، فقد ظننت ـ فى بادىء الأمر ـ اننى ربما كنت قد أخطأت حدس التواريخ .. ورحت أراجع كل الخطابات التى لم تكن تحمل تواريخ ، أو التى كنت قد سجلت عليها التواريخ بنفسى ، لأتبين ما اذا لم يكن بوسعى العثور على تلك التى كانت لازمة لملء الثغرة

ولم تفلح هذه المحاولة ، فتبينت ان الفراغ كان قائما حقا ، وان الخطابات كانت قد رفعت من مكانها يقينا . فمن الذى رفعها ، ولماذا ؟ هذا ما لم أستطع ادراكه ! .. كانت هذه الرسائل سابقة على مشاحناتى الكبرى ، وتمت الى فترة نشوتى الأولى ب « جولى » . ومن ثم فانها لم تكن ذات أهمية لأحد . كانت تضم ـ فى الغالب ـ بعض مشاكسات من ديدرو ، وبعض سخريات من ديلير ، وبعض تأكيدات للود من السيدة دى

شينونسو ، بل ومن السيدة ديبيناى التى كنت معها اذ ذاك على خير وئام . **فمن الذى تهمه هذه الخطابات ؟ .. وماذا يراد بها ؟ .. ولكنى لم أحدس الغرض البشع من هذه السرقة الا بعد سبع سنوات !**

وحملنى تأكدى من هذا النقص ، على أن أفحص مسوداتى لأتبين ماإذا كان ثمة نقص آخر ، فوجدت عددا منها مفقودا ، ونظرا لقصور ذاكرتى ، جعلنى هذا افترض ضياع أوراق أخرى من أكداس أوراقى . وكانت المسودات التى لاحظت غيابها ، هى تلك المتعلقة بكتاب « المبادىء الخلقية الحسية » ، والفقرات المستخلصة من «مغامرات اللورد ادوارد» . واعترف ان غياب هذه الأخيرة ، أوحى الى بالشك فى السيدة دى لوكسمبورج . فلقد كان وصيفها الخاص « لاروش » ، هو الذى نقل أوراقى ، وما كنت لأتصور سواها ـ دون الناس أجمعين ـ من يهتم بمثل هذه القطعة . ولكن ، أى اهتمام كان يدفعها الى أخذ الثانية والى أخذ الرسائل الغائبة ، التى ماكان بوسع امرىء ان يفيد منها فى مضايقتى ـ مهما تكن نواياه خبيثة ـ اللهم الا اذا زيفها ؟ .. اما السيد المارشال ، الذى عهدت فيه استقامة لا تتذبذب ، وصدقا فى وده لى ، فاننى لم أملك أن أرتاب فيه لحظة واحدة . بل اننى لم أملك أن أثبت هذا الشك على السيدة المارشالة !

وكان اكثر الافتراضات التى خطرت لى ، تمشيا مع المعقول ـ بعد أن أضنيت نفسى وقتا طويلا فى البحث عن مرتكب هذه السرقة ـ هو أن ألقى الوزر على دالمبير ، الذى كان قد وفق الى اكتساب مكانة لدى السيدة دى لوكسمبورج ، فكان من المحتمل أن يكون قد وفق الى وسيلة للنبش فى اوراقى ، والاستيلاء على مااستطاع الاستيلاء عليه ، سواء من المخطوطات أو من الرسائل ، وسواء جريا منه وراء اثارة بعض الفتن ، او لكى ينسب الى نفسه ما قد يراه نافعا منها . وافترضت أن

يكون قد أساء فهم عنوان «المبادىء الخلقية الحسية» ،فخيل اليه انه قد عثر على مشروع رسالة حقيقية عن « المادية » ، يستطيع أن يستغلها ضدى بالقدر الذى صوره له خياله . واذ كنت واثقا من انه لن يلبث أن يتبين الحقيقة عندما يفحص المسودة ، كما كنت قد عقدت العزم على أن أهجر الأدب نهائيا، فاننى لم أهتم كثيرا بهذه السرقات ، التى لم تكن أول ما ارتكبته تلك اليد ذاتها ،والتى احتملتها دون ماشكوى . **فلقد وجدت فى كتاب دالمبير «مبادىء الموسيقى» كثيرا من الأشياء المأخوذة عما كنت قد كتبته فى هذا الفن لدائرة المعارف ، والتى كانت قد أرسلت اليه قبل طبع كتابه بسنوات عديدة .وانى لأجهل ما قد يكون له من نصيب فى كتاب بعنوان « موسوعة الفنون الجميلة » ، ولكنى وجدت فيه مقالات منقولة بالكلمة من مقالاتى .. قبل ان تنشر هذه فى دائرة المعارف !**

وسرعان ما كففت عن التفكير فى هذه الخيانة ، وكأنما لم يرتكب ضدى قط عمل كهذا ، وشرعت أنسق المواد التى تبقت لى ، لكى أتوفر على « اعترافاتى »

* * *

• **وكنت** قد ظللت طويلا اعتقد ان جماعة القساوسة فى جنيف ، أو أن المدنيين وسكان المدن ـ على الأقل ـ، لن يلبثوا أن يحتجوا على انتهاك القانون ، فى المرسوم الذى كان قد اصدر ضدى ، بيد أن كل شىء ظل ساكنا .. فى الظاهر على الأقل ، اذ أنه كان ثمة تذمر عام ، لم يكن ينتظر سوى مناسبة يعلن فيها عن وجوده . وكان أصدقائى ـ أو من يسمون أنفسهم كذلك ـ قد كتبوا لى الرسائل تلو الرسائل ،يستحثوننى على أن أذهب فأضع نفسى على رأسهم ، مؤكدين لى ان المجلس لن يلبث أن يصدر اعتذارا علنيا ، اذ ذاك . على ان الخوف من القلاقل والاضطرابات ، التى قد يثيرها وجودى ، منعنى

من قبول الحاحهم . وفى وفائى للعهد الذى كنت قد أخذته على نفسى فى الماضى ، بأن لا أقحم نفسى فى اى شقاق أهلى فى بلادى ، آثرت أن يبقى انتهاك العدالة قائما على حاله ، وأن أحرم وطنى على نفسى الى الأبد ، على ان ألجه بوسائل عنيفة وخطرة . **ومن الصحيح اننى كنت أرتقب من أبناء المدن مظاهرات سلمية وقانونية ضد المخالفة التى كانت تهمهم الى أقصى حد ، الا أن شيئا من هذا لم يحدث . فان اولئك الذين كانوا يقودونهم ، لم يكونوا يسعون الى علاج الأخطاء والمساوىء، بقدر ما كانوا ينشدون فرصة ليجعلوا من أنفسهم قادة لا غنى عنهم . وكانوا يسعون بالتحريض ، ولكنهم لزموا الصمت ، وأطلقوا الزمام للشائعات والأكاذيب التى كان المجلس يروجها ليشوه من سمعتى أمام الأهالى ، وليعزو اساءاته الى الحماس الدينى !**

وبعد ان انتظرت — دون جدوى — لأكثر من عام ، على أمل أن يحتج أحد على الاجراء غير القانونى ، قر رأيى — فى النهاية — على قراره واذ وجدت نفسى مهجورا من مواطنى ، صممت على أن أنبذ وطنى الجاحد ، الذى لم أقم فيه قط ، والذى لم أتلق منه خيرا ولا عونا ، والذى جازانى على الشرف الذى سعيت لاضفائه عليه ، بأن وافق بالاجماع على معاملة مهينة . واذ لم ينبس بكلمة أولئك الذين كان ينبغى عليهم ان يتكلموا ، كتبت الى السنديك الأول (١) لذلك العام — وكان السيد فافر ، على ما أظن — رسالة نزلت فيها بشمم عن حقى فى أن أكون مواطنا ،وراعيت فيها — الى جانب ذلك — الأدب والاعتدال اللذين كنت احرص عليهما فى التصرفات المتعلقة بكرامتى،والتى كثيرا ما كانت قسوة أعدائى تدفعنى اليها فى اويقات محنتى.

---

(١) رئيس المجلس الذي كان يتول ادارة شئون جمهورية (جنيف)

وفتحت هذه الخطوة أعين المواطنين ، فأحسوا بأنهم قد أذنبوا ازاء مصلحتهم الحقيقية اذ تخلوا عن الدفاع عنى ، فهبوا لذلك بعد فوات الأوان . وكانت لهم مظالم أخرى ضموها الى هذه ، وجعلوا منها مادة لشكايات عديدة ، جد معقولة ، راحوا يوسعون نطاقها ويعززونها ، نتيجة للرفض الجاف المثبط الذى أخذ المجلس يقابلها بها ، وهو مستند الى تأييد الوزير الفرنسى ، مما جعل المواطنين يزدادون شعورا بالخطة التى كانت موضوعة لاستعبادهم . ولقد دعت هذه الخلافات الى اصدار منشورات عديدة ، لم تبت بشىء ، الى ان ظهر فجأة « رسائل كتبت من الريف » ، وهو مؤلف وضع لتأييد المجلس بدهاء لا حد له ، وقد أفحم الفريق المتذمر وهزمه فترة من الزمن . وهذا الكتاب أثر باق على ما أوتى مؤلفه من مواهب نادرة ، وهو من انتاج المدعى العام ترونشان (١) ، وقد كان رجلا ذكيا ، متنورا ، متبحرا فى القوانين وفى نظم الحكم الجمهورى .

سنة ١٧٦٤

• وأفاق المتذمرون من هزيمتهم الأولى ، فتولوا الرد ، وخرجوا من مأزقهم على خير حال . ولكن الجميع راحوا يوجهون انظارهم نحوى ، وكأننى الوحيد الذى كان يقوى على مقارعة خصم كهذا بأمل التغلب عليه . واعترف اننى كنت أرى الرأى ذاته ، فلما أخذ مواطنى القدامى يستحثوننى ويبينون أن من واجبى أن أساعدهم بقلمى فى مأزق كنت أنا سببه . **فعكفت على دحض « رسائل من الريف » ، وقلبت العنوان الى « رسائل من الجبل » ، وهو الذى اتخذته اردى .** وقد فكرت فى هذا المشروع ونفذته فى تكتم شديد ، حتى اننى

---

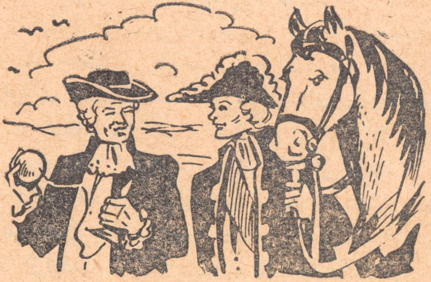
(١) جان روبير ترونشان ، وهو غير « ثيو دور ترونشان » ، الطبيب المشهور الذى ورد ذكره فى الكراستين الثامنة والعاشرة . وكانا ابنى عمومة

ـ فى اجتماع مع رؤساء المتذمرين فى (تانون) ، لنتشاور فى أمورهم ، وليطلعونى على مشروع ردهم ـ لم أشر بكلمة الى ردى الذى كان قد اكتمل ، خشية ان لا يتغلبوا على بعض العقبات فى سبيل طباعته ، لو ان اعضاء المجلس او اعدائى الشخصيين سمعوا اتفه همسة عنه . ومع ذلك فاننى لم أستطع أن احول دون أن يذيع أمر هذا المؤلف فى فرنسا قبل نشره ، على انه رؤى تركه يظهر ، بدلا من اطلاعى بجلاء على الوسيلة التى اكتشف بها سرى . ولسوف أبين ـ فيما بعد ـ ماعلمته ، وان لم يكن بالكثير . ولن أذكر شيئا عن هواجسى وتخميناتى .

كان الزائرون يتوافدون على دارى فى (موتيير) ، بعين كثرتهم فى (ليرميتاج) و (مونمورنسى) تقريبا . ولكنهم كانوا ـ فى الغالب ـ من نوع آخر . فقد كان الساعون الى لقائى ـ قبل ذلك الحين ـ من اولئك الذين تربطهم بى روابط المواهب ، والميول ، والمبادىء . فكانت هذه مبررات لزياراتهم ، وكانوا يطلعوننى على موضوعات أستطيع أن أناقشها معهم ، قبل نشرها . ولكن هذه لم تكن الحال فى (موتيير) ، لا سيما فى الجانب الفرنسى . فقد كان زائرى من الضباط او الموظفين أو سواهم ممن لم يؤتوا أى ميل للأدب ، وممن لم يقرأ معظمهم مؤلفاتى .. **ومع ذلك ، فانهم كانوا ـ على قولهم ـ يقطعون ثلاثين أو أربعين أو ستين أو مائة فرسخ ليزوروني ، وليرضوا اعجابهم برجل لامع ، شهير ، شهير جدا ، بل الرجل العظيم ، الخ . ذلك لأن الناس لم يكونوا قد كفوا ـ اذ ذاك ـ عن ان يقذفونى فى وجهى بأغلظ ألفاظ الملق وأوقحها ، فلم يكن يحمينى منها ـ منذ ذلك الحين ـ سوى تقدير أولئك الذين كانوا يفدون لزيارتى .** ولم أكن أدرى فيم اتحدث الى هؤلاء ، اذ كان أغلبهم لا يتفضلون بذكر اسمائهم ، ولا يطلعوننى على مراكزهم ، وكانت معرفتهم ومعرفتى لاتتسقان حول محور مشترك .. وكنت اصمت مرتقبا أن يفتحوا هم الحديث ، اذ كان عليهم ان يذكروا

لى سبب زيارتهم ، لأنهم كانوا أدرى به منى . ومن السهل ادراك أن هذا المسلك لم يكن يؤدى الى حديث مشوق لى بوجه خاص ، وان كان من المحتمل انه مشوق لهم ، تبعا لما جاءوا ينشدون معرفته . اذ اننى لبعدى عن أن أرتاب فى شىء ، كنت أسهب فى الحديث ــ دون تحفظ ــ فى كل ما كانوا يرون من اللائق طرحه على من موضوعات . وكانوا يخرجون من هذا ــ فى العادة ــ وهم لا يقلون عنى الماما بكل تفصيلات موقفى .

ومن امثلة هذا الصنف ، السيد دى «فيان» ، حامل سلاح الملكة ، وقائد الفرسان فى لواء الملكة ، الذى دأب على أن يقضى عدة ايام فى (موتيير) وكان يرافقنى فى نزهاتى على القدمين ،



حتى (لافيرير) ، وهو يقود فرسه ممسكا بعنانه ، دون ان يكون ثمة ما يجمعنا ، اللهم الا ان كلينا كان يعرف الآنسة فيل (١) ، وكنا نتبادل لعبة الكرة والكوب . ولقد حظيت ــ قبل السيد دى فيان وبعده ــ بزيارة أخرى ، أكثر غرابة . اذ وصل رجلان يسيران على أقدامهما ، وقد راح كل منهما يقود بغلا محملا بمتاعه القليل ، فهبطا فى نزل البلدة ، وبعد

---

(١) الآنسة « فيل » كانت ممثلة فى « الاوبرا » الفرنسية ، ورد ذكرها في مواقع متفرقة من الاجزاء السابقة

أن نظفا بغليهما بنفسهما ، طلبا زيارتي . وكان مظهر راكبي البغلين هذين ، يوحي بأنهما من مهربي السلع عبر الحدود ، فسرعان ماذاع النبأ بأن المهربين يفدون لزيارتي . بيد ان الطريقة التي خاطباني بها ، أشعرتني بأنهما من صنف آخر . على انهما اذا لم يكونا مهربين ، فقد كان من المحتمل أن يكونا من طلاب المغامرة ، مما جعلني على حذر منهما فترة . ولم يطل بي القلق ، فاذا أحدهما السيد « مونتوبان » ، الذي كان يعرف بالكونت ديلاتور — دو — بان ، والذي كان من سادة (دوفينيه) . أما الآخر ، فكان السيد « داستييه » ، وهو جندي قديم من (كاربنترا) ، دس وسام « صليب القديس لوي » في جيبه ، عزوفا عن المظهر . ولقد كان هذان السيدان اللطيفان ، رقيقين واسعي العقل ، فكان حديثهما ممتعا ومشوقا . وقد جعلتني طريقتهما في الأسفار — وكانت تروق لي كثيرا ، وان لم تتناسب مع طرق السادة الفرنسيين — أشعر بميل نحوهما ، ما كانت الخلطة لتزيده الا توثقا . ولم ينته تعارفنا عند هذا الحد ، بل انه لايزال قائما ، وقد زاراني مرارا — منذ ذلك الحين — ولكنهما لم يعودا يأتيان على الأقدام ، فقد كانت هذه الطريقة صالحة لزيارة التعارف الاولى فحسب .
على انني كلما ازددت تلاقيا بهما ، قل ما ألقاه من تجاوب بين ميولهما وميولي ، وقل شعوري بأن مبادئهما هي مبادئي وبأنهما على دراية بمؤلفاتي وبأن كلا منا يكن الآخر ميلا حقيقيا ! فماذا كانا يبغيان مني ، اذن ؟ ولماذا جاءا لزيارتي بهذا الشكل والمظهر ؟ ولماذا بقيا عدة أيام ؟ ولماذا تكررت زياراتهما عدة مرات ؟ ولماذا كانا شديدي الرغبة في أن استضيفهما ؟ .. لم يخطر ببالي اذ ذاك ، أن أوجه هذه الأسئلة الى نفسي ، ولكني وجهتها بضع مرات ، منذ ذاك الحين !

وازاء تقربهما ومجاملاتهما الودية ، مال قلبي — دون روية — اليهما ، لا سيما الى السيد داستييه ، الذي سرني منه ان كانت

اخلاقه صريحة ،وواضحة .. حتى لقد واصلت تبادل الرسائل معه ، وعندما أردت أن أنشر كتابى « رسائل من الجبل » ، فكرت فى أن أرسل المخطوط باسمه ، لأموه على اولئك الذين كانوا يتربصون للكتاب وهو فى طريقه الى هولندا . وكان قد حدثنى كثيرا — وربما عن قصد — عن حرية النشر فى (أفنيون)، وعرض على خدماته اذا شئت ان اطبع شيئا هناك . فتقبلت هذا العرض ، وارسلت اليه الاوراق الاولى تباعا بالبريد . وبعد أن استبقاها فترة ليست بالقصيرة ،ردها ثانية ، وأنبأنى — فى الوقت ذاته — بأن أحدا من الناشرين لم يجد من نفسه جرأة على أن يتكفل بطبعه .. واضطررت الى أن أعود الى «ريى» ، متخذا الحذر ، بحيث أننى كنت أرسل أوراقى واحدة بعد أخرى ، على ان لا أرسل واحدة ، حتى أتسلم ما ينبىء بوصول سابقتها .

وقبل ان يطبع الكتاب،علمت انه روجع فى دوائر القساوسة، وحدثنى « ديشيرنى » — من نيوشاتيل — عن كتاب اسمه « رجل من الجبل » ، قال له دولباخ اننى كاتبه . فأكدت له اننى لم أكتب قط كتابا بهذا العنوان ، وكنت فى ذلك صادقا. لذلك فانه اهتاج عندما ظهرت الرسائل ، واتهمنى بالغش ، بالرغم من اننى انبأته بمجرد الحقيقة . وهكذا اقتنعت بأن المخطوط كان معروفا . ولما كنت موقنا من أمانة « ريى » فقد اضطررت الى أن أنقل شكوكى الى اتجاه آخر ، وكان أقرب التخمين الى المنطق ، بل كان الحدس الذى فضلته على سواه ، هو ان رسائلى كانت تفتح اثناء ذهابها بالبريد !

★ ★ ★

• **وممن** تعرفت بهم — حوالى هذه الفترة بالذات — ولكن تعارفنا اقتصر فى البداية على تبادل الرسائل ، السيد «لالياود»، من أبناء (نيم) . فقد كتب الي من (باريس) يسألني أن أرسل

له صورة جانبية لوجهي لأنه ـ كما قال ـ كان بحاجة اليها في نحت تمثال نصفي من المرمر لي ، كان قد عهد الى « لوموان » بعمله ، رغبة منه في أن يقيمه في مكتبته الخاصة . واذا كانت هذه حيلة ابتكرت لاستمالتي ، فالحق انها افلحت تماما . فلقد خلت ان رجلا يرغب في اقامة تمثال لي في مكتبته ، لا بد أن يكون مليء الرأس بمؤلفاتي ، وبالتالي بمبادئي ، وانه لا بد يحبني ، لأن روحه كانت على شاكلة روحي . وكانت هذه الفكرة خليقة بأن تستهويني . **ولقد رأيت السيد لالياود بعد ذلك ، فوجدته تواقا الى ان يؤدي الى بعض الخدمات الطفيفة، لكي يوغل في التدخل في شئوني البسيطة ! .. وفيما عدا ذلك ، أظن كتابا واحدا من مؤلفاتي كان بين الكتب القليلة التي قرأها في حياته . واني لأجهل ، اذا كانت لديه مكتبة ، وما اذا كانت هذه المكتبة مجرد أثاث يحلو له أن يستخدمه !..**
أما التمثال النصفي ، فقد اقتصر على شكل مشوه من الطين، صنعه « لموان » ، وحفر عليه قسمات بشعة ، حملت رغم ذلك أسمي ، وكأنما فيها شيء من الشبه بي !

وكان الفرنسي الوحيد ، الذي بدا انه جاء يزورني عن ميل الى مشاعري وكتاباتي ، ضابطا شابا من كتيبة (ليمزان) يدعى « سيجوييه دي سان ـ بريسون » ، كان ـ ولا يزال ـ من المتوقع أن يتألق نجمه في (باريس) والعالم ، بفضل ما اوتي من مواهب مستحبة ، وما كان يبديه من جمال الفكر . وكان قد وفد على (مونمورنسي) لزيارتي ، في الشتاء الذي سبق كارثتي . ثم كتب لي بعد ذلك ، في (موتيير) .. وسواء كان راغبا في تملقي ، أو أن شخصية « اميل » كانت قد استهوته حقا ، فانه انبأني باعتزامه ترك الخدمة ، ليعيش حرا .. وانه لذلك اخذ يتعلم حرفة التجارة . **ولقد كان له أخ يكبره ـ « كابتن » في الكتيبة ذاتها ـ كان أثيرا بحب أمه ، التي كانت متطرفة في التقوى ، وكانت ـ في خضوعها لسلطان راهب**

دجال – تسيء معاملة ابنها الأصغر ، وتتهمه بالمروق على الدين، بل وبالعيب الذى لا يغتفر .. وهو توثق العلاقة بينه وبينى. وكانت هذه هى المظالم التى أراد من أجلها أن يقطع وشائجه مع أمه ، وان ينتهج الرأى الذى ذكرته من قبل .. أن يكون ((اميل)) الصغير ، فى كل شيء !

وجزعت لهذا الطيش ، فبادرت الى الكتابة اليه ، محاولا ان أثنيه عن عزمه ، مزجيا اليه أقوى المواعظ تأثيرا . ولقد أخذ بنصحى ، وعاد الى واجبه كابن ، كما سحب من يدى قائده الاستقالة التى كان قدمها ، والتى كانت حكمة القائد قد أبت عليه أن يقبلها ، ليوسع له الوقت كى يعيد التفكير فى الأمر . وما ان شفى ((سان بريسون)) من هذه الحماقات ، حتى أقدم على حماقة جديدة ، لم تكن مثيرة للسخط كتلك ، ولكنها لم تصادف هوى من نفسى .. اذ جعل من نفسه مؤلفا . فأصدر كتيبين أو ثلاثة ، تباعا ، كشف فيها عن قدر من الاستعداد .. ولكنى لا أحمل وزر اطرائها بما كان كفيلا بأن يشجعه على المضى فى هذه الحرفة !

ولقد جاء لزيارتى – بعد ذلك بزمن – وقمنا بنزهة معا الى جزيرة (سان بيير) . ووجدته خلال هذه الرحلة ، على غير ما رأيته فى (مونمورنسى) . كان ثمة تغير قد الم به ، لم يصدمنى فى البداية ، ولكنه كثيرا ما تمثل لخاطرى ، منذ ذلك الحين . ولقد زارنى مرة اخرى ، فى فندق (سان سيمون) ، أثناء مرورى بباريس ، فى طريقى الى انجلترا . واذ ذاك سمعت ما لم يقله لى هو ، من انه أصبح يرتاد المجتمعات الراقية ، وانه كثير التردد على السيدة دى لوكسمبورج . ولم يبد – أثناء وجودى فى قلعة (تير) – ما ينم عن وجوده على قيد الحياة ، ولا أبلغنى شيئا على الآنسة ((سيجوييه)) ، قريبته التى كانت جارة لى . وقصارى القول ، ان شغف السيد دى سان – بريسون انتهى فجأة ، كما انتهت علاقة السيد دى فيان ، ولكن

.. اذا لم يكن الأخير مدينا لى بشىء ، فان الأول كان مدينا لى ببعض الشىء ، مالم تكن النزوات الطائشة التى صددته عن ارتكابها ، مجرد حيلة من جانبه ، وهو أمر جد محتمل !

* * *

• **وتردد** على كذلك ، مثل هـذا العدد – أو أكثر – من الزائرين الوافدين من (جنيف) . فاختارنى « ديلوك » وابنه – على التعاقب – ممرضا أسهر عليهما . فقد مرض الأب أثناء الطريق ، وكان ابنه قد مرض –هو الآخر – مذ غادر جنيف ، فحلا للاثنين المقام فى دارى . وتوافد من جنيف ومن سويسرا الزائرون ، من قساوسة ، الى أقارب ، الى مرائين ، الى نكرات .. لا لابداء اعجابهم بى ، أو للسخرية منى – كما كان يفعل القادمون من فرنسا – وانما ليؤنبونى ، ويعظونى ! .. وكان الوحيد الذى يروق لى منهم ، هو « مولتو » الذى أقبل لقضاء ثلاثة أو أربعة أيام معى ، والذى كنت أرجو أن استضيفه فترة أطول . على أن أكثرهم مثابرة ، وأشدهم صلابة ، كان رجلا يدعى السيد دانفيرنوا ، استطاع أن يقهرنى بمضايقاته . وكان تاجرا من (جنيف) ، من المهاجرين الفرنسيين ، كما كان قريبا للمدعى العام فى نيوشاتيل . **وكان هذا السيد دانفيرنوا الجنيفى ، يمر بموتيير مرتين فى العام ، وكله شـوق الى ان يزورنى ، ويمكث فى دارى من الصباح الى المساء ، لعدة أيام بعد ذلك ، فيفرض صحبتـه على فى نزهاتى ، ويجلب الى ألف نوع من الهـدايا الصغيرة ، ويقحم نفسـه على اسرارى بالرغم منى ، ويتدخل فى جميع شئونى .. دون ان يجمع احدنا بالآخر اى تشابه فى الآراء ، أو الميول ، أو الأحاسيس ، أو المدارك .** وانى لأشك فى انه قرأ كتابا واحدا فى حياته ، من اوله الى آخره ، وفى انه كان يعرف ما تناولته كتبى بالذات . وعندما شرعت فى هواية النباتات ، أخذ يرافقنى فى جولاتى لتفقد أنواع النبات ،

دون ما ميل الى هذه الهواية ، ودون أن يملك ما يقوله لى ، كما اننى لم أكن أملك ما أقوله له . بل لقد أوتى الجلد على أن يقضى معى ثلاثة أيام كاملة ، وحيدين لا ثالث لنا ، فى مكان عام فى (جوموان) ، كنت أرجو أن أتخلص منه عنده ، بفضل العمل على املاله واشعاره بمدى ما كان يسببه لى من ملل . بيد اننى لم أقو قط على أن أثبط دأبه الذى لا يصدقه عقل ، ولا على اكتشاف الباعث اليه !

وبين كل هذه العلاقات ، التى لم أصلها ولم أرعها الا غصبا ، أرى من الواجب ان لا أغفل العلاقة الوحيدة التى كانت تروق لى ، والتى أثارت اهتماما حقيقيا فى فؤادى .. تلك هى صلتى بشاب مجرى ، جاء ليقيم فى نيوشاتيل ، ثم فى (موتيير) — بعد ذلك — عقب استقرارى هناك ببضعة أشهر ، وقد عرف فى المنطقة باسم « البارون دى سوتيرن » ، وهو الاسم الذى ورد فى التوصيات التى حملها من (زيورخ) . وكان شابا طويلا عريضا ، متناسق القوام ، مليح القسمات ، رقيق الطباع دمثها . ولقد أنبأ الجميع — وأوقع فى روعى أنا الآخر — بأنه لم يأت الى نيوشاتيل الا لبرانى ، وليروض شبابه على الفضيلة بالاتصال بى . وكانت أساريره ، ومسلكه ، وأخلاقه ، تبدو لى مصداقة لكلماته . فكنت خليقا بأن ألوم نفسى على تخليها عن واجب من أهم الواجبات ، لو اننى أبيت أن أقابل شابا لم أر فيه الا كل مستحب ، وكان الباعث الذى حفزه على السعى للتعرف الى ، جديرا بكل اعتبار ، ولا يحذق قلبى الاستسلام الناقص ، ومن ثم فسرعان ما استولى الشاب على صداقتى الكاملة ، وثقتى الشاملة ، وأصبحنا لا نفترق .. فكان يرافقنى فى كل نزهاتى على الاقدام ، ويستمتع بها كل الاستمتاع ، ولقد صحبته الى السيد اللورد المارشال ، الذى أبدى له ألف مجاملة !

واذ لم يكن قد أجاد بعد الحديث بالفرنسية ، فقد كان يخاطبنى ويكتب الى باللاتينية ، وكنت أجيبه بالفرنسية بيد

أن هذا الخلط بين اللغتين ، لم يقلل من تدفق محادثاتنا ، ولا من حيويتها ، بأى حال !.. ولقد حدثنى عن اسرته ، وشئونه ، ومغامراته ، والبلاط الملكى فى (فينا) ، الذى بدا على المام تام بدقائق الحياة فيه . وموجز القول اننى لم أجد فيه ــ خلال السنتين اللتين قضيناهما فى أشد الود ــ سوى لطف الشخصية فى كل الأحوال ، وسوى أخلاق لم تكن كريمة فحسب ، وانما كانت مهذبة .. وسوى نظافة تامة فى شخصه ، وعفة مفرطة فى قوله .. كانت له ــ بايجاز ــ كل صفات الرجل الطيب المنبت ، مما جعلنى ــ بغض النظر عن اعزازى اياه ــ اجله أسمى اجلال !

* * *

• **وفى** عنفوان علاقاتى به ، كتب لى دانفيرنوا الجنيفى بأن احذر شابا مجريا وفد للاقامة على مقربة منى ، فقد قيل له ــ فى تأكيد ــ انه جاسوس من الوزير الفرنسى ، ليكون عينا على ! .. ولقد دبرت هذه النصيحة لكى تسبب لى مزيدا من القلق ، ففى تلك البلاد ، كان كل الناس ينصحوننى بأن أكون على حذر ، لأننى مراقب . وكان الهدف من ذلك استدراجى الى الاراضى الفرنسية ، ثم الانقضاض على !

ولكى أخرس كل هؤلاء الناصحين نهائيا ، اقترحت على سوتيرن ان يصحبنى الى نزهة على الأقدام ، الى (بونتارلييه) ــ دون أن أنبئه بشىء ــ فقبل . **وعندما وصلنا الى (بونتارلييه)، أعطيته خطاب دانفيرنوا ليقرأه ، ثم عانقته فى حرارة ، وقلت : ((ليس سوتيرن بحاجة الى ان أبرهن له على ثقتى ، ولكن الجمهور بحاجة الى دليل يبين من هو جدير بها !)) .. وكان هذا العناق عذبا جدا .. كان من تلك المتع الروحية التى لا يعرف الظالمون مذاقها ، والتى لا يستطيعون أن يحرموا منها المظلومين!**

ولن اصدق قط أن ((سوتيرن)) كان جاسوسا ، أو انه خاننى ، بيد انه غرر بى . فعندما فتحت له قلبى فى غير تحفظ ،

اذا به يؤتى الجلد على أن يغلق قلبه ،ويخدعنى بأكاذيبه . فقد ابتكر لى قصة لا أدرى مأتاها ، جعلنى أحدس أن وجوده فى بلاده كان امرا ضروريا ، فحضضته على الرحيل اليها دون ارجاء ، وقد فعل ، وعندما خيل الى انه قد وصل الى المجر ، سمعت انه كان فى (ستراسبورج) . ولم تكن هذه أول مرة يوجد فيها هناك . فلقد أوقع الفرقة فى اسرة بالمدينة ، فكتب لى الزوج اذ عرف اننى اعتدت أن أقابله . ولم أدخر وسعا فى رد الزوجة الى طريق الفضيلة ، ورد « سوتيرن » الى نطاق الواجب . وما ان ظننت انهما قد افترقا تماما ، حتى عادا الى اتصالهما ، وأوتى الزوج من اللين واللطف ما جعله يأوى الشاب فى داره . ولم يبق لى بعد ذلك مجال لقول .

على اننى تبينت ان البارون المزعوم ، قد تقرب الى بطائفة من الاكاذيب ولم يكن اسمه « سوتيرن » — على الاطلاق — وانما « سوتير شايم » . أما لقب « بارون » — الذى أطلق عليه فى سويسرا — فلست أملك أن ألومه عليه ، لأنه لم يستحله لنفسه قط ! . . على اننى لا ارتاب فى انه كان سيدا مهذبا راقيا حقا ، وقد اعتاد اللورد المارشال — الذى كان خبيرا بالرجال ، والذى عرف بلاده من قبل — ان ينظر اليه وان يعامله كسيد !

وما ان رحل « سوتيرن » ، حتى أعلنت خادم الفندق الذى اعتاد تناول الوجبات فيه — فى موتيير — انها حامل عن طريقه . وكانت عاهرة قذرة ، فى حين أن « سوتيرن » كان محترما لدى الجميع ، وكان معروفا فى كل مكان بمسلكه وخلقه الكريمين ، وبأنه كان جد فخور بنظافته وعفته . ومن ثم أذهلت هذه الوقاحة جميع الناس . وهاج سخط أبدع حسان البلد ، اللائى كن يؤثرنه بمفاتنهن دون جدوى . كذلك ثرت انا استنكارا ، ورحت ابذل كل جهد فى سبيل الزج بهذه الفاجرة فى السجن ، عارضا أن أتكفل بجميع النفقات ، وأن أكون ضامنا لسوتيرشايم . **وكتبت اليه وأنا أشد ما أكون اقتناعا ، لا بأن**



هذا الحمل لم يكن ذنبه فحسب ، وانما بأنه حمل مزعوم ، وان كل هذه الضجة لم تكن سوى مكيدة دبرها أعداؤه وأعدائى . ورغبت اليــــه فى ان يعود الى البلد ، ليخزى هذه المجرمة ، وأولئك الذين كانوا يحرضونها . وكم بهت لميوعة رده . فقد كتب الى راعى الابرشية التى كانت الفاجرة تتبعها ، وحاول أن يخمد المسألة . ومن ثم فقد كففت عن التدخل فى الأمر ، وأنا فى أشد الدهشة من أن يستطيع رجل انحط الى هذا الدرك ، ان يسيطر على نفسه بالشـــكل الذى مكنه من أن يخدعنى بتحفظه طيلة الفترة التى كنا فيها على أوثق ائتلاف !

ومن (ستراسبورج) انتقل « سوترشايم » الى (باريس) سعيا وراء الحظ ، فلم يفز الا بالشقاء . ولقد كتب الى معترفا بذنوبه ، فهفت عواطفى لذكرى صداقتنا القديمة ، وارسلت اليه بعض المال . وعندما مررت بباريس ، فى العام التالى ، رأيته ـ مرة اخرى ـ فى عين الحال تقريبا ، ولكنه كان قد اصبح صديقا حميما للسيد لالياود . ولم يقدر لى اطلاقا ان اعرف كيف تعرف اليه ، وما اذا كان هذا التعارف حديث عهد او قديما . وما لبث « سوترشايم » ان عاد الى (ستراسبورج) ، بعد عامين ، وكتب الى من هذا المكان .. وفيه مات !

هذه ـ بايجاز ـ قصة علاقتي به ، ومغامراته . ولكني ـ في

الوقت الذى انعى فيه حظ هذا التعس ـ سأظل اؤمن بأنه كان طيب المنبت ، وان كل ما تبدى فى سلوكه من اضطراب ، لم يكن سوى نتيجة المواقف التى تردى فيها !

* * *

• **وهكذا** كانت المكاسب التى فزت بها من (موتيير) فى مجال العلاقات والصداقات . وما أكثر ما كنت بحاجة اليه من هذه العلاقات ، لأعوض الخسائر القاسية التى منيت بها فى تلك الفترة ذاتها .. فلقد منيت أولا بفقد السيد دى لوكسمبورج ، الذى تعذب طويلا على أيدى الأطباء ، ثم راح ـ فى النهاية ـ ضحية لهؤلاء الذين كانوا يعالجون النقرس على انه مرض يسهل عليهم ابراؤه ، دون ان يعترفوا بحقيقته ! .. ولو اننا أخذنا بالرواية التى كتبها لى « لاروش » ـ موضع ثقة السيدة دى لوكسمبورج ـ بهذا الصدد ، لوجدنا فى قصته مثالا قاسيا وأليم الذكرى ، لمدى مصائب العظمة !

ولقد كان لفقد هذا السيد العظيم الطيب ، وقع شديد على نفسى ، اذ انه كان الصديق الوحيد الذى بقى لى فى فرنسا .. ولقد كانت رقة شخصيته بالغة ، حتى انها أنستنى مكانته ومرتبته ، فارتبطت به وكأننى ند له . ولم تنته وشائجنا برحيلى عن البلاد ، بل انه واصل الكتابة الى ، كما كان شأنه من قبل . ومع ذلك ، فاننى خلت ان غيابى أو نحس طالعى قد أخبى عواطفه نحوى . فمن العسير على عضو فى حاشية الملك ، أن يحتفظ بنفس العلاقة مع شخص كان يدرك أن السلطات غاضبة عليه . كذلك انتهى بى التفكير الى أن التأثير الكبير الذى كان للسيدة دى لوكسمبورج عليه ، لم يكن مواتيا لى فى شىء ، وأنها قد انتهزت فرصة غيابى لكى تسىء الى فى نظره . بل انها ـ بالرغم من مظاهر الود الحارة ، التى أخذت فى التضاؤل ـ لم تعد تجشم نفسها عناء اخفاء تحول عواطفها عني . ولقد

كتبت لى أربع مرات أو خمسا ، على فترات متباعدة ــ وأنا فى سويسرا ــ ثم كفت عن الكتابة نهائيا . وكان لابد لى من كل التكهنات ، وكل الثقة ، وكل الغباء الأعمى ــ الذى كنت أتخبط فيه مرة أخرى ــ حتى لا أبصر البرود الذى شاب عواطفها ازائى !

ولقد كتب لى الناشر « جاى » ــ شريك دوشين ، الذى أصبح كثير التردد على قصر لوكسمبورج بعد رحيلى ــ ينبئنى بأن اسمى ورد فى وصية السيد المارشال . ولم يكن فى هذا ما يدعو الى العجب ، أو ما يجل على التصور ، ومن ثم فاننى لم أرتب فيه . وقد حملنى هذا على ان اتدبر ــ بينى وبين نفسي ــ ما ينبغى ان يكون عليه موقفى من الوصية . وبعد روية وتفكير ، عزمت على قبولها ، مهما تكن ، وان أعبر بهذا عن تكريمى لرجل أمين، حمل لى ودا صادقا ، بالرغم من انتمائه الى طبقة لا تنفذ الصداقة الى مشاعر ابنائها قط . على اننى أعفيت من هذا الواجب ، اذ اننى لم أسمع اطلاقا عن الوصية مرة أخرى ، سواء كانت القصة صحيحة أو كاذبة . **ولقد كان من الشاق على نفسي ــ فى الحقيقة ــ ان اهدر مبدأ من مبادئى الخلقية الكبرى ، اذ أفيد من موت امرىء كان جد عزيز لدى . ولقد حدث أثناء المرض الأخير لصديقنا «موسار» ، ان عرض « لينييب » على ان نستغل امتنانه لودنا ، وعرفانه لعنايتنا به ، فنقترح عليه ان يترك لنا فى وصيته شيئا . فما كان منى الا أن قلت له : « آه ، يا عزيزى لينييب ! .. ما ينبغى ان ندنس ــ بأفكار عن المصلحة الذاتية ــ الواجبات المحزنة ، ولكنها مقدسة ، التى يجب علينا ان نؤديها لصديقنا المتحضر ! » .**

وانى لآمل ان لا أذكر قط فى وصية أى امرىء ، لا سيما اذا كان صديقا . ولقد تحدث الى سيدى المارشال ــ حوالى هذه الفترة ــ عن وصيته ، وما كان يعتزم أن يفعله من أجلى ،

فأبديت فى هـــذه المناسبة الرد الذى ذكرته فى الجزء الأول من اعترافاتى (١)

* * *

• **وكانت** الخسارة الثانية التى حاقت بى ، أكثر ايلاما وأعز من أن تعوض .. تلك هى فقدان خير النساء والأمهات ، التى كانت السنون قد اثقلت كاهلها ، ثم اعياها حمل العلل والمحن، فهجرت هذه الحياة ـ وادى الدموع ـ لتنتقل الى ملاذ الطيبين والصالحين ، حيث تكون ذكرى الخير الذى اسديناه فى هذه الدنيا، هو خير جزاء نكافأ به عنه. فاذهبى ايتها الروح الوادعة المحسنة ، الى جوار فينولون ، وبرنيـــكس ، وكاتينا ، وكل اولئك الذين حذوا حذوهم ، ففتحوا قلوبهم للخير والاحسان الحقيقين ، رغم تواضع ظروفهم ! .. **اذهبى فتـذوقى ثمرة احسانك ، ومهدى لتلميذك المكان الذى يأمل ان يشغله يوما ، الى جوارك ! .. ما اسعدك وسط كل مصائبك ، فان السماء ـ حين وضعت لها نهاية ـ قد جنبتك قسوة مرأى مصائبى! .. ذلك لأننى لم أكتب اليها اطلاقا ، عقب وصولى الى سويسرا ، خشية أن أدخل الأسى على فؤادها بذكر مصائبى الأولى. بيد اننى كتبت الى السيد دى كونزيبه ، أنشد أنباءها . ومنه علمت انها قـد كفت عن أن تواسى آلام الغير ، وأن آلامها هى قـد انقضت !** .. ولسوف أكف أنا الآخر عن التألم ، عما قريب . ولو لم أكن اؤمن بأننى سأراها ثانية ، فى العالم الآخر ، لأبى خيالى الواهن على نفسه أن تفكر فى الهناء الـكامل الذى اتطلع اليه هناك !

أما المصاب الثالث والأخير ـ اذ لم يعد لى بعده اصدقاء أمنى فيهم ـ فهو فقدان ســيدى اللورد المارشال . وما فقدته بالموت ، ولـكنه حين سئم خدمة سادة جاحـــدين ، هجر

---

(١) صفحة ٩٤ ـ الكراسة الثانية ـ بالجزء الأول من الترجمة .

نيوشاتيل ، فلم يقدر لى أن أراه بعد ذلك . وهو لا يزال على قيد الحياة ، وآمل ان يعيش بعدى .. انه لا يزال على قيد الحياة ، ومن ثم فان الروابط التى تربطنى بالأرض ، لم تتقطع عن آخرها ، بفضله .. **فلا يزال باقيا على الارض رجل جدير بصداقتى .. الصداقة التى تتمثل قيمتها الحقيقية فى الود الذى يحس به المرء ، اكثر منها فى الود الذى يوحيه للغير . غير اننى فقدت البهجة التى كانت صداقتى تملأ بها نفسى ، ولم أعد اليوم املك اكثر من ان اعده بين اولئك الذين لا ازال على حبهم ، وان كانوا لم يعودوا على اتصال بى .** فلقد ذهب الى انجلترا ليتلقى العفو من الملك ، وليسترد ثروته التى كانت قد صودرت . ولم نفترق دون ان ندبر للقاء جديد ، بدا ان توقعه كان يوحى اليه بقدر ما كان يوحى الى من سرور .

وكان قد اعتزم الاقامة فى قصر (كييث هول) — على مقربة من (ابردين) — فتم الاتفاق على أن أزوره هناك . ولكن هذا الاحتمال كان أكثر بهجة من أن أطمع فى تحققه يوما . ولم يطل مكث السيد المارشال فى سكتلندا ، فان الالحاح الرقيق الذى لاحقه به ملك بروسيا ، لم يلبث ان رده الى برلين . وسيتبدى — فيما يلى — كيف حيل بينى وبين ان انضم اليه

فعندما رأى — قبيل رحيله — ان العاصفة كانت توشك ان تهب على مرة أخرى ، أرسل الى — من تلقاء نفسه — وثائق اثبات تجنسى بالجنسية البروسية . وقد بدا هذا احتياطا جد مأمون ، حتى يصبح من المستحيل طردى من البلاد . ولقد حذا اتحاد مدينة (كوفيه) — فى فال دى ترافير — حذو الحاكم ، وكفل لى حقوق المواطن ، دون ما مقابل ، كما حدث ازاء الوثائق الأولى . **واذ أصبحت مواطنا كاملا — من جميع الاعتبارات — غدوت فى حمى من أى اقصاء قانونى عن البلاد ، ولو صدر هذا الاقصاء عن العاهل ذاته . ولكن اعدائى لم يتبعوا يوما الوسائل المشروعة فى اضطهاد رجل كان دائما يفوق سواه**

احتراما للقوانين !

ولست أرى من الواجب أن أحصى بين الخسائر التى منيت بها — فى تلك الفترة بالذات — وفاة الراهب «دى مابلى» . فان اقامتى فى دار آخيه ، مكنتنى من أن أكون على تعارف بسيط معه ، ولكنه لم يرق قط الى مرتبة الألفة والصداقة . ولدى من الأسباب ما يحملنى على أن أعتقد أن مشاعره نحوى قد تبدلت مذ ظفرت بصيت ذائع ، يفوق صيتــه . على اننى لم أفطن الى أولى بوادر سوء نيته ، الا بعـد نشر « رسائل من الجبل » . فلقد روج فى جنيف خطاب الى السيدة «سالادان» ، عزى اليه انه كاتبه ، وقد وصف فيه مؤلفى بأنه ضجيج مضلل ، صادر عن تعصب شعبى جامح . ولم يمكننى الاحترام الذى كنت أكنه للراهب « دى مابلى » ، ومـا كان لدى من رأى فى تنوره وسعة ذهنـه ، من أن أصـدق لحظـة انه كاتب ذلك الخطاب المتحامل .

ورأيت أن أتصرف وفق ما أملته على صراحتى ، فأرسلت اليه نسخة من الخطاب ، وانبأته بأنه كان معزوا اليه . ولكنه لم يجب . وقد أذهلنى هـذا الصمت منه ، ولكن فى الوسع تصور دهشتى عندما أنبأتنى السيدة دى شينونسو بأنه هو الذى كتب الخطاب حقـا ، وان رسالتى قد احرجته أشـد الاحراج .. **ذلك لأنه اذا كان على صواب ، فكيف كان يستطيع ان يبرر خطوة رنانة ، علنية ، صدرت عن طيب خاطر وطواعية ، دون ما غصب أو الزام ، ودون ما ضرورة ، ودون أن يـكون لها أية غاية ، سوى الاساءة الى رجل فى أشد محنه .. رجل لم يبد له قط سوى كل نية حسنة ، ولم يقصر يوما فى تقديره ؟**

ولقد ظهرت — بعد ذلك بقليل — «محاورات فوسيون» (١) ،

---

(١) كان « فوسيون » قائدا وخطيبا أثينيا فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وكان داعية للسلام ، بقدر ما كان جنديا باسلا . وقد عرف بانكار الذات ولباقة الحوار ، والقدرة على الافحام .

التى لم أر فيها سوى مجموعة منتخبات من كتاباتى ، أعدت فى جرأة ، ودون استحياء . وشعرت وأنا أقرأ هذا الكتاب ، بأن المؤلف كان قد بت فى أمرى ، واننى لم يعد لى من هو ألد منه عداء ، منذ ذلك الحين . واعتقد انه ما كان ليملك أن يغفر لى يوما أن كتبت « العقد الاجتماعى » ــ الذى كان فوق طاقة مواهبه ــ ولا « السلام الدائم » .. وانه لم يكن يرجو ــ على ما بدا لى ــ سوى أن أعد مختارات من مؤلفات الراهب « سان بيير » ، لأنه ظن اننى لن اوفق فيها (١)

★ ★ ★

• **كلما** أوغلت فى قصتى ، قلت قدرتى على تنسيقها وترتيب سياقها ، فان الاضطراب الذى ساد بقية حياتى ، لم يدع للأحداث وقتا لتنتظم ذاتها فى رأسى . اذ أنها كانت من الكثرة ، ومن الامتزاج ، ومن الازعاج بحيث لا يتسنى روايتها دون خلط او اضطراب . ولقد كان الطابع القوى الوحيد الذى خلفته هذه الأحداث فى ذهنى ، هو ذلك الغموض الرهيب الذى أحاط بسببها ، والحال الداعية للرثاء ، التى هوت بى اليها ! .. **ولا سبيل الى استطراد القصة الا وفقا للمصادفة ولتوارد الأفكار على ذاكرتى** • وأذكر اننى ــ فى الفترة التى أتحدث عنها ، وأثناء استغراقى فى « الاعترافات » ــ كنت من الحكمة بحيث أتحدث عنها الى كل امرىء ، دون أن أتصور مرة واحدة أن لأحد ما مصلحة ، أو رغبة ، أو قدرة على ان يلقى العراقيل فى طريق هذا المشروع .. وحتى لو ان هذا

---

(١) كان الراهب « دى مابلى » قد عرض على « روسو » مراجعة مؤلفات الأب دى سان بيير ، واختيار أصلحها للنشر • ولكن « روسو » عمد ــ الى جانب الاختيار ــ الى تسجيل تعليقات وآراء ودراسات بصدد كتابات الأب دى سان بيير ، ضمنها كتابيه : « العقد الاجتماعى » و « السلام الدائم » •

خطر لى لما كان بوسعى أن أبدى مزيدا من التكتم ، اذ أن طبيعتى تجعل من المستحيل تماما على أن أخفى شيئا من أفكارى ومشاعرى . ولقد كان تكشف أمر هذا المشروع - بقدر ما بوسعى أن أحكم - هو السبب الحقيقى للعاصفة التى أثيرت لاقصائى عن سويسرا ، وللالقاء بى بين الأيدى التى كانت خليقة بأن تمنعنى من تنفيذه !

وكان لدى مشروع آخر ، لم يكن يحظى من اولئك الذين كانوا يخشون المشروع الأول ، بمزيد من الرضى .. وذلك هو اصدار طبعة عامة من مؤلفاتى . فقد تراءى لى ان مثل هذه الطبعة ضرورية لتعزيز ما كان يمت الى حقا من تلك الكتب التى كانت تحمل اسمى ، ولجعل الجمهور فى وضع يمكنهم من ان يميزوها ويفرقوا بينها وبين المؤلفات التى كانت تحمل اسماء مستعارة ،و كان اعدائى يعزونها الى ، لكى يشوهوا سمعتى ويحطوا من قدرى . **وفضلا عن ذلك ، فان هذه الطبعة كانت كفيلة بأن تصبح وسيلة سهلة وشريفة لتأمين مورد للعيش . بل انها - فى الواقع - كانت الطريقة الوحيدة ، اذ اننى كنت قد هجرت تأليف الكتب ، وما كان فى الوسع نشر مذكراتى أثناء حياتى ، ولم أكن أكسب ((سو)) واحدا بأية طريقة أخرى ، فى حين أننى كنت أنفق باستمرار ..** ومن ثم فقد أيقنت من انتهاء مواردى بمجرد استنفاد ايراد مؤلفاتى الأخيرة . ولقد حملنى هذا السبب على أن أتعجل ظهور كتابى : ((الموسوعة الموسيقية)) ، وان لم يكن قد اكتمل . وقد در على مائة ((لوى)) نقدا ، ومائة ((ايكو)) سنويا ما حييت . ومع ذلك ، فقد ظل من الواجب توقع نفاد المائة ((لوى)) سريعا، لا سيما وقد كانت النفقات تزيد على الستين سنويا .. كما ان المائة ((ايكو)) كانت بمثابة لا شىء ، لرجل كان النكرات والمتسولون يحومون حوله - دون انقطاع - كالعصافير !

وعرضت شركة من تجار نيوشاتيل ،ان تتعهد مشروع مجموعة

المؤلفات • واستطاع صاحب مطبعة ـ أو تاجر كتب ـ من (ليون) ، يدعى « ريجيا » ان يندس بينهم ، بطريقة لا أدريها، ليتولى توجيههم • وعقدت اتفاقية ، وفقا لشروط معقولة ومرضية ، لتحقيق بغيتى خير تحقيق • وكانت مؤلفاتى المطبوعة ، وتلك التى ظلت بخط اليد ، تكفى لأن تملأ ستة مجلدات من حجم « ربع القطع » او «الكوارتو» • وقد تعهدت ـ فوق ذلك ـ بأن أشرف على الطبعة ، فى مقابل ان يؤدوا لى معاشا لمدى حياتى ـ قدره ألف وستمائة ليبرة فرنسية ـ ومبلغا يدفع نقدا ، لمرة واحدة ، قدره الف « ايكو » •

سنة ١٧٦٥

• **كانت** الاتفاقية قد عقدت ، ولكنها لم تكن قد وقعت ، عندما ظهر كتاب « رسائل كتبت من الجبل » ، فاذا السخط الفظيع ـ الذى انصب على هذا الكتاب الجهنمى وعلى مؤلفه المقيت ـ يفزع الشركة ، ومن ثم انفض المشروع • وبوسعى أن أشبه أثر هذا المؤلف الأخير ، بأثر « رسالة عن الموسيقى الفرنسية » ، لولا أن هذه الرسالة وان جلبت على السخط وعرضتنى للخطر ، الا انها تركت لى الاعتبار والاحترام ، على الأقل • أما بعد هذا المؤلف الأخير ، فقد تبدت الدهشة فى (جنيف) وفى (فرساى) ، من ترك وحش مثلى ، يتنفس ويعيش • **واذا المجلس الصغير ـ بتحريض من الوزير الفرنسى المقيم ، وبتوجيه من المدعى العام ـ يصدر بيانا عن الكتاب ، اعلن فيه ، بعد وصفه بأقذع النعوت ، انه غير جدير بأن يحرق بيدى منفذ الأحكام •• وأضاف الى هذا ـ فى دهاء ، يكاد يثير الضحك ـ ان لا سبيل لامرىء الى الرد على هذا الكتاب ، بل الى مجرد ذكره ، دون أن يشين نفسه !**

ولكم أتمنى لو استطعت أن أنقل هنا هذا البيان العجيب ، ولكنى ـ لسوء الحظ ـ لا أملك نسخة ، ولا أذكر كلمة واحدة

منه . وشد ما أرجو أن يتفضل أحد من قرائى – بدافع من الغيرة على الحقيقة والعدالة – على اعادة قراءة « رسائل من الجبل » بأكمله . وأستطيع أن أقول انه سيلمس الاعتدال الشديد الذى ساد هذا الكتاب ، بعد الاهانات العنيفة القاسية، التى تبارى الناس فى صبها على المؤلف . ولكن أعدائى – اذ عجزوا عن الرد على السباب ، لأن الكتاب لم يحو شيئا منه .. ولا على الحجج ؛ لأنها كانت مفحمة – عمدوا الى التظاهر بأنهم أكثر ترفعا من ان يجيبوا .. ومن الصحيح حقا ، أنهم اذا حملوا الحجج المفحمة على انها اهانات ، لحق عليهم ان يشعروا هذا البيان البشع ، سلكوا الطريق التى رسمها لهم .. وبدلا بأنهم أوذوا أشد الايذاء !

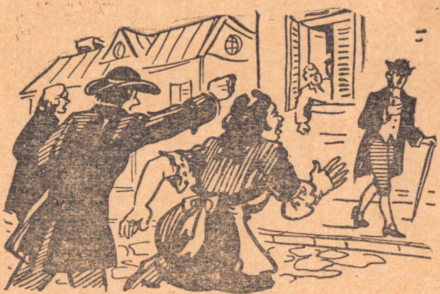
أما فريق المتذمرين ، فانهم بدلا من ان يثيروا أية شكوى من من ان يمجدوا « رسائل من الجبل » كغنيمة ظفروا بها ، اذا بهم يستترون خلفها كدرع .. **فكانوا من الجبن بحيث انهم لم يؤدوا أى تكريم ولا انصاف الى هذا المؤلف الذى وضع للدفاع عنهم وعن مطالبهم .. بل انهم لم يذكروه ، ولا نقلوا عنه ، وان كانوا قد اقتبسوا عنه – فى الخفاء – كل حججهم .. وكانت الدقة التى اتبعوا بها النصيحة التى اختتم بها هذا المؤلف ، هى السبب الوحيد فى خلاصهم وانتصارهم ! .. لقد فرضوا على هذا الواجب ، وقد أديته .. ولقد خدمت الوطن وقضيتهم الى النهاية . ولقد توسلت اليهم أن يتخلوا عن قضيتى ولا يفكروا الا فى أنفسهم ، فى مشاحناتهم** . وقد أخذونى بكلمتى، فلم أتدخل فى شئونهم بأكثر من ان رحت استحثهم على السلام، دون انقطاع . وما من ريب لدى فى انهم لو كانوا قد مضوا فى عنادهم لأنفسهم ، لسحقتهم فرنسا . وهذا ما لم يحدث .. وانى لأدرك السبب ، ولكن هذا ليس مجال الافضاء به !

ولقد كان الأثر الذى أحدثه كتاب « رسائل من الجبل » فى نيوشاتيل ، يتسم بالهدوء فى البداية . ولقد أرسلت نسخة

منه الى السيد دى مونمولان ، فسره أن حصل عليها ، وقرأها دون أن يجد فيها مأخذا . وكان مريضا ـ مثلى ـ فلما استرد صحته ، قام بزيارة ودية لى ، ولم يقل شيئا عن الكتاب . ومع ذلك ، فان الهياج كان قد دب ، واحرق الكتاب حيث لا ادرى (١) . ومن (جنيف) ، ومن (بيرن) ، وربما من (فرساى) ، لم يلبث مركز الفوران ان انتقل الى (نيوشاتيل) ، والى (فال دى ترافير) ـ بوجه خاص ـ حيث بدىء ، حتى قبل ان تبدر عن طبقة رجال الدين أول بادرة ، فى تحريض الجمهور بالأساليب المستخفية . ومن حقى أن أقول اننى كنت خليقا بأن أكون محبوبا من أهل هذه البلاد ، كما كنت من جميع اولئك الذين عشت بينهم . وكنت أغدق الصدقات بسخاء ، ولا ادع محتاجا ممن يحيطون بى دون معونة ، ولا أرفض أن اؤدى اية خدمة فى نطاق مقدرتى ، مادامت تتمشى مع العدالة .. بل لعلنى كنت أسرف فى التآلف مع كل الناس ، أكثر مما ينبغى .. كما اننى اعتدت ـ بقدر ما وسعنى ـ أن أرفض كل تمييز فى المعاملة ، قد يثير الغيرة ! .. ومع ذلك ، فان كل هذا لم يحل دون استنهاض السكان سرا ، دون أن أدرى محرضهم ، ومن ان يوغروا تدريجا ضدى ، حتى بلغوا درجة الهياج ، فراحو يسبوننى علنا فى رابعة النهار ، لا فى الريف ، أو فى الطرق الخلوية فحسب ، بل وفى الشوارع الرئيسية .. وكان أشدهم تحرشا بى ، هم أولئك الذين أسديت اليهم أكبر قسط من الخير .. بل ان من الناس ـ الذين واصلت اسداء المعروف اليهم ـ من لم يجرؤوا على التحرش علنا ، فراحوا يثيرون الباقين ، وكأنما كانوا بهذه الطريقة يثأرون لأنفسهم من هوان أن يكونوا مدينين بالفضل لى ! .

---

(١) فى باريس ، مع « الموسوعة الفلسفية » لفولتير ، وبنفس القرار المؤرخ فى ١٩ مارس سنة ١٧٦٥



ولم يبد على مونمولان انه رأى شيئا مما كان يجرى ، لا ولم يعد يزورنى . على انه لم يلبث أن زارنى — اذ اقتربت احدى مناسبات الاحتفال بالقربان — لينصحنى بأن اتفادى حضورها ، مؤكدا لى انه لن يعارضنى فى غير ذلك ، وانه سيدعنى فى سكينتى . وألفيت هذه المجاملة منه غريبة فى نوعها . وذكرنى بخطاب السيدة دى بوفلير ، فلم أستطع أن أفقه أن من الممكن ان يكون لأى أحد شأن بما اذا كنت أتناول القربان أو لا أتناوله. واذ وجدت ان قبول اقتراحه يعد جبنا من ناحيتى ، فضلا عن أننى لم أكن راغبا فى أن أتيح للناس هذه الحجة الجديدة كى يصيحوا فى وجهى : « ها هوذا الكافر ! » ، فاننى رفضت رجاء القس رفضا باتا ، واذا به يستاء ويوحى الى بأننى لن ألبث أن أندم . على أنه لم يكن يملك أن يمنعنى من التناول بأمر منه وحده ، بل كان لا بد من قرار من المجمع الدينى الذى سمح له بالانضواء تحت لواء الكنيسة . وما دام المجمع لم يقل شيئا ، فقد كان من حقى أن أتقدم فى جرأة ، دون أن أخشى رفضا . ومن ثم فقد عمد « مونمولان » الى الحصول من القساوسة على تخويل بدعوتى للمثول أمام المجمع ، لأقدم حسابا عن ايمانى ، على أن أجازى بالحرمان ، اذا أنا أبيت أن ألبى الدعوة .

على ان الحرمان بدوره لم يكن ميسورا ما لم يصدر عن المجمع وباجماع الآراء . ولكن الفلاحين الذين ألفوا هذه الهيئة — تحت اسم الشيوخ الحكماء — كانوا تحت رئاسة القس ، وبالتالى تحت نفوذه ، كما هو مفهوم . فلم يكن لهم — بطبيعة الأمر — رأى سوى رأيه ، لا سيما فى المسائل اللاهوتية ، التى كانوا أقل ادراكا لها منه . ومن ثم فقد قررت أن ألبى الدعوة ، عندما أعلنت بها !

★ ★ ★

• أى ظرف سعيد ، وأى نصر لى ، لو اننى عرفت كيف أتكلم — فى هذه المناسبة — عن نفسى ، وان أضع قلمى فى فمى ، كما ينبغى أن يقال ! .. بأى تفوق جائح ، وبأى يسر كان فى وسعى أن أهزم القس البائس ، وسط فلاحيه الستة ، أعضاء المجمع ! .. كان الطمع فى السلطان قد أنسى رجال الدين البروتستانت مبادىء الاصلاح الدينى ، وكان كل ما يعوزنى لتذكيره بهذا ، ولافحامه ، هو أن أشرح الرسائل الجبلية الأولى ، التى كانوا من الغباء بحيث راحوا يعيبونها على . وهكذا كان موضوعى معدا ، ولم يكن ينقصنى سوى المثول أمام المجمع ، فاذا غريمى يفحم ! .. وما كنت من الغباء بحيث اقتصر على الدفاع ، بل كان الجو ممهدا لأن انقلب مهاجما ، دون أن يفطن هو ، ودون أن يقوى على صد الهجوم . ذلك لأن الحمقى التافهين من رجال الدين ، كانوا عاطلى العقول بقدر ما كانوا جهلة ، وقد وضعوا أنفسهم — بالنظام الذى ابتدعوه — فى أنسب وضع كنت اشتهيه ، لكى أدهمهم كما يحلو لى !

ولكن مهلا ! .. كان لا بد لى من أن أتكلم ، ومن أن أتكلم فى الموضوع ، ومن أن أعثر على الافكار ، وأن أقلبها على كل جانب ، وان اجد الكلمات فى لحظة الحاجة اليها ، وان احتفظ دائما بحضور بديهتى ، وأن أكون هادىء الأعصاب باستمرار ، فلا

اضطرب لحظة واحدة .. فما الذى كنت أملك أن أرجوه من نفسى ، وانا الذى كنت ألمس تماما عجزى عن أن أعبر عن نفسى الفور ؟ .. لقد اضطررت الى أن الزم أزدى حالات الصمت ،فى (جنيف) ، امام لجنة كانت محابية لى كل المحاباة ، وكانت قد عقدت العزم مقدما على ان تحبذ كل ما أقول (١) .

أما هنا ، فقد كان الأمر على النقيض .. كان على أن أنازل شخصا مشاكسا ، وضع الدهاء فى موضع المعرفة ، وفى وسعه أن ينصب لى مائة شرك ، قبل أن ألمح واحدا منها ، وقد عقد عزمه على أن يظهرنى مخطئا ، مهما يكبده هذا من ثمن ! .. وكنت كلما فحصت موقفى هذا ، ازددت شعورا بخطره ، فلما اقتنعت بأن من المستحيل أن أنتزع نفسى من هذا الموقف بنجاح ، فكرت فى حيلة أخرى . ورحت أفكر فى خطاب اعتزمت أن ألقيه أمام المجمع ، لكى أطعن فى اختصاصه ، فأحل نفسى من ضرورة الاجابة . وكان الامر غاية فى السهولة ، فكتبت الخطاب ، وشرعت استذكره عن ظهر قلب فى تحمس لا مثيل له . واذ سمعتنى « تيريز » وانا اتمتم لنفسى — بلا انقطاع — مكررا نفس العبارات ، محاولا أن أحشرها فى رأسى ، راحت تضحك منى . وكنت آمل أن أستوعب الخطاب فى النهاية . فقد كنت أعرف أن حاكم المقاطعة — كمندوب من العاهل — سيحضر جلسة المجمع ، وان معظم الشيوخ كانوا — بالرغم من مناورات مونمولان وزجاجات الخمر التى وزعها — طيبى الشعور نحوى . وكان يناصرنى المنطق ، والحق ، والعدالة ، وحماية الملك ، وسلطان مجلس الدولة ، ودعوات كل المواطنين الصالحين الذين تأثروا بتقرير هذا التحقيق .. كان كل شىء يساهم فى تشجيعى ، فى الواقع !

وما ان حان اليوم السابق على الموعد المحدد ، حتى كنت قد

---

(١) وردت هذه المناسبة في صفحة ١٨٩ - الجزء الثالث

حفظت خطابى عن ظهر قلب ، ورحت أردده دون ما خطأ . ورحت استرجعه ثانية ، فى ذهنى ، طيلة الليل . **ولكننى فى الصباح .. نسيته ! ورحت أتردد عند كل كلمة .. وتمثلت نفسى امام المجلس الموقر ، فاذا بى ارتبك ، واتلعثم . واذا بفكرى يتشتت ! .. واخيرا ، خذلتنى شجاعتى تماما ، فى لحظة الانطلاق ، فبقيت فى البيت ، وعزمت على أن أكتب الى المجمع ساردا – فى عجلة – اسبابى ، ناسبا عدم ذهابى الى توعك صحتى التى كانت – فى حالتى تلك – تجعل من المستحيل على حقا ، أن أمكث طيلة الجلسة !**

وأحرج خطابى الوزير ، فأرجأ القضية الى جلسة أخرى . وفى تلك الأثناء ، راح يبذل – هو واذنابه – ألف حيلة وجهد ، لاغراء اولئك الذين لم يتبعوا سوى ايعازات ضمائرهم دون ايعازاته ، من الشيوخ الذين لم يروا ما كان يراه هو ورجال الدين . وبالرغم مما كان للحجج – المستمدة من قبو الخمورفى داره – من تأثير على اناس من هذا القبيل ، الا انه لم يستطع أن يكسب أحدا سوى الاثنين أو الثلاثة الذين كانوا أوفياء له من قبل ، والذين عرفوا باسم « شياطينه اللعينة » ! .. واستطاع مندوب الملك والكولونيل « دى بورى » – الذى ابدى كثيرا من الهمة فى هذه المسألة – ان يحملا بقية الأعضاء على أن يلزموا نطاق الواجب . فلما اراد « مونمولان » ان يدفع قرار حرمانى من الكنيسة قدما ، رفض اقتراحه رفضا باتا بأغلبية الأصوات . ولم يبق أمامه سوى اثارة الناس – كحيلة اخيرة – فشرع يعمل جهارا ، بمساعدة زملائه وغيرهم ، واستطاع أن يوفق الى درجة اننى اضطررت فى النهاية – بالرغم من التعليمات العديدة الشديدة اللهجة من الملك ، وبالرغم من جميع أوامر مجلس الدولة – الى مغادرة البلاد ، حتى لا أعرض مندوب الملك الى الاغتيال بسبب جهوده للدفاع عنى .

ولست احتفظ لهذه القضية كلها ، بغير ذكرى مهوشة الى

درجة يستحيل على معها أن ابث أى ترتيب أو روابط بين الافكار التى تعاودنى عنها . ولست املك سوى أن أعرضها متفرقة ، متباعدة ، كما تتوارد على ذهنى . وانى لأذكر أن شيئا من المفاوضات دار مع رجال الدين ، وكان مونمولان وسيطا فى ذلك. ذلك لأنه كان قد تظاهر بالخشية من ان تؤدى كتاباتى الى قلقلة هدوء البلاد ، الأمر الذى كان يعتبر نفسه مسئولا عنه اذا ظل يبيح لى حرية الكتابة ! .. ومن ثم فقد عمد الى الايعاز الى بأن من الممكن التجاوز عن الماضى ، اذا أنا ألقيت القلم من يدى. وكنت قد انتهيت الى هذا ـ فيما بينى وبين نفسى ـ من قبل ، فلم اتردد على ان انتهى اليه مع فريق رجال الدين ، ولكن بشرط ، وفيما يتعلق بالمسائل الدينية فحسب . وتعمد مونمولان ان يعد صيغتين من الاتفاق ، بسبب تعديلات أدخلها على الصيغة الأولى . وحدث ان قوبل الشرط بالرفض من حزب رجال الدين ، فطلبت رد الاتفاق المكتوب ، واذا مونمولان يرد الى احدى النسختين ويحتفظ بالأخرى ، زاعما انه أتلفها ! .

وعمد الجمهور ـ بعد ذلك ، وبتحريض رجال الدين ـ الى السخرية من تعليمات الملك ، ومن اوامر مجلس الدولة، ولم يعودوا يقفون عند حد ، فى جموحهم . وكانت الهجمات تشن على خلال المواعظ ، من فوق المنابر ، فلقبت بـ « عدو المسيح » ، وطوردت فى الريف كما لو كنت ذئبا مسعورا . وكانت ثيابى الأرمنية بسمة كافية كى يعرفنى الناس بها . فأحسست أقسى الاحساس بعدم ملاءمتها ، ولكن نبذها ـ فى مثل هـذه الظروف ـ كان ، فى رأيى ، بمثابة الجبن . فلم استطع أن أحل هـذه المشكلة ، وظللت أتمشى فى كل مكان بهدوء ، وانا فى القفطان ، وقد ارتديت القلنسوة الفرو ، تتبعنى سخريات الغوغاء وصياحهم .. وقطع الحصى التى كانوا يقذفوننى بها أحيانا ! .. وكم من مرة سمعت ـ وأنا أمر

بالمنازل ـ أصوات ساكنيها وهم يصيحون : «ناولونى بندقيتى، حتى أرديه فى مكانه ! » . ولم اكن أوسع الخطى ، فكان هـذا يضاعف من حنقهم، ولكنهم اقتصروا دائما على التهديد والوعيد .. فيما يتعلق بالاسلحة النارية ، على الأقل !

★★★

• **على** اننى ـ خلال هذا الهياج كله ـ لم أعدم مناسبتين كانتا مبعث سرور عظيم استمرأته كل الاستمراء . وكانت أولاهما اننى استطعت أن أعرب عن عرفانى بالصنيع ، بفضل سيدى اللورد المارشال . ذلك ان جميع ذوى المكانة من أهالى نيوشاتيل ، استنكروا المعاملة التى كنت ألقاها ، والمكائد التى كنت ضحية لها ، مما اوغر صدورهم كثيرا على فريق رجال الدين ، اذ فطنوا الى أنه كان منصاعا لنفوذ أجنبى ، وانه لم يكن سوى اداة للغير، ممن كانوا يتوارون فى المؤخرة وهم يستحثونه على التصرف . ومن ثم فقد بدأوا يخشون الا تؤدى حالى الا الى انشاء محكمة للتفتيش حقا ! (١) .. وبذل رجال الحكومة ـ لا سيما السيد مورون، الذى خلف السيد دانفيرنوا فى منصب المدعى العام ـ كل مافى وسعهم لحمايتى . ومع ان الكولونيل بورى لم يكن سوى فرد عادى ، الا انه فاقهم جهدا ، وكان أكثر منهم توفيقا . **فهو الذى ابتكر الوسيلة لخذلان مونمولان فى المجمع ، بالزام الشيوخ حدود الواجب . واذ كان واسع السمعة ، فقد استخدم مكانته فى القضاء على الفتنة. ولكنه لم**

---

(١) كانت محاكم التفتيش هيئات كنسية لقمع الزندقة ، أنشئت لأول مرة فى (تولوز) فى سنة ١٢٢٩ ، ثم انتشرت فى القرون الوسطى فى فرنسا وايطاليا وأسبانيا ـ بوجه خاص ـ واستفحل نفوذها فكثر جورها ، وغدت أداة سياسية أكثر منها دينية . وكانت محاكماتها تجرى سرية ، وتستخدم فيها أبشع طرق التعذيب لحمل السجين على أن يقر بالذنب الذى يتهم به !

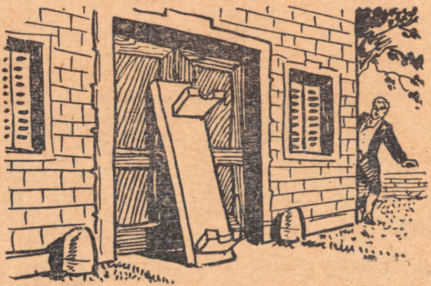
يكن يملك سوى سلطان القانون، والعدالة ، والمنطق ، فى مواجهة نفوذ المـال والنبيذ ! .. وهكذا لم يكن الفريقان متعادلين ، فأحرز مونمولان نصرا عليه ، فى هذه الناحية. ومع ذلك فاننى كنت مقدرا جهوده وتحمسه من أجلى ، وكنت تواقا الى أن أقدم له جميلا ، فى مقابل جميله ، ما استطعت .. وان أرد له الفضل بطريقة ما . وكنت أعرف انه كان يصبو الى أن يصبح مستشارا فى مجلس الدولة ، ولكنه اذ أساء الى البلاط الملكى — فى قضية القس بيتيبيير — باء بعدم رضى العاهل والحاكم . فجرؤت على ان أكتب فى صالحه — بالرغم من ذلك — الى السيد المـارشال .. بل وتجاسرت على أن أذكر المنصب الذى كان يشتهيه ، وكنت موفقا كل التوفيق — بالرغم مما توقعه كل الناس — حتى ان المنصب خلع عليه فورا بأمر ، الملك .

وهكذا ظل القدر — الذى اعتاد دائما أن يرفعنى عاليا ، وان يخفضنى الى الحضيض ، فى آن واحد — يتقاذفنى بين هذين النقيضين . وفى الوقت الذى كان الناس يلطخوننى فيه بالوحل، استطعت أن أعين مستشارا للدولة !

وكانت ثانية المناسبات التى حظيت فيها بأعظم سرور ، هى زيارة تلقيتها من السـيدة دى فيرديلان وابنتها ، التى كانت تصطحبها الى حمامات بوربون ، التى أقبلتا منها ، فقضيتـا يومين أو ثلاثة معى . ولقد استطاعت بمجاملاتها المستمرة ، وما تجشمته من أجلى ، أن تتغلب على نفورى الطويل منها ، فاذا قلبى — وقد غزته مجاملاتها — يبادلها كل الود الذى ظلت طويلا تولينى اياه . ولقـد تأثرت بهذه الزيارة ، لا سـيما فى الظروف التى كنت أعانيها ، وعندما كنت فى أشد الحاجة الى مواساة الصداقة ، كى أحتفظ بشجاعتى . ولقد خشيت أن تتأثر أبلغ التأثر بالأهانات التى كنت أعانيها من الاهالى ، وكم وددت أن أجنبها المنظر ، حتى لا يملأ فؤادها أسى . ولـكن هذا لم يكن فى طوقى ، ومع ان وجودها كبح قليلا البذاءات

ـ أثناء نزهاتنا ـ الا انها رأت ما يكفى لأن تحدس ما كان يجرى فى الأوقات الأخرى .

والواقع اننى بدأت اتعرض لأول مرة لحملات ليلية ، فى عقر دارى ، اثناء وجودها . ففى صباح أحد الأيام ، وجدت وصيفتها نافذتى محجوبة بأحجار قذفت عليها فى المساء . وكان ثمة مقعد عريض ، ثقيل ، مثبت تثبيتا قويا فى الطريق ، الى جوار بابى . فاذا به قد نزع من مكانه ، ونقل ، واقيم على أحد



أطرافه مستندا الى الباب ، بحيث كان من المقصود ـ لولا أن اكتشف ـ ان يهوى على رأس أول شخص يفتح الباب ليخرج . ولقد ألمت السيدة دى فيرديلان الماما تاما بكل ما كان يجرى . فالى جانب ما كان بوسعها ان تراه بنفسها ، أخذ خادمها الخاص يتعرف الى أهل القرية ، ويستدرجهم الى الحديث . بل انه رؤى وهو يجاذب مونمولان الحديث . **ومع ذلك ، فانها لم تبد انها انتبهت الى شىء مما كان يجرى لى ، ولم تحدثنى عن مونمولان ، ولا عن اى شخص ، ولم تجب بغير كلمات موجزة على ماكنت ـ أحيانا ـ أرويه لها عن نفسى . على انها لاحت مقتنعة بأن اقامتى فى انجلترا ، اكثر ملاءمة لى من أية اقامة اخرى . وأسهبت فى الحديث الى عن السيد « هيوم » ـ الذى**

كان ، اذ ذاك ، فى باريس ــ وعن وده لى ، ورغبته فى أن يكون ذا نفع لى فى بلاده . وقد آن لى أن اذكر شيئا عن السيد هيوم .

كان هذا السيد قد اكتسب فى فرنسا صيتا ذائعا ، لا سيما بين جماعة دائرة المعارف ، بفضل الرسائل التى الفها فى الشئون التجارية والسياسية ، ثم ــ أخيرا ــ بفضل كتابه فى : « تاريخ آل ستيورات » ، وهو الوحيد من مؤلفاته ، الذى اطلعت على قسط منه ، مترجما بقلم الراهب بريفو . ومع اننى لم أكن قد قرأت مؤلفاته الأخرى ، الا أننى اقتنعت ــ على ضوء ما قيل لى عنه ــ بأن السيد « هيوم » كان يجمع بين نزعة جمهورية قوية ، تميل ــ بفضل الأهواء الانجليزية ــ الى تحبيذ الترف . وعلى ضوء هذا الرأى ، اعتبرت كل المعاذير التى ساقها ــ لتبرير تصرفات تشارلس الأول ــ أعجوبة فى الرأى المحايد ، ومن ثم فاننى أكبرت فيه صدقه ونزاهته ، اكثر مما أكبرت عبقريته . وكثيرا ما ضاعفت الرغبة فى التعرف الى هذا الرجل النادر واكتساب وده ، من المغريات التى أثارها فى نفسى الحاح السيدة دى بوفلير ، صديقته الحميمة ــ والتى كانت تدفعنى الى الانتقال الى انجلترا

ولقد تلقيت منه ــ عن طريقها ــ عند وصولى الى سويسرا ، خطابا مطيبا للخاطر الى أقصى حد . وبعد أن قدم أعظم آيات الاطراء لعبقريتى ــ فى هذا الخطاب ــ وجه دعوة ملحاحة كى انتقل الى انجلترا ، وتطوع بكل ماله من مكانة ، وبكل اصدقائه ، لجعل اقامتى هناك مستحبة ومريحة . وقد سعيت لفورى الى استشارة السيد المارشال ــ الذى كان مواطنا وصديقا للسيد هيوم ــ فأكد لى حسن ظنى بهذا السيد . وروى لى نادرة أدبية عنه ، أدهشتنى بقدر ما ادهشته . تلك هى ان « ولاس » ــ الذى وضع كتابا يعارض فيه آراء « هيوم » بشأن سكان العالم القديم ــ كان متغيبا عندما طبع كتابه ، فتطوع « هيوم » بمراجعة « البروفات » ، وبالاشراف على اصدار الكتاب . وكان

هذا المسلك مما يصادف هوى من نفسى ، اذ اننى كنت ـ بنفس الروح ـ ، قد توليت بيع نسخ من أغنية كانت قد نظمت ضدى ، فى مقابل ستة « سو » للنسخة ! .. ومن ثم فقد كنت محقا فى أن اكون لنفسى كل فكرة طيبة عن « هيوم » ، قبـل ان تأتى السيدة دى فيرديلان ، وتحدثنى فى حرارة عن الود الذى قال انه يكنه نحوى ، وعن تشـوقه الى أن يؤدى لى كل تكريم فى انجلترا .. فهذا عين ما ذكرته لى !

ولقد ألحت كثيرا لحملى على الافادة من هـذه الشهامة ، وعلى الكتابة الى «هيوم». ولما لم أكن بطبعى ميالا الى انجلترا ، ولم اكن راغبا فى اتخاذ هـذا القرار ـ اللهم الا عند الضرورة القصوى ـ فقد رفضت أن أكتب ، أو أن أعد بالكتابة ، بيـد اننى تركت لها حرية اتخاذ التصرف الذى تراه صالحا ، لاستبقاء ميل « هيوم » نحوى . وعندما غادرت (موتيير) ، خلفتنى وأنا مقتنع تماما ـ من كل ما قالته لى عن هذا الرجل الجليل ـ ، بأنه كان فى عداد أصدقائى ، وبأنها كانت من أقرب أصدقائه اليـــه !

* * *

• **ولقد** مضى مونمولان قدما فى مكائده ـ بعد رحيلهـا ـ وأصبح القوم لا يقفون عند حد فى جموحهم ، ومع ذلك فقد واصلت نزهاتى على القدمين فى هدوء وسط صخبهم . وأضفت هواية النباتات ـ التى كنت قد شرعت فى ممارستها بفضـل الدكتور دانفيرنوا ـ طرافة جديدة على رياضتى ، وحملتنى على ان أهيم فى الريف ، أجمع النباتات ، دون ان أتأثر بصيحات الغوغاء ، الذين لم يكن هدوء أعصابى ليزيدهم الا هياجا ! **ولقد كان من الأشـياء التى حـزت فى نفسى ، أن رأيت أدرات**

أصدقائى (١) ، او من كانوا يسمون أنفسهم كذلك ، ينضمون جهارا الى صفوف مضطهدى .. كآل دانفيرنوا .. ولم يشذ عنهم حتى والد وأخ صديقتى « ايزابيل » .. و«بوى ديلاتور» قريب الصديقة التى أقمت فى دارها ، والسيدة «جيراردييه» زوجة أخيها . ولقد كان هذا الـ « بيير بوى » شديد الغباء ، وبلادة الذهن ، وكان عنيفا فى طباعه ، حتى اننى ابحت لنفسى أن أضحكه ، لكى اتفادى هياجه . ووضعت ــ بالأسلوب الذى انتهجته فى « النبى الصغير » ــ كتيبا من بضع صفحـــات ، اسميته « رؤيا بيير الجبلى ، الملقب بالبصير » !.. وقد وجدت فى هذا الكتاب فرصة لشن هجوم ساخر على المعجزات ، اتخذ ــ فى ذلك الحين ــ حجة رئيسية لاضطهادى . ولقد عمد « دو بييرو » الى طبع هذا الكتيب فى (جنيف) ، فلم يظفر ــ فى تلك البلاد ــ بأكثر من نجاح متوسط ، اذ أن أهالى نيوشاتيل لا يميلون كثيرا الى تقدير السخرية اللاذعة أو الدعابات الضاحكة ، برغم ما اوتوا من لماعية !

ولقد بذلت قدرا أكبر من الجهد ، فى كتاب آخر ، فى عين تلك الفترة . وقد عثرت على مخطوطه بين أوراقى ، فجدير بى

---

(١) عقب روسو على هذا بقوله : « بدأت هـــذه الظاهرة المشئومة ، منذ اقامتى فى (ايفردون) ، اذ ان السيد الاقطاعى روجان توفى بعد رحيلى عن هذه المدينة بعام أو اثنين ، فاذا أبوه الشيخ يجد من الأمانة ما يحمله على أن يخبرنى ــ وهو آسف ــ انه قد ثبت من أوراق ابنه انه قد اشترك فى مؤامرة اقصائى عن (ايفردون) وولاية (بيرن) . وقد دل هـــذا بجلاء ، على أن المؤامرة لم تكن فرية ــ كما رغب الناس فى أن يصدقوا ــ وانما كانت مجرد مظاهرة كاذبة ، اذ أن الاقطاعى « روجان » ، لم يكن بعيـــدا عن التقـوى فحسب ، وانما كان يمعن فى ماديته وكفـــره الى درجة التعصب والتهوس . والى جانب ذلك ، لم يكن فى (ايفردون) من اســتولى على ودى ، وغمرنى بالمجاملات المفرطة ، وبالملق والرياء ، كمـــا فعل الاقطاعى روجان المذكور . فكان وفيا فى اتباع الخطة المحببة لدى مضطهدى »

ان اذكر شيئا بصدده :

فعندما كانت حمى المراسيم والاضطهادات فى عنفوانها ، بز أهل (جنيف) سواهم ، بأن راحوا يطلقون صيحاتهم بأعلى مافى طاقتهم من صوت . واختار صديقى « فيرن » تلك الفترة بالذات — فى كرم جدير برجال الدين حقا ! — لينشر بعض رسائل ضدى ، حاول فيها أن يبرهن زورا على اننى لم أكن مسيحيا .. على ان هذه الرسائل — التى صيغت فى أسلوب مقنع — لم تجد نفعا ، بالرغم مما قيل من ان الطبيعى (المؤمن بالطبيعة دون الله) بونيه ، قد ساهم فيها . ذلك لأن «بونيه» هذا ، كان ماديا ، ولكنه لم يكن ليتوانى عن ان ينقلب الى متعصب دينى متعنت ، اذا ما كان الأمر يتعلق بى . ومن المحقق اننى لم اشعر بميل الى أن أرد على هذا الكتيب ، ولكن الفرصة عرضت لأقول كلمة فيه ، فى « رسائل من الجبل » ، فأوردت فى سياقه اشارة مترفعة ، أهاجت حنق « فيرن » ، فراح يملأ جنيف بصيحات غيظه ، وقال لى دانفيرنوا انه فقد حجاه .

وبعد فترة ، ظهرت وريقة لا تحمل اسم كاتبها ، وكأنما كتبت بمياه (فليجيتون) — أحد أنهار الجحيم — لا بمداد . واتهمت فى هذه الوريقة بأننى ألقيت بأبنائى الى عرض الطريق ، واننى كنت أجر ورائى احدى مومسات جنود الحرس ، وان الافراط فى الملاذ قد أنهك قواى ، واننى موبوء بالزهرى .. وما الى ذلك من أوصاف « مهذبة » !

ولم يشق على أن أعرف كاتب هذا المنشور . وكان أول ماخطر لى ، عند قراءة هذا التشهير ، هو ان اقدر بمقياسه كل ما يسمى بين الناس بالسمعة والشهرة ، فقد رأيت رجلا يتهم بأنه ربيب العواهر وهو الذى لم يرتد يوما دار فسق ، وكان أعظم عيوبه دائما ، هو انه فى حياء العذراء وخجلها .. رايتنى أوصف بأن « الزهرى » كان يفرى كيانى ، وانا الذى لم أصب يوما بأتفه الأمراض التناسلية ، بل أن أهل الاختصاص انفسهم

أكدوا اننى اوتيت حصانة فطرية ضد هذه الأمراض !

وبعد أن قلبت الرأى ، انتهيت الى ان خير طريقة لدحض هذا الافتراء ، هى أن أنشرها فى المدينـة التى أقمت فيها أكثر من سواها . لذلك أرسلت المنشور الى « دوشين » ليقوم بطبعه بنصه ، مع مقـدمة اوردت فيها اسم السيد فيرن ، وبعض سطور موجزة لايضاح الوقائع . على اننى لم أقنع بنشر هـذا المنشور ، فأرسلته بنفسى الى عدة اشخاص ، بينهم الامير لويس دى فيرتمبيرج ، الذى كان قد أظهر لى مجاملات غاية فى الكرم ، والذى كنت أبادله الرسائل ، فى ذلك الحين .. ولاح ان الأمير ، ودو بييرو ، وغيرهما ، كانوا فى شك من ان دى فيرن هو مؤلف هذا التشهير ، وعتبوا على أن ذكرت اسمه دون تحر كاف . وبناء على ملاحظـاتهم ، ندمت على ما فعلت ، وكتبت الى « دوشين » كى يوقف نشر هذه الوريقة ، فكتب الى « جاى » بأنها اوقفت . ولست أدرى ما اذا كان هذا حقا ، فقد عهدت « جاى » كثير الكذب ، فى مناسبات كثيرة ، حتى أن صدور أكذوبة جـديدة منه ، ليس بالأمر المستغرب ! .. ولقد كنت ـ اذ ذاك ـ محوطا بهـذه الظلمات الدامسة ، التى كان من المستحيل على أن أنفذ خلالها الى أى شىء من الحقيقة !

ولقد احتمل السيد ديفرن هذا الاتهام فى رزانة كانت أكثر من مستغربة بعد السخط المهتاج الذى أبداه من قبل ، لاسيما اذا صح أنه لم يكن يستحق هـذا الاتهام ! .. ولقد كتب لى رسالتين أو ثلاثا ، فى اسلوب جد حذر ، بدا لى أنه كان يرمى بها الى محاولة الوصول ـ خلال ردودى ـ الى مدى ما كنت أعرفه ، وما اذا كان لدى دليـل ضده . على اننى أجبت بخطابين قصيرين ، جافين ، خشنى المعنى دون نبو فى العبارة ، فلم يغضب منهما اطلاقا . ولكننى لم أجب عن خطابه الثالث قط ، اذ تبينت انه كان يستدرجنى الى مراسلته .. وقد ارسل دانفيرنوا ليحدثنى بهذا الصدد . وكتبت السيدة « كراميه »

الى « دو بيرو » انها كانت واثقة من ان التشهير لم يصدر عن فيرن . ولم يزحزحنى هذا كله عن اقتناعى . على انه لما كان من المحتمل ان اكون مخطئا - فأكون مدينا لفيرن باعتذار علنى ، فى هذه الحال - فقد قلت له ، عن طريق دانفيرنوا ، اننى على استعداد لأن أقدم له اعتذارا يرضيه ، اذا هو استطاع أن يبين لى الكاتب الحقيقى لهذا التشهير ، أو أن يبرهن لى - على الأقل - على أنه لم يكن هذا الكاتب . **بل اننى ذهبت الى أبعد من ذلك ، اذ شعرت بأنه - على أية حال - ليس من حقى أن أطالبه بأن يثبت لى أى شىء ، اذا لم يكن مذنبا . فعزمت على أن أكتب - فى مذكرة مسهبة - الأسباب التى حملتنى على اعتقادى ، وأن أعهد بها الى حكم فيصل لا يستطيع فيرن أن يطعن فى ذمته . وما كان أحد ليحدس هذا الفيصل الذى اخترته ، فقد وقع اختيارى على : مجلس جنيف !**

ولقد أعلنت فى نهاية المذكرة ، انه اذا قضى المجلس - بعد فحصها واجراء التحريات التى يراها لازمة ، والتى كان من السهل اجراؤها بنجاح - ان السيد فيرن لم يكن كاتب التشهير ، فاننى على استعداد لأن أكف صادقا ، منذ تلك اللحظة ، عن اعتقادى بأنه الكاتب ، ولأن أذهب فأرتمى على قدميه ، وأظل أناشده الصفح ، حتى أظفر به ! .. وبوسعى أن أقول ان تأجج غيرتى من أجل العدالة ، واستقامتى وكرم نفسى ، وثقتى فى هذا الحب - الدفين فى قلبى - نحو العدالة .. أستطيع أن أقول ان هذه لم يقدر لها يوما ان تتكشف أكثر وضوحا وكمالا مما تكشفت فى هذه المذكرة . . ولا أكثر حكمة ونفاذا الى القلوب مما تمثل فى اننى لم أتردد فى قبول ألد أعدائى ليفصلوا بينى وبين من ذمنى ! .. **ولقد قرأت هذه المذكرة على « دو بيرو » فنصحنى بأن أعدمها ، وقد فعلت . وأشار على بأن أرتقب ما قد يظهره « فيرن » من أدلة . فانتظرت ، ولا أزال أنتظر ! .. كذلك نصحنى بأن ألتزم الصمت أثناء الانتظار ، فلزمت الصمت ،**

وسأظل صامتا بقية عمرى ، ملوما على اننى وجهت الى فيرن اتهاما خطيرا ، زائفا لم يقم عليه دليل .. وان كنت لا أزال موقنا ، ومقتنعا — فى دخيلتى — بأنه كاتب ذلك الهجو ، يقينى واقتناعى بوجودى ! .. ان مذكرتى فى حوزة السيد دوبييرو ، فاذا قدر لها يوما أن ترى النور ، فستتبدى فيها حججى وأسبابى .. وآمل أن تجد روح جان جاك التى أبى معاصرى أن يفهموها ، من يفهمها اذ ذاك !

لقد حان الوقت لننتقل الى الكارثة الأخيرة فى (موتيير) ، ورحيلى عن (فال — دى — ترافير) ، بعد اقامة دامت سنتين ونصف السنة .. وبعد ثمانية اشهر من جلد لم يهن ، فى احتمال أزرى المعاملات ! .. ان من المستحيل أن أذكر بجلاء دقائق هذه الفترة غير البهيجة ، من حياتى . ولكنها ستوجد فى السيرة التى نشرها « دو بييرو » ، والتى سأتكلم عنها فيما بعد .

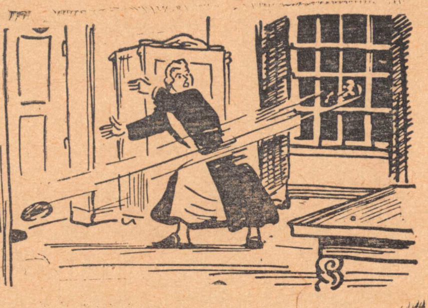
* * *

• **اشتد** الهياج عنفا ، منذ رحيل السيدة دى فيرديلان . وبالرغم من الانذارات المتكررة — من الملك — وبالرغم من الأوامر المتتابعة من مجلس الدولة ، وبالرغم من الجهود التى بذلها سيد المقاطعة، ورجال الحكومة فى المنطقة ، فقد ظل الناس يعتبروننى — فى جد واعتقاد حازم — عدوا للمسيح ! .. واذ رأوا أن كل صخبهم لم يؤد الى جدوى ، بدا أنهم تهيأوا أخيرا للاقدام على تصرفات عنيفة ! .. فبدأت الأحجار تتطاير خلفى فى الطرق ، وهى تلقى من بعد لم يكن يمكنها من أن تصيبنى .

وأخيرا .. وفى ليلة سوق (موتيير) ، التى تقام فى بداية شهر سبتمبر ، هوجمت فى عقر دارى ، التى كنت أقيم فيها ، بطريقة عرضت حياة ساكنى الدار للخطر !

ففى منتصف الليل ، سمعت جلبة فى البهو الذى كان يمتد

بطول الجزء الخلفي للدار . وانهال سيل من الأحجار ـ التى صوبت الى النافذة والباب المفضى الى البهو ـ فراحت تهوى فى ضجيج قوى ، حتى ان كلبى ، الذى اعتاد النوم فى البهو ، بدأ يعوى ، ثم أخرسه الذعر ، وهرع الى أحد الأركان ، وراح ينبش الأرض الخشبية ويقرضها ، بحثا عن مفر !.. واستيقظت على الضجة ، وفيما كنت أهم بمغادرة مخدعى ، لأنتقل الى المطبخ، اذا بحجر ـ طوحت به يد قوية ـ يهشم نافذة المطبخ، ويطير فى جوه ثم يصدم باب غرفتى فيفتحه ، ويقع عند مؤخر فراشى . ولو اننى تعجلت الخروج لحظة ، لكان قد اصاب



بطنى!.. وحدست ان هذه الضجة كانت تهدف الى استدراجى، وان الحجر القى لكى يستقبلنى وانا اغادر غرفتى .

واندفعت الى المطبخ ، فوجدت « تيريز » ، التى كانت قد استيقظت ـ هى الأخرى ـ والتى جرت الى ، وهى ترتجف . ووقفنا ملتصقين بالجدار، بعيدين عن مستوى النافذة ، لنتجنب الاصابة بالطوب ، ولنتدبر ما فى وسعنا ان نفعله .. فقد كان الخروج لطلب النجدة هو الوسيلة للقضاء علينا. ولحسن الحظ، استيقظ على الجلبة خادم شيخ جليل كان يقطن أسفل طابقنا، فجرى ليطلب النجدة من حاكم المنطقة ، الذى كان بابه مجاورا

لبابنا . فقفز من فراشه ، وألقى عباءته (الروب دى شامبر) على كتفيه فى عجلة ، وأقبل لفوره مع الحرس الذين كانوا ساهرين — فى تلك الليلة — بسبب السوق ، ومن ثم فقد كانوا على استعداد . **وكان جزع حاكم المنطقة بالغا ، حين رأى الخسائر ، حتى ان وجهه شحب .. وعند مرأى الحصى الذى امتلأ به البهو ، صاح : ((يا الهى ! .. كأننى فى محجر !)) . واذ هبطنا الى الطابق الأسفل ، وجدنا ان باب فناء صغير قد اقتحم ، وان محاولة بذلت للنفاذ الى داخل البيت ، عن طريق البهو . وعند التحرى عن سبب عدم انتباه الحراس الى هذا الشغب ، وعدم حيلولتهم دون حدوثه ، فظهر ان حراس (موتيير) ألحوا فى القيام بهذه النوبة من نوبات الحراسة ، رغم انها لم تكن نوبتهم ، اذ كان الدور على حراس من قرية أخرى !**

وفى اليوم التالى ، أرسل حاكم المنطقة تقريرا الى مجلس الدولة ، الذى انتدبه — بعد يومين — للقيام بتحقيق فى الأمر ، وبأن يعد بمكافأة ، وبكتمان سر اولئك الذين يشون بالجناة . وكان عليه فى الوقت ذاته ، ان يقيم حارسا — على نفقة الحكومة — ليحرس دارى وداره ، التى كانت ملاصقة لها . وفى اليوم التالى ، أقبل لزيارتى الكولونيل دى بورى ، وموررون المدعى العام ، ومارتينيه حاكم المنطقة ، وجوينييه محصل الضرائب ، ودانفيرنوا أمين خزانة المنطقة ، وأبوه .. وقصارى القول ، ان كل ذوى المكانة فى المنطقة ، جاءوا لزيارتى ، وأجمعوا على الالحاح على لاغرائى على أن أنحنى للعاصفة ، وان أرحل — ولو الى فترة من الزمن — عن ابرشية لم يعد بوسعى ان اعيش فيها آمنا أو مكرما . بل اننى لاحظت ان حاكم الاقليم — فى ذعره من فورة الأهالى الساخطين ، وفى جزعه من ان تمتد اليه — كان على استعداد لأن يبدى اغتباطه اذا رآنى أرحل فورا ، حتى يتخفف من مسئولية حمايتى ، وحتى يستطيع أن يبرح المنطقة هو الآخر .. وهذا ما حدث فعلا ، بعد رحيلى .

ورضخت لهم .. بل اننى انصعت دون عناء تقريبا ، لأن منظر حقد الجمهور مزق قلبى بدرجة لم اعد اقوى معها على احتمال الألم !

وكان ثمة عدة أماكن أتخير منهـا ملاذى . فلقد ذكرت لى السيدة دى فيرديلان ، فى عدة خطـابات ـ منـذ عودتها الى باريس ـ سيدا يدعى « ولبول » ، كانت تلقبه باللورد ، وكان شديد الاهتمام بأمرى ، فعرض على مقاما فى احدى ضياعه ، التى صورتها لى السيدة ابدع تصوير ، وتناولت التفصيلات الخاصة باقامتى ، وسكناى .. مما أوحى لى بمدى اهتمام اللورد والبول معها بهذا المشروع . ولقد كان اللورد مارشال يوصينى باسـتمرار بأن ألجأ الى انجلترا أو ايقوسيا ، حيث عرض على ـ هو الآخر ـ أن أقيم فى احدى ضياعه . ولـكنه عرض على كذلك ملجأ آخر فى (بوتستدام) ، كان أكثر اغراء لى ، لانه كان مجاورا لمقره . وكان قـد اطلعنى ـ من عهد قريب ـ على اقتراح أبداه الملك له بشأنى ، كان بمثابة دعوة موجهة الى،وقد ابدت السيدة دوقة ساكس ـ جوتا ارتياحها البالغ الى هذا ، حتى انها كتبت الى ملحة فى أن أزورها ، فى طريقى ، وأن أقيم أياما معها . **ولكننى احسست بميل شديد الى سويسرا ، حتى اننى لم أكن أقوى على أن أحزم أمرى على مغادرتها ، طالما كان من الممكن أن أعيش فيها . ومن ثم فقد انتهزت هذه الفرصة لتحقيق خطة كانت تشغل بالى منذ عدة اشهر ، ولم استطع ـ قبل الآن ـ ان اتحـدث عنها ، حتى لا اقطع استطراد القصة .**

كانت هذه الخطة هى أن أذهب فأقيم فى جزيرة (سان بيير)، وهى من املاك مسـتشفى (بيرن) . وكنت قد زرت مـع « دو بيرو » هذه الجزيرة ، اثناء احدى جولاتنا ، ففتنت بها حتى اننى ـ من ذلك الحين ـ لم اكف عن التفكير فى وسيلة للاقامة بها . وكانت أعظم عقبة هى ان الجزيرة كانت ملكا لاهل

(بيرن) الذين طردونى من اراضيهم — قبل ثلاث سنوات — فى ظلم مهين . وفضلا عن ان كرامتى كانت خليقة بأن تتأذى من العودة الى الاقامة بين قوم اساءوا وفادتى ، فقد كان لدى ما يبرر الخوف من انهم لن يدعونى أعيش فى هذه الجزيرة ، فى هدوء يفوق ذاك الذى كنت فيه فى (ايفردون) . ولقد استشرت السيد المارشال فى هذا الامر ، فرأى — كما رأيت — ان أهل (بيرن) خليقون بأن يشيروا بنفيى الى هذه الجزيرة ، وبان يستبقونى رهينة ازاء اية مؤلفات جديدة قد أصبو الى وضعها ، فقد اشتم منهم هذه الرغبة ، عن طريق سيد يدعى « ستيرلر » ، كان جارا قديما له فى (كولومبيه) .

ولقد خاطب السيد ستيرلر — فى هذا الشأن — كبار رجال الدولة ، واكد للسيد المارشال — استنادا الى الاجابة التى تلقاها — أن أهل (بيرن) لم يكونوا يرجون ، فى خجلهم من مسلكهم السابق ، أفضل من أن آوى الى جزيرة (سان بيير) ، وأن يدعونى أعيش هناك فى سلام . وامعانا فى الحيطة ،سعيت — قبل ان اجرؤ على الذهاب للاقامة هناك — الىالحصول على مزيد من المعلومات ، بوساطة الكولونيل « شاييه » ، الذى أكد لى هذه الأمور بالذات . واذ ظفر محصل الضرائب فى الجزيرة ، باذن من رؤسائه بأن يستضيفنى فى داره ، فقد خيل الى ان لا مخاطرة فى الذهاب الى هناك ، بعد هذا القبول الضمنى من الحكام والملاك (الشعب) ، فما كنت لأطمع فى ان يعترف سادة (بيرن)جهارا بالظلم الذى أوقعوه على، فيخرجوا على أشد المبادىء مناعة لدى كل أصحاب السلطان .

* * *

• **وتقع** جزيرة (سان بيير) — وتسمى فى نيوشاتيل بجزيرة (لاموت) — وسط بحيرة (بيين) . ويبلغ محيطها حوالى نصف فرسخ ، ولكن هذه المساحة الضئيلة تنتج كل

المحصولات الرئيسية اللازمة للحياة . ففيها حقول ، ومروج، ومراع ، وبساتين ، وغابات ، وكروم . وهذه جميعا موزعة ـ بفضل الأرض المتباينة والجبلية ـ بشكل مستحب جدا اذ ان مناظرها المختلفة ، لا تتكشف جميعا فى وقت واحد ، وانما تتعاقب فى توال متبادل ، فتوحى بأن الجزيرة أكبر مما هى فى الواقع . ويتألف الجانب الغربى منها ـ المواجه لجليريس وبونفيل ـ من مرتفع شاهق ، تكون الأشجار فيه طريقا طويلة ، يتوسطها فراغ تسده النباتات من كل جانب ، كأنه قاعة ، يجتمع فيه الوافدون من كل الشطآن المجاورة ـ فى أيام الآحاد من موسم حصاد العنب ـ ليرقصوا ويلهوا . **وليس فى الجزيرة سوى دار واحدة ، يقيم فيها محصل الضرائب . ولكنها كبيرة ، رحبة ، تقع فى منخفض يحميها من الرياح .**

وعلى خمسمائة أو ستمائة ياردة من (سان ـ بيير) ـ من الناحية الجنوبية ـ جزيرة أخرى ، أصغر منها مساحة بكثير ، غير مزروعة ولا مأهولة ، وتبدو كما لو كانت قد انفصلت عن الجزيرة الكبرى ـ فى زمن ما ـ بفعل العواصف العاتية . . وهى لاتنبت بين حصبائها سوى الصفصاف ، بيد أنها تضم بقعة مرتفعة مكسوة بالحشائش ، وذات حسن بديع . ويكاد شكل البحيرة ان يكون بيضاويا مكتمل التكوين . **ومع ان شطآنها ليست خصبة كشواطىء بحيرتى (جنيف) و (نيوشاتيل) ، الا انها ذات منظر زخرفى بديع للغاية ، لا سيما فى الجانب الغربى الكثير السكان ، وعند سفح سلسلة من التلال لها حافة من الكروم كتلك التى تحف بـ (كوت ـ روتى) ـ فى منطقة الرون ـ وان لم تشبهها فى جودة النبيذ الذى تدره .** وتوجد فى الطريق من الجنوب الى الشمال ، المناطق التابعة لقضاء (سان جان) و (بونفيل) و (بيين) و (نيداو) عند طرف البحيرة ، وقد تناثر فيها عدد من القرى البهيجة المناظر .

هكذا كان الملجأ الذى دبرته لنفسى ، والذى قررت أن أستقر

فيه اذ أبارح (فال ـ دى ـ ترافير) . ولعله ليس من اللغو غير المجدى ، أن أذكر اننى خلفت هناك عـدوا ألد ، تمثل فى السيد « دو تيرو » ـ عمدة فيرير ـ الذى لم يكن يحظى بكثير احترام فى المنطقة ، ولكنه أوتى شقيقا قيل انه رجل امين كريم ، كان يعمل فى مكاتب السيد دى سـان فلورنتان . ولقد زاره العمدة قبل الحادث الذى جرى لى بوقت قصير .. مثل هذه الملاحظات البسيطة ـ التى لا قيمة لها فى حد ذاتها ـ قـد تساعد فيما بعد ، فى الكشف عن كثير من الحوادث المستترة .

ولقد كان اختيارى هذا الملجأ متمشيا تماما مع اهوائى وطباعى الميالة الى العزلة والخمول ، حتى اننى أعده بين الأحلام العذبة التى كنت مشغوفا بها كل الشغف . ولاح لى اننى سأغدو ـ فى هذه الجزيرة ـ اكثر بعدا عن مجتمع البشر ، وفى مزيد من الأمان من اهاناتهم ، وأشد ما أكون بعدا عن ذاكرتهم .. **وقصارى القول ، اننى سأكون اكثر تحررا فى الاستسلام لمباهج البطالة وحياة التأمل . ولقد كنت أتمنى أن أعزل تماما ـ فى هذه الجزيرة ـ فلا يعود لى أى اتصال بأى انسان حى . ولقـد اتخذت ـ بلا شك ـ كل التدابير الممكن تصورها ، لأعفى نفسى من ضرورة الابقاء على هذه الحال .**

* * *

على انه لم يكن ثمة بد من القوت ، وقد كان العيش على هذه الجزيرة باهظ النفقات جدا ، من جراء ارتفاع اسعار المؤن ، وصعوبة المواصلات . فضلا عن ان المرء كان تحت رحمة محصل الضرائب . ولقد ازيلت هذه الصعوبة بتدبير تكرم السيد دوبيرو باجرائه معى ، حل بمقتضاه محل الشركة التى كانت قد تعهدت بانتاج طبعة شاملة لمؤلفاتى ، ثم تخلت عن المشروع . فوضـعت بين يديه كل المواد اللازمة ، وتعهـدت بتنسيقهـا وتوزيعها . **كذلك ارتبطت بأن أسلمه ذكريات حياتى ، وجعلته**

الوصى العام على كل أوراقى ، مع اشتراط خاص بأن لا يستغلها الا بعد وفاتى ، اذ كنت قد آليت على نفسى ان اختتم حياتى العملية فى سكينة ، دون أن أذكر الرأى العام بوجودى على قيد الحياة . وكان المعاش السنوى - الذى تعهد بدفعه فى مقابل ذلك - كاف لحاجاتى . كذلك عرض على السيد المارشال - الذى كان قد استرد كل ثروته - معاشا سنويا قدره ألف ومائتا فرنك ، لم أتقبل سوى نصفه . ولقد رغب فى أن يرسل الى مجموع المبلغ دفعة واحدة ، فرفضت ، اذ حرت فى امر استثماره ، ومن ثم فانه أرسله الى دو بييرو ، فظل بين يديه ، وانه ليسلمنى الفائدة السنوية ، على اساس الفئة المتفق عليها . ومن ثم فبضم اتفاقى مع دوبييرو ، الى المعاش الذى وهبنيه السيد المارشال - على أن يؤول ثلثاه الى «تيريز» عقب وفاتى - الى الثلاثمائة فرنك التى كنت أتسلمها سنويا من « دوشين » ، أصبح فى وسعى أن أرتكن الى دخل محترم لنفسى ، ولتيريز بعد مماتى . اذ تركت لها سبعمائة فرنك سنويا ، من معاش « ريى » ومن معاش السيد المارشال .

وهكذا لم يعد خوف لدى من أن تفتقد « تيريز » خبزها يوما ، أو من أن أشعر أنا الآخر بحاجة ! .. بيد أنه كان قد كتب لى أن اضطر الى ان انبذ كل الموارد التى ساقها الى يدى الحظ أو جهدى ، وان اموت - كما عشت - فقيرا ! ..

وسيكون فى الوسع تبين ما اذا كان فى وسعى - دون أن اتردى فى أدنى مهاوى الهوان - ان أتشبث بتدابير حرص الغير دائما على ان يجعلوها مذلة لى ، اذ عمدوا - فى عناية - الى تجريدى من اية موارد أخرى ، لكى يقسروننى على ان أرضى بالهوان . فكيف خالجهم الشك فى القرار الذى كنت خليقا بأن اتخذه ، اذا ما خيرت بين الفقر ، وبين الرخاء مع الهوان ؟ .. لقد كانوا دائما يحكمون على قلبى ، بالقياس الى قلوبهم !

* * *

• **واذ** ارتاح بالى الى موارد عيشى ، لم يعد لدى أى شاغل آخر . ومع اننى كنت قد تركت الميدان ــ فى الدنيا ــ خاليا لأعدائى ، الا اننى خلفت فى الحماس النبيل الذى أملى على مؤلفاتى ، وفى استمرار صمود مبادئى وتماسكها ، شاهدا على روحى التى كانت مسئولة عن كل النهج الذى اتخذته شخصيتى فى مسلكها . ولم أكن فى حاجة الى دفاع فوق هذا ، ضد من سعوا بمذمتى وتشويه سمعتى . انهم قد يصورون ــ تحت اسمى ــ رجلا آخر يختلف عنى تماما ، ولكنهم لا يملكون أن يخدعوا سوى أولئك الذين قد يرغبون فى أن يكونوا مخدوعين!

.. لقد كان بوسعى ان اترك لهم حياتى لينتقدوها ، من اولها الى آخرها . فلقد كنت مطمئنا الى انهم خليقون دائما بأن يجدوا ــ وراء كل اغلاطى ومواطن ضعفى ، وعدم طاقتى على احتمال اى نير ــ رجلا كان عدلا ، وصالحا ، وخلوا من الحقد والكراهية والغيرة ، على استعداد دواما لأن يعترف بأغلاطه الظالمة ، واكثر استعدادا لأن ينسى مظالم الآخرين .. رجلا كان ينشد كل سعادته فى عواطف الحب واللطف ، وكان يكشف فى كل شىء عن اخلاص بلغ مبلغ التهور وابعد حدود التجرد من الذاتية !

وعلى هذا ، فأننى ــ بشكل ما ــ ودعت القرن الذى كنت أعيش فيه ، وودعت معاصرى، وودعت مجتمع البشر ، وأويت الى هذه الجزيرة لاقضى ما تبقى لى من ايام .. فهكذا كان عزمى ، وهناك كنت أعول على ان انفذ ــ أخيرا ــ مشروعى الكبير .. مشروع الحياة الخاملة ، التى كرست لها عبثا ــ حتى ذلك الحين ــ كل الطاقة المتواضعة التى اودعتها السماء فى . لقد كانت هذه الجزيرة جديرة بأن تغدو لى كجزيرة بابيمانى(١)،

---

(١) اسم ابتكره « رابيليه » للأرض التي أوت اليها حاشية البابا

تلك البلاد السعيدة ، التى ينام فيها المرء :

((فهناك عمل جديد .. اتيان لا شىء البتة)) ! (١)

هذا ((العمل الجديد)) كان هو كل شىء لدى، لأننى لم اتحسر كثيرا عـلى النوم ، بل كانت البطالة تكفينى . فاذا ما قدرلى ألا اعمل شيئا ، فاننى أوثر احلام اليقظة على النعاس . واذ كانت سن المشروعات القصصية الخيالية قد ولت ، وبخور المجد الباطل قد أغثى نفسى أكثر مما استهوى غرورى ، فـلم يبق لى ــ كأمل أخير ــ سوى حيـــاة طلقة من كل قيــد ، تقضى فى فراغ دائم . فهذه هى حيـاة المرضى عنهم فى العالم الآخر .. ومنذ ذلك الحين ، قصرت سعادتى فى عالمى الراهن ، على هذا اللون من الحياة !

ان الذين يلومونني على كثرة متنـاقضاتى ، لن يغفلوا أن يعتبوا على ــ هنا ــ تناقضا جديدا . فلقد قلت ــ من قبل ــ ان البطالة فى المجتمعات ، كانت عبءا لا أطيقه . ومع ذلك ، فها أنذا أنشد الوحدة هنا لغرض واحد ، هو أن أسلم نفسى للبطالة . ومع ذلك ، فهكذا هى طبيعتى. واذا كان ثمة تناقض فى هذا ، فهو من عمل الطبيعة ، وليس من صنعى . ولكن هنا فارق جد صغير .. وبهذا الفارق الصغير تمتـاز شخصيتى الحقيقية . **ان بطالة المجتمعات ممضة ، لانها مفروضة بحكم الضرورة ، اما بطالة الوحدة ، فبهيجة لأنهـا طليقة ، وصادرة عن رضى ورغبة ..** ان التعطل عن عمل شىء ــ اذا كنت بين الناس ــ مهمة شـاقة ، لأننى أكون فى ذلك مضـطرا . فأنا مضطر الى أن أبقى بينهم ، مسـمرا الى مقعدى ، أو واقفـا منتصب القامة كالعسكرى فى الحراسـة ، دون أن أحرك يدا أو قدما .. لا أجرؤ على أن أجرى ، أو أن أقفز ، أو ان اغنى،

---

(١) من شعر لافونتين ، ويقصد بالعمل الجديد .. عدم العمل .

أو أن أصرح ، أو أن أشير ، اذا ما خطر لى أن أفعل .. بل انني لا أجرؤ على أن أحلم ! .. فأشعر لفورى بالسأم من البطالة ، وبكل عذاب الضيق وضبط النفس . ذلك لأننى مضطر الى أن أصيخ السمع لكل السخافات التى تقال ، وكل المجاملات التى تتبادل ، وان اعتصر قريحتى باستمرار ، حتى لا أخفق فى أن أقدم ــ بدورى ــ سخافتى أو أكذوبتى . وهذا مايسمى بالتبطل . انه عمل المحكوم عليهم بالسجن المؤبد !

أما البطالة التى أحبها ، فليست بطالة المتعطل الذى يبقى مكتوف الذراعين فى حالة توقف تام عن النشاط ، فلا تفكير ولا حركة .. البطالة التى أحبها خليط يجمع بين بطالة الطفل الذى لا يكف عن الحراك دون ما عمل ، وبطالة المخرف الذى يهيم من موضوع الى آخر ، وذراعاه ساكنتان ! .. **اننى أحب أن أشغل نفسى بالتوافه ، وأن أشرع فى مائة شىء ، ولا أتم شيئا ، وأن أجىء وأروح كما يحملنى هواى ، وأن أبدل خططى فى كل دقيقة ، وأن أتتبع ذبابة فى كل حركاتها ، وأن أحاول أن أقلقل صخرة لأتبين ما تحتها ، وأن أضطلع فى تحمس بعمل قد يستغرق عشر سنوات ، ثم أهجره ــ دون ماندم ــ بعد عشر دقائق .. وقصارى القول ، اننى أحب أن أقضى نهارى كله على غير نظام ، ودون ما تبعة ، وألا أتبع ــ فى كل شىء ــ سوى هوى لحظته ، ونزوة دقيقته !**

لقد كان علم النبات ــ كما عهدته دائما ، وكما وجدته اذ بدأ يتملكنى الشغف به ــ هو الدراسة الملائمة حقا للبطالة ، والصالحة لملء فراغ أوقاتى ، دون أن تدع مجالا لشطحات الخيال ، أو لسآمة التعطل الكامل .. فالضرب فى الغابات والريف على غير مقصد ، والاقبال الآلى على اقتطاف زهرة من هنا ، أو فرع من هناك ، والتهام الطعام دون موعد تقريبا ، وتأمل الأشياء ألف وألف مرة ــ وهى هى لم تتغير ــ بنفس الاهتمام ، لأننى كنت أنساها جميعا أولا بأول .. كل هذه

تؤلف الطريقة لانفاق الزمن السرمدى ، دون لحظة واحدة من السأم . ان تركيب النباتات – مهما يكن دقيقا ، ومهما يكن بديعا ، ومهما يكن متباينا – قل ان يسترعى العين الجاهلة الى الدرجة التى تحملها على الاهتمام به . ان التجانس الشامل المستطرد ، مع – وفى ذات الوقت – التباين الواسع النطاق ، الذى يميز أعضاء النباتات ، لايبهجان سوى اولئك الذين اوتوا فعلا فكرة ما عن نظام مملكة النبات . أما غير هؤلاء ، فانهم لا يشعرون – حين يرون كل هذه الكنوز الطبيعية – بغير اعجاب جامد ، متواتر على نسق واحد .. انهم لايرون شيئا – بتفصيله أو دقائقه – لأنهم لا يكادون يعرفون أين يجب أن تتجه نظرتهم .. ثم انهم لا يرونه فى مجموعه كذلك – لانهم لم يؤتوا فكرة عن تسلسل الروابط والصلات التى تحير بطرافتها وغرابتها ذهن المتأمل . **ولقد كنت – وكانت ذاكرتى الكليلة خليقة بأن تستبقينى دائما – فى تلك الحال المريحة .. الحال التى لم أكن أعرف فيها عن الشىء سوى القدر الضئيل الذى لا يبديه فى عينى جديدا .. ولكن هذا القدر كان كافيا لأن يحملنى على التفكير !** . وكان تباين انواع التربة الموزعة فى ارجاء الجزيرة ، بالرغم من صغر مساحتها ، يتيح لى تباينا فى نباتاتها ، كافيا للدراسة والتأمل بقية عمرى .. فعزمت على ان لا ادع عرقا واحدا من عشب ، دون أن أفحصه . وبدأت بالفعل اتخذ التدابير لأكتب عن مملكة النبات (١) ، موردا مجموعة هائلة من المشاهدات الطريفة والغريبة !

* * *

• **وأرسلت** فى طلب « تيريز » وكتبى وأمتعتى ، فأقمنا فى

---

(١) Flora Petrinsularis

دار محصل الضرائب . وكانت شقيقات زوجته ــ اللائى كن يقمن فى (نيداو) ــ يفدن لزيارتها ، كل بدورها ، فكان فى هذا ايناس لتيريز . وهناك احسست بحياة ناعمة كنت اتمنى لو تدوم الى ما بعد انتهاء حياتى ، ولكن الشغف الذى تولانى بها ، لم يؤد الا الى زيادة احساسى بمرارة تلك الحياة التى كانت موشكة على أن تعقبها

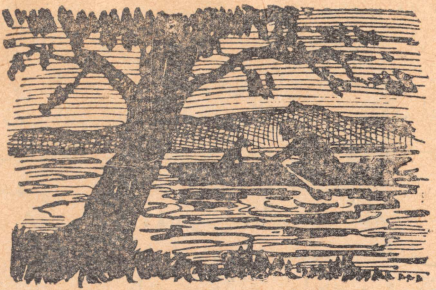
لقد اعتدت دائما أن أحب الماء حب المشغوف ، حتى ان مرآه يلقى بى الى أحلام عذبة ، رغم انها كثيرا ما تفتقد الغاية المحددة . فلم أغفل يوما عند يقظتى ، ان اهرع الى الشرفة ــ عندما يكون الطقس معتدلا ــ لأعب من هواء الصباح الصحى العليل ، ولأطلق نظراتى الى افق البحيرة الجميلة ، التى كانت الجبال تحيط شطآنها ، فتؤلف منظرا فاتنا . ولم أكن أجد تحية جديرة بالذات الالهية اكثر من الاعجاب الصامت ، الذى ينبع من تأمل خلقها ، والذى يعجز عن أن يعبر عن ذاته بتصرفات ظاهرة .. **ان بوسعى أن أدرك السر فى ان سكان المدن ــ الذين لا يرون سوى الجدران والطرقات والجرائم ــ لا يؤتون سوى القليل من الايمان . ولكنى لا أستطيع أن أفهم السر فى ان أولئك الذين يعيشون فى الريف ــ لا سيما فى الأماكن المنعزلة ــ يستطيعون أن يضلوا الطريق الى الايمان !** .. كيف يتسنى لأرواحهم أن لا تسمو فى غيبوبة نشوانة ، مائة مرة فى اليوم ، نحو مبدع العجائب التى تذهلهم ؟ .. أما انا ، فقد اعتدت من امد طويل ان انساق عقب اليقظة بوجه خاص ــ وانا بعد كليل الجسم لحرمانى من النوم طيلة ليلى ــ الى تلك النوبات التى يسمو فيها قلبى محلقا ، والتى لا تفرض على عناء التفكير . على انه لا بد ــ لحدوث ذلك ــ من ان يصافح عينى سحر منظر الطبيعة ! .. أما فى حجرتى ، فان صلواتى لا تنبعث بمثل هذه الكثرة او الحرارة ، ولكنى أشعر ــ اذا ما رأيت منظرا طبيعيا جميلا ــ بتأثر عاطفى لا أدرى مأتاه . واذكر اننى

قرأت عن أسقف حكيم ، صادف أثناء زيارته لأبرشيته ، عجوزا لم تكن تملك فى صلاتها ان تقول أكثر من : « اواه ! » . فقال لها الأسقف : « واصلى صلاتك على هذا النحو ، ايتها الأم الصالحة ، فان صلاتك هذه خير من صلواتنا » .. **وهذه الصلاة - التى هى خير من سواها - هى صلاتى أنا الآخر !**

وكنت أسرع - بعد الفطور - الى كتابة بعض الرسائل المقتضبة ، وأنا متجهم ، ضيق الصدر ، متلهف الى اللحظة السعيدة التى لا أعود فيها بحاجة الى الكتابة . وكنت أقلب كتبى وأوراقى لبضع لحظات ، رغبة فى فرزها وترتيبها ، اكثر منى فى قراءتها . وكانت هذه المهمة تتيح لى متعة التأمل الفكرى للحظات قلائل ، أمل بعدها العمل ، فأقضى الساعات الثلاث أو الاربع المتبقية من فترة الصباح ، فى دراسة علم النبات ، لاسيما منهج « ليناوس » ، الذى تملكنى الشغف به ، حتى أننى لم أقو على التحول عنه تماما ، حتى بعد أن تبينت عيوبه . فان هذا المدقق العظيم ، هو ، فى رأيى ، الوحيد بعد « لودفيج » - حتى يومنا هذا - الذى نظر الى علم النبات من ناحية رجل الطبيعة والفيلسوف . ولكنه أفرط - أكثر مما ينبغى - فى الاعتماد فى دراسته على مجموعات الاعشاب المجففة وعلى الحدائق ، فلم يأخذ عن الطبيعة الا القليل . **أما أنا ، فقد كانت الجزيرة بأسرها حديقة لى ، وما ان احتاج الى أن أتأمل أو أتحرى شيئا ، حتى أهرع الى الغابات او المروج ، متأبطا كتابا .. وهناك ، كنت أنطرح على الارض بجانب النبات الذى أقصده ، فأفحصه فى مكانه ، على مهل** . ولقد أعانتنى هذه الطريقة أكبر العون ، على ان أحصل معرفة بالنباتات وهى فى وضعها الطبيعى ، قبل ان تستنبتها يد الانسان وتنأى بها عن طبيعتها ! .. ويقال ان « فاجون » - الطبيب الاول للملك لويس الرابع عشر - كان ملما بأسماء جميع نباتات الحديقة الملكية ، وعلى معرفة تامة بها . ولكنه بقدر علمه هذا ، كان جاهلا بنفس

النباتات ، فى الريف ، حتى انه كان يعجز عن معرفة شيء منها. وهـذا على النقيض منى تماما ، فانى اعرف شيئا عن نتـاج الطبيعة ، ولكن لا اعرف البته عن نتاج البستانى !

أمـا الأوقات التى كانت تعقب الغـداء ، فقد اعتـدت أن أستسلم فيها تماما لميلى للبطالة وعدم الاكتراث بشيء ،وكنت أتبع وحى لحظتى ، دون ما قاعدة أو نظـام . وفى كثـير من الأحيان كنت ابادر فور مغادرتى المائدة ـ عندما يكون الهواء ساكنا ـ الى القفز وحيدا الى قارب صغير ، علمنى محصـل الضرائب كيف أتسلط عليه بمجداف واحد ، فـكنت أجدف الى منتصف البحيرة . **وكانت لحظـة انطلاقى تبعث فى نفسى فرحة يختلج لها قلبى . ومن المستحيل على أن أصف هـذا الشـعور ، أو أن أعلله .. اللهم الا أن يـكون اغتباطا مستترا بأننى ـ فى هذه الحال ـ بمنأى عن الأشرار !** ..وكنت أجدف فى البحيرة وحيدا ، اقترب من الشاطيء أحيانا ، ولكنى لم أكن أرسو عليه قط . وكثيرا ماتركت قاربى لرحمة الماء والهواء ، وأسلمت نفسى لخواطر شاردة ، قد تكون منطوية على غباء ، ولكن هذا لم يكن يضعف من عذوبتها . وكنت أهتف أحيانا ، فى انفعال : « أواه ، أيتها الطبيعة ! .. اواه ، يا أمى ! ها أنذا فى حمايتك وحدك ! .. ما من انسان لئيم خبيث هنا ، ليحول بينى وبينك ! » . وعلى هذا النحو كنت أبتعد عن البر بنصف فرسخ ، وأنا أتمنى لو ان هذه البحيرة كانت محيطا ! .. على اننى ـ رغبة فى ارضاء كلبى المسكين ، الذى لم يكن شـديد الحب مثلى لهذه النزهات المائية الطويلة ـ اعتدت أن أجعـل لنزهتى غاية .. تلك هى ان ارسو عنـد الجزيرة الصغيرة ، فأتمشى على ارضها ساعة أو ساعتين ، أو استلقى على الحشائش على قمة البقعة المرتفعة فيهـا ، لأستمريء لذة الاعجاب بهذه البحيرة وبمـا يحيط بها ، ولأعـتكف على فحص وتشريح كل النباتات التى تقع عليها يدى ، ولأبنى لنفسى مسكنا خياليا ،



على هذه الجزيرة الصغيرة ، وكأننى «روبنصن كروزو» جديد! .. ولقد تعلق قلبى بهذه البقعة المرتفعة ! . وعند ما كنت أصحب «تيريز» وزوجة محصل الضرائب وشقيقاتها للنزهة، كان الزهو يستخفنى بأن أكون دليلهن ومرشدهن ! .. ولقد نقلنا — فى موكب بهيج — بعض الأرانب لنعمر بها هذه البقعة ، فكان هذا عيدا من اعياد جان جاك ! .. ولقد اضفى هؤلاء السكان على الجزيرة الصغيرة مزيدا من الرواء والقيمة ، فى نظرى . فأصبحت اكثر من التردد عليها فى مزيد من السرور، لأتفقد مظاهر تقدم السكان الجدد !

* * *

• **ولقد** أضفت الى هذه الملاهى ، ملهاة أخرى ذكرتنى بالحياة البهيجة فى (ليه شارميت) ، وحفزنى اليها ، ذلك الفصل من السنة . تلك هى ممارسة أعمال الحياة الريفية بجمع الفاكهة والخضر ، التى كنت وتيريز نسر أن نتقاسمها مع محصل الضرائب واسرته . واذكر ان شخصا من ابناء (بيرن) — يدعى السيد كيرشبيرجر — جاء يوما لزيارتى ، فوجدنى محشورا فوق فروع شجرة عالية ، وقد ربطت الى خاصرتى

كيسا امتلأ بالتفاح الى درجة تعذرت على معها الحركة ! .. ولم أستأ لهذا اللقاء ، ولا للقاءات أخرى على شاكلته ، بل انني رجوت أن يكف أهل (بيرن) عن ان يعكروا صفو فراغي ـ بعد أن رأوا كيف كنت أستغله ـ وان يدعوني في عزلتي آمنا : ولقد كنت اوثر ان اكون حبيس هذه الجزيرة بارادتهم ، وليس بارادتي . لانني كنت خليقا بأن أكون ـ في هذه الحال ـ أكثر اطمئنانا الى عدم تعكير صفو راحتي !

ان في هذا اعترافا من تلك الاعترافات ، التي أشعر ـ مقدما ـ بأنها لن تلقى تصديقا من أولئك القراء الذين يصرون دائما على أن يحكموا علي بالقياس الى أنفسهم ، بالرغم من أنهم قد رأوا مرغمين ـ في سياق حياتي بأسره ـ ألف احساس داخلي لا يشبه البتة أحاسيسهم في شيء ! .. **وأغرب ما في الأمر ، انهم في الوقت الذي ينكرون علي فيه كل شعور طيب أو مبرأ لم يؤتوه هم ، اذا بهم على أتم الاستعداد لأن يخلعوا على من خبيث المشاعر ما لا قبل لهم بأن يبثوه ـ لو شاءوا ـ في أي قلب بشري ! .. فهم يجدون من البساطة أن يصوروني على نقيض الطبيعة ، وأن يرسموني كوحش هائل لايمكن أن يكون له وجود . ذلك لأنهم يرون ان ليس ثمة سخافة تجل على التصديق ، مادامت موجهة الى تشويه سمعتي .. وليس من شيء خارق يبدو لهم محتملا ، طالما كان فيه تمجيد لي**

ولكنني سأمضي بنفس الاخلاص الصادق ـ بالرغم مما قد يقولون أو يعتقدون ـ في عرض ما كان عليه «جان جاك روسو» ، وما كان يفعله ، وما كان يطوف بخاطره ، دون ما ايضاح أو تبرير لغرابة مشاعره وآرائه ، ودون أن أتحرى عما اذا كان سواه قد فكر على نسقه . ولقد استهوتني جزيرة (سان بيير) ، وكنت جد مرتاح اليها ، حتى انني لفرط تركيز رغباتي على هذه الجزيرة ، عزمت على أن لاأبرحها اطلاقا . فلقد ضقت ـ بيني وبين نفسي ـ بالزيارات التي كنت مضطرا الى ادائها في

المناطق المحيطة ، والرحلات التى كنت مجبرا على القيام بها الى (نيوشاتيل) و (بيين) ، و(ايفردون) ، و(نيداو) .. كان اليوم الذى أقضيه خارج الجزيرة ، يبدو لى بمثابة انتقاص من سعادتى . كما ان تجاوز نطاق البحيرة ، غدا بالنسبة لى بمثابة تحول عن طبيعتى الفطرية . وفضلا عن ذلك ، فان تجاربى الماضية جعلتنى هيابا ، فما ان كنت اصادف شيئا يرتاح اليه قلبى ، حتى أتوقع أن أفقده .. وغـدت رغبتى الحارة فى أن أختتم عمرى فى هذه الجزيرة ، مرتبطة ـ ارتباطا لا انفصام له ـ بالخوف من أن أقسر على مغادرتها !

واعتدت أن أذهب كل مساء ، فأجلس على الشاطىء ، لاسيما حين تكون البحيرة متلاطمة الامواج .. كنت احس بلذة فذة اذ أرى الأمواج تتكسر عند قدمى ، فقد كانت تمثل لى اصطخاب الدنيا ، وسكينة معقلى . وكانت هـذه الفكرة تهفو بعواطفى احيانا ، حتى اشعر بالدموع تتساقط من عينى !.. ولم يكن يعكر هذه السكينة ـ التى اعتدت أن أستمتع بها بكل عواطفى ـ سوى توجس فقدانها .. على أن هـذا التوجس بالذات ، كان يفسد سحرها على ! .. كنت أشعر بوضعى متأرجحا الى درجـة لا تمكننى من ان اجرؤ على ان اعول عليه ، او اطمئن اليه ! .. وكنت أقول لنفسى : « **آه ! .. كم أتمنى راضيا أن أستبدل حريتى فى مغادرة الجزيرة ـ الأمر الذى لا أحفل به اطلاقا ـ بضمان تمكنى من البقاء فيها دائما !.. لماذا لااستبقى هنـا قسرا ، بدلا من أن أبقى تفضـلا ؟ .. ان اولئك الذين يدعوننى هنا ـ من قبيل التفضل ـ يستطيعون ان يطردونى فى اية لحظة ، فـكيف لى أن أجـرؤ على الأمل فى أن يدعنى مضطهدى أواصل هناءتى ـ التى يروننى عليها ـ هنا ؟ .. آه ! ان السماح لى بالعيش هنا ، أقل مما أصبو اليه .. انما اتمنى أن يقضى على بالبقاء .. ان اقسر على البقاء فى هذه الجزيرة ، حتى لا اغصب على مبارحتها !) »** .. وكنت ارمق بحسد ذلك

السعيد « ميكيلى دوكريه » ، الذى كان يعيش آمنا فى قلعة (داربيرج) ، دون ان ينقصه ـ لكى يكون سعيدا ـ سوى أن يرغب فى السعادة ! !

وأخيرا ، انتهيت ـ لفرط استسلامى لهذه الخواطر ، وللهواجس المزعجة التى كانت تجعلنى دائما فى خوف من انقضاض عواصف جديدة على رأسى ـ الى ان اتمنى ، فى لهفة تفوق كل تصور ، أن يعدل ظالمى عن مجرد التساهل معى ازاء مقامى فى الجزيرة ، وان يجعلوها سجنا يقسروننى على ملازمته طيلة حياتى .. وبوسعى أن أقسم اننى لو كنت أملك السلطة على ان احصل على حكم بهذا الصدد ، لفعلت بأقصى اغتباط ، اذ كنت أوثر ـ الف مرة ـ أن أضطر اضطرارا الى قضاء بقية عمرى هناك ، على أن أتعرض لخطر الطرد منها !

* * *

• **ولم** تبق هواجسى طويلا ، دون تحقيق .. فقد تلقيت ـ وأنا أقل ما أكون توقعا لذلك ـ خطابا من حاكم (نيداو) ، الذى كانت جزيرة (سان بيير) فى نطاق سلطانه .. وفى هذا الخطاب ، أبلغنى ـ نيابة عن حكومته ـ الأمر بمغادرة الجزيرة والاراضى التابعة لهذه الحكومة !

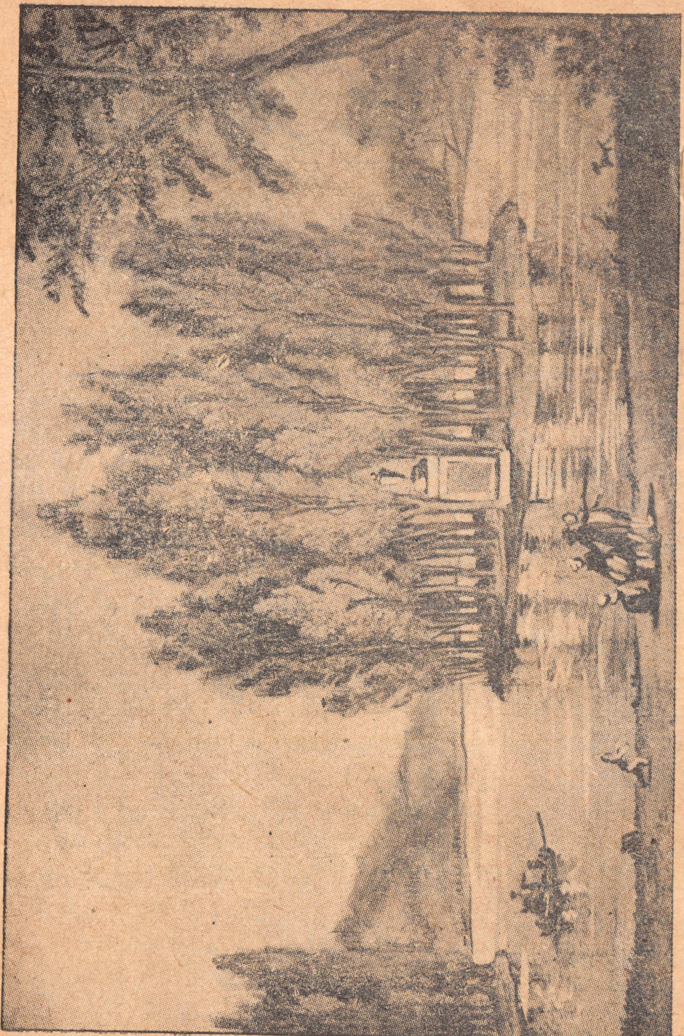
وخيل الى ، عندما قرأت الخطاب ، اننى كنت أحلم ، فما كان ثمة ما هو ابعد عن الطبيعى ، ولا ما هو ابعد عن المنطق ، ولا ما هو أبعد عن التوقع ، من مثل هذا الأمر . ذلك لأننى كنت قد نظرت الى هواجسى على انها قلق رجل أزعجته مصائبه ، اكثر منها توقعات تستند الى اتفه اساس . وكانت الخطوات التى اتخذتها لأطمئن نفسى الى القبول الضمنى الذى صدر من السلطات ، والى الأسلوب الوادع الذى أبيح لى بمقتضاه أن أستقر فى الجزيرة ، والى الزيارات التى تلقيتها من عديد من أهل (بيرن) ومن الحاكم نفسه ـ الذى أذهلنى بما أبداه

نحوى من ود ورعاية — والى قسوة الطقس ، التى كانت تجعل من العنف الوحشى طرد رجل معلول من مأواه .. **كل هذه الاعتبارات ، جعلتنى — وجعلت كثيرين غيرى — يؤمنون بأن ثمة شبهات تحوم حول هذا الأمر ، وأن ذوى النوايا السيئة نحوى ، قد تعمدوا اختيار وقت جنى العنب وتغيب أعضاء مجلس الشيوخ ، كى يوقعوا بى هذه الضربة فجأة ، وبحدة !**

ولو اننى اصغيت لأول ايعاز من كرامتى ، لكنت قد بادرت الى الرحيل فورا . ولكن ، الى أين كنت أذهب ؟ .. وماذا يجرى والشتاء قد أقبل ، وليس لى من مقصد ، ولا اتخذت عدة ، وليس ثمة مرشد ، ولا عربات للنقل ؟ .. وما لم أترك ورائى كل شىء — اوراقى ، وامتعتى ، وكل شئونى — فقد كنت بحاجة الى وقت كى اعدها للنقل .. ثم ان الامر لم يذكر ما اذا كان يسمح لى بأخذها أو لا يسمح !

وبدأت ملاحقة المصائب توهن جلدى .. ولأول مرة فى حياتى ، شعرت بكبريائى الفطرية تنحنى تحت وطأة الضرورة . وبالرغم من تذمر قلبى ، لم يكن ثمة بد من أن أتنزل فأطلب امهالا . والى السيد دى جرافنرييه — الذى أرسل الى الأمر — وجهت مسعاى . وكان فى خطابه قد عبر عن استهجانه الشديد لهذا الأمر ، وانه ما أبلغنى اياه الا فى أسف بالغ . فلاح لى مما ملأ الخطاب من مظاهر الألم والتقدير ، أن هذا الخطاب لم يكن سوى دعوة مترفقة ، متلطفة ، الى أن أفاتحه بما فى صدرى .. وهذا ما فعلته . ولم أشك فى ان خطابى خليق بأن يفتح عيون

جزيرة (دى بوبلير) فى أرمينوفيل
وبها قبر « روسو »
(لوحة من رسم الفنان مورو الشاب سنة ١٧٧٨)



هؤلاء الجائرين على تصرفهم المجرد من الانسانيــة ، وانهم ـ ولو لم يلغوا مثل هذا الامر القاسي ـ سيمنحونني مهلة معقولة ، قد تشمل الشتاء كله ، لكي أستعد للرحيل ، ولكي اختار مكانا ألجأ اليه .

وأخــذت ـ فى انتظار جوابه ـ أفــكر فى موقفى ، وأتدبر القرار الذى كان على أن أتخذه . ورأيت كثيرا من الصعاب فى كل ناحية . وكان الحزن قد أثر على أشد تأثير ، كمــا كانت صحتى ـ فى تلك الآونة ـ فى أسوأ حال ، فأسلمت نفسى للتداعى ، واذا ثبوط همتى يجردنى مما تبقى لى من قوى عقلية متواضعة ، كان من الممكن ان تساعدنى على أن أبت فى موقفى المحزن .. **كان من الواضح اننى لم أكن أملك أن أتفــادى ـ فى أى مكان قد ألوذ به ـ أن أتعرض للأسلوبين اللذين استخــدما ، حتى ذلك الحــين ، فى طردى .. وأولهما : اثارة الناس ضــدى ، بالدسائس المتوارية .. فى حين ان الثــانى ، هو : نفيى بالقوة الصريحة ، دون ابداء أى سبب أو مبرر لذلك !**

ومن ثم فاننى لم أكن أملك أن أعول على أى ملجأ ، واطمأن الى انه مأمون ، اللهم الا اذا ذهبت الى ابعــد مما كانت قواى ، وموسم الشتاء ، تسمح به ، على ما تراءى لى ! .. ولقــد عادت بى كل هذه الاعتبارات ، الى عين الأفــكار التى كانت تشغل بالى منذ البداية . ورحت اشتهى لو اننى سجنت طيلة العمر ، بدلا من اساق الى ان اضرب فى الارض ، بلا انقطاع ! وان اطرد من كل مكان ألوذ به ، على التعاقب !

وبعد رسالتى الأولى بيومين ، كتبت رسالة ثانية الى السيد دى جرافنرييه ، أسأله أن يعرض الاقتراح على المجلس .. وجاء الرد على هاتين الرسالتين من (بيرن) . وكان أمرا صيغ فى أخشن عبارات رسمية ، بأن اغادر الجزيرة ، وكل الاراضى التى تتبع الجمهورية ـ مباشرة أو غير مباشرة ـ فى أربع وعشرين ساعة ، وأن لا اعود الى دخولهــا قط ، والا تعرضت لأقسى

صنوف العقاب !

* * *

• **وكانت** تلك اللحظة رهيبة .. ووجدت نفسى بعدها فى أقسى الهموم ، وليس فى اعظم حيرة !.. على أن أشد ما آلمنى هو ان اضطر الى التخلى عن المشروع الذى كان يجعلنى اشتهى قضاء الشتاء فى الجزيرة . وقد حان الوقت كى أروى القصة الأليمة التى توجت مصائبى ، والتى استدرجت ـ الى القضاء على ـ شعبا تعسا ، كانت فضائله المتزايدة تبشر بأنه سيعادل يوما شعبى (اسبارطة) و (روما) .

فلقد تحدثت فى « العقد الاجتماعى » عن الكورسيكيين كشعب جديد ، كان هو الشعب الوحيد ـ فى اوربا ـ الذى لم يستغله التشريع أو يفسده . وقد اوضحت ان ثمة آمالا كبارا قد ترتجى من مثل هؤلاء القوم ، لو انهم وجدوا مرشدا حكيما !

ولقد اطلع على كتابى بعض الكورسيكيين ، الذين قدروا الأسلوب الكريم الذى تحدثت به عن شعبهم،واذ ألفوا أنفسهم مضطرين الى ان يكرسوا كل همهم الى انشاء جمهوريتهم ، فقد رأى بعض زعمائهم أن يستشيروننى فى هذا العمل الجليل . وكتب الى ـ بهذا الصدد ـ سيد يدعى « بوتافوكو » ، كان ينتمى الى احدى الأسرات الكبرى فى الجزيرة ، وكان « كابتن » فى اللواء الملكى الايطالى بفرنسا . وقد امدنى بعدد من الوثائق التى كنت قد طلبتها منه ، لكى ازداد تعرفا على تاريخ الأمة ، وعلى أحوال البلد . كذلك كتب لى السيد «باولى» عدة مرات . ومع اننى شعرت بأن مثل هذه المهمة فوق ما تتحمل قواى ، الا اننى رأيت أن لا سبيل الى ان اضن بمعونتى فى مثل هذه المهمة الجليلة السامية ، بعد ان حصلت على كل البيانات التى طلبتها . وبهذا المعنى كتبت الى كل من السيدين ، وقد استمر

تبادل الرسائل الى ان غادرت (سان بيير) .

وفى تلك الفترة بالذات ، سمعت ان فرنسا كانت توفد جنودها الى (كورسيكا) ، وانها عقدت معاهدة مع اهل (جنوا) . ولقد أثارت هذه المعاهدة ، وايفاد الجنود ، قلقى . **ودون أن اتصور أن تكون لى اية علاقة بذلك ، قدرت ان من المستحيل — بل ومن العبث — أن أكرس اهتمامى لعمل يتطلب هدوءا وسكينة كاملين .. واعنى به تنظيم شعب ، فى اللحظة التى كان يحتمل ان يكون فيها على شفا اخضاعه لنير الطغيان !**

ولم أخف قلقى عن السيد « بوتافوكو » ، الذى طمأننى بأن أكد لى انه — كمواطن صالح — ما كان ليبقى فى خدمة فرنسا ، كما كان فعلا ، لو ان هذه المعاهدة اشتملت على ما يمس حرية بلاده . والواقع ان تحمسه للتبريرات التشريعية لكورسيكا ، وعلاقته الوثيقة بالسيد (باولى) ، حالتا دون ان يخالجنى أى شك من ناحيته . وعندما سمعت انه كان يكثر من التردد على (فرساى) و (فونتينبلو) ، وانه كان يقابل السيد دى شوازيل ، لم أملك سوى ان استنتج انه حصل على ضمانات بشأن النوايا الحقيقية للبلاط الفرنسى . وهو الأمر الذى تركنى احدسه ، ولكنه لم يبد رغبة فى ان يشرح ما لديه بشأنه بجلاء ، فى خطاب !

ولقد طمأننى كل هذا ، الى حد ما . على أننى لم أقو على ان افهم معنى ايفاد الجنود الفرنسيين ، ولم استطع ان ارى أى اغراء يوحى بتصديق انهم كانوا لحماية حرية الكورسيكيين ، فقد كان هؤلاء جد قادرين على ان يذودوا عن حريتهم بأنفسهم ضد اهل جنوا .. **كذلك لم أكن املك ان اشعر بارتياح تام ، الى ان اوقف اهتمامى فى اخلاص صادق لوضع الدستور المقترح ، مالم يكن لدى الدليل المقنع بأنه لم يكن مجرد دعابة للضحك منى !** .. ولكم كنت أرجو ان اتحدث الى السيد

بوتافوكو ، فقد كانت هذه هى الوسيلة الوحيدة لكى احصل منه على الايضاحات التى كنت انشدها . ولقد ابدى امله فى ان يتاح لنا لقاء ، فرحت انتظر هـذا اللقاء بصبر جد نافد . ولست ادرى ما اذا كان قد اعتزم حقا ان يتيح لى لقاء ، ولكن .. لو ان هذه كانت نيته حقا ، لكانت محنى خليقة بأن تمنعنى من ان افيد من هذا اللقاء !

* * *

• **وكنت** كلما أطلت التفكير فى المشروع المقترح ، وكلما أمعنت فى فحص الوثائق التى كانت بين يدى ، ازددت شعورا بالحاجة الملحة الى أن ادرس ـ عن كثب ـ البلاد ، والشعب الذى كان التشريع يعد له ، والأرض التى يقيم عليها ، وكافة الوجوه التى كان عليه أن يطبق هذا التشريع فيهـا . وكنت أزداد ادراكا ـ يوما بعد يوم ـ بأنه من المستحيل أن اظفر ـ وانا بعيد ـ بكافة الاضواء اللازمة لارشادى . ولقد كتبت عن هذه الأمور الى « بوتافوكو » ، فاذا به كان يشعر بها . واذا كنت لم استقر تماما على قرار الانتقال الى كورسيكا ، الا اننى شغلت كل الشغل بوسائل أداء هذه الرحلة . فتكلمت الى السيد داستييه ، الذى كان خليقا بأن يلم بها ، اذ كان قد عمل حينا ـ فيما مضى ـ تحت رئاسة السيد دى مايبوا . ولكنه لم يدخر وسعا ، فى سبيل اثنائى عن نيتى ، واعترف ان الصورة البشعة التى رسمها للكورسيكيين وبلادهم ، أخبت كثيرا من جذوة رغبتى فى الذهاب اليهم والاقامة بينهم !

على أن هذه الرغبة عادت الى التأجج ـ عندما أدى الاضطهاد الذى تعرضت اليه فى (موتيير) الى أن أفكر فى مغادرة سويسرا ـ بفضل الامل فى ان اجد بين هؤلاء الجزائريين الهدوء الذى حرمت منه فى كل مكان آخر . ولم يكن يزعجنى ـ بصدد هذه الرحلة ـ سوى امر واحد .. عدم قدرتى الصحية عليها ،

والنفور الذى طالما تملكنى نحو الحياة النشيطة التى قد اضطر الى ممارستها . ذلك لأن الطبيعة هيأتنى لكى أتأمل وافكر فى الوحدة ، وحسب هواى ، ومن ثم فاننى لم أكن مهيأ البتة للكلام ، والعمل ، وتوجيه الشئون والمسائل ، وسط الناس .. ان الطبيعة حين منحتنى الموهبة للحال الأولى ، أبت على الموهبة الثانية ! .. ومع ذلك ، فقد شعرت اننى خليق بأن أضطر بمجرد وصولى الى كورسيكا ، بأن ألقى بنفسى فى غمار تلهف الشعب ، وأن أعقد عدة مؤتمرات مع الشخصيات التى تتولى الزعامة فى الجزيرة ، ولو لم أساهم بدور مباشر فى المسائل العامة . وكانت غاية رحلتى ذاتها ، تفرض على السعى – وسط هذه الأمة – الى العثور على المعلومات التى كنت انشدها ، بدلا من السعى الى الراحة والعزلة .. كان من الواضح اننى لن أستطيع ان اظل بحريتى واستقلالى ، اذ اننى سأدفع – على الرغم منى – الى دوامة من النشاط ، لم أكن بفطرتى مهيئا لها .. واننى سأمارس حياة تتعارض تماما مع أهوائى ، ولا توحى بنفع لى . وتكهنت بأننى لن أحقق بوجودى ، الفكرة التى ربما كانت قد تكونت عن مقدرتى خلال كتبى .. وكان معنى ذلك ، أن أفقد مكانتى لدى الكورسيكيين ، بعد الثقة التى أضفوها على ، والتى ما كنت لأملك بدونها ان احقق العمل الذى كانوا يتوقعونه منى . ولقد شعرت بيقين من اننى اذ أخرج – بهذا – من الجو الذى خلقت به ، لن أغدو ذا نفع لهم ، وانما سأعمل على اشقاء نفسى !

* * *

• **وكنت** مكروبا ، معذبا ، حطمتنى العواصف من كل نوع ، واضنتنى التنقلات والاضطهادات خلال السنوات العديدة ، وأصبحت أشعر شعورا طاغيا بالحاجة الى الراحة التى اتخذ اعدائى – الغلاظ القلوب – ملهاة من حرمانى منها ! .. ورحت

اتنهد حسرة ـ كما لم أتنهد من قبل ـ على ذلك الفراغ المحبب الى نفسي، وعلى تلك الدعة الناعمة التى تشمل عقلى وجسمى، والتى طالما صبوت اليها واقتصرت عليها السعادة العظمى لقلبى الذى شفى من أوهام الحب والصداقة !

لذلك تطلعت فى جزع الى المهمة التى كنت أوشك أن أقدم عليها .. الى الحياة الصاخبة التى كنت اوشك على أن انغمس فيها .. **واذا كان جلال الهدف وجماله ونفعه قد أذكت عزيمتى، فان استحالة ارضاء نفسى بالنجاح ، وتعويضها عما كانت فيه، ثبط تلك العزيمة تماما !** .. ان عشرين عاما من التفكير العميق والتأمل ـ فى وحدة ـ كانت أقل عناء ، فى نظرى ، من ستة أشهر أقضيها فى حياة حافلة بالنشاط ، وسط أناس ومسائل عامة كنت موقنا من الفشل فيها !

وفكرت فى حيلة لاحت لى جد مناسبة لتسوية كل شىء .. ذلك لأننى ـ وقد كانت تتعقبنى ، فى كل مكان ، المؤامرات الخفية التى كان يبذلها ظالمى المستترون ـ لم أر سوى (كورسيكا) مكانا أستطيع أن أتطلع اليه فى شيخوختى ، للحصول على الراحة التى أبوها على فى كل مكان ، **فقررت ان أذهب الى هناك ، وفقا لتعليمات ((بوتافوكو)) ، بمجرد ان يتسنى لى ذلك . ولكننى عقدت عزمى ـ لكى أعيش فى هدوء هناك ـ على أن أطرح عنى مهمة التشريع ، ولو فى الظاهر ،على الأقل . ولكى ارد الى مضيفى كرمهم ، بطريقة ما ، قررت أن اعكف على كتابة تاريخهم ، فى مسرحه** .. على أن أجمع ـ فى هدوء ـ المعلومات اللازمة التى تجعلنى ذا نفع كبير لهم ، اذا ما لاح لى أى أمل فى النجاح . وداخلنى الأمل بأن استطيع ـ اذا لم أقيد نفسى بشىء ، على هذا النسق ـ أن افكر فيما بينى وبين نفسى ، وانا مطلق الحرية ، فى مشروع مناسب ، دون أن أنبذ آمالى المشتهاة فى العزلة ، ودون أن أنتهج أى أسلوب للحياة لا أقوى على احتماله ، ولا انا مهيأ له !

غير ان هذه الرحلة لم تكن سهلة التحقق ، فى وضعى الراهن . فعلى ما انبأنى به السيد داستييه عن (كورسيكا) ، لم اتوقع ان أجد هناك ابسط اسباب الراحة فى الحياة ، مالم اصحب هذه الأسباب معي : من أقمشة ، الي ملابس ، الى أطباق وصحاف ، الى آنية المطبخ ، الى الورق والكتب .. كان لابد للمرء من ان يحمل كل هذه معه . ولكى انتقل الى هناك مع « تيريز » ، كان من الضرورى اجتياز جبال الألب ، وان اجر خلفى متاعى مائتى فرسخ .. وكان لا بد من اجتياز اراضى عدة حكومات ، وعلى ضوء المعاملة التى لقيتها من اوربا كلها ، كان من الجدير ان استعد - بطبيعة الوضع ، وبعد المحن والنكبات - لأن اصادف عقبات فى كل مكان ، ولأن أجد كل امرىء فخورا بأن يعذبنى بمحنة جديدة ، وبأن يمتهن - فى شخصي - كل حقوق الشعوب والانسانية . ولقد اضطرتنى فداحة نفقات رحلة كهذه ، ومتاعبها ، واخطارها ، الى ان اتدبر مقدما كل صعابها ، وان ازنها واقدرها فى عناية .

وفيما كنت مترددا - بهذا الشكل - حدثت اضطهادات (موتيير) التى اضطرتنى الى الانسحاب . ولم اكن مستعدا لرحلة طويلة ، لا سيما الى (كورسيكا) ، فقد كنت ارتقب ردا من « بوتافوكو » ، ومن ثم فقد لذت بجزيرة (سان - بيير) ، التى طردت منها فى بداية الشتاء ، على ما ذكرت من قبل . وكان الجليد الذى اكتست به (الألب) يجعل من المستحيل على أن ابرح البلاد - عن ذلك الطريق - لا سيما بعد انذار قصير الأمد . **والواقع أن تطرف أمر كهذا ، جعل الصدوع به مستحيلا فلقد كان من العسير ان اطيعه وانا فى مقامى المنعزل المحوط بالماء ، وليس أمامي سوى أربع وعشرين ساعة - بدأت منذ اخطارى بالأمر - لأقوم باستعداداتى للرحيل ، ولأستأجر القوارب ووسائل النقل التى أغادر بها الجزيرة والمنطقة .. كان من العسير أن أنفذ الأمر ، ولو أوتيت اجنحة !**

ولقد أنبأت حاكم (نيداو) بذلك فى ردى عن خطابه ، ثم رحت أتعجل ما استطعت ، فراق هذه البلاد ، التى لم ألق بها سوى الاضطرابات . . وهكذا اضطررت الى العدول عن مشروعى الغالى . . وهكذا أيضا قررت ـ اذ عجزت ، فى قنوطى وثبوط عزيمتى ، عن ان احمل اعدائى على ان يترفقوا بى ـ ان ارحل الى برلين ، بدعوة من السيد المارشال ، تاركا « تيريز » لتقضى الشتاء فى جزيرة (سان ـ بيير) مع متاعى وكتبى ، بعد ان أودعت أوراقى بين يدى دوبييرو . ولقد بذلت كل تعجل ، حتى اننى غادرت الجزيرة فى الصباح التالى لوصول الأمر ، فبلغت (بيين) قبيل الظهر . وقد كادت رحلتى تنتهى هناك تقريبا ، بحادث يجب عدم اغفال ذكره

فما ان تردد اننى تلقيت امرا بمغادرة مقرى ، حتى تدفق على الزائرون من المناطق المجاورة ، لا سيما من أبناء (بيرن) الذين جاءوا ليراءونى ويطيبون خاطرى ، فى أبشع آيات النفاق ، وليؤكدوا لى ان فرصة العطلات وغياب كثير من اعضاء مجلس الشيوخ ، قد استغلت لاصدار هذا الأمر ـ الذى استنكره كل « المائتين » ، على ما قالوا ـ وانذارى به . وكان بين هذا الحشد من المواسين ، بضعة اشخاص من مدينة (بيين) ، وهى ولاية صغيرة حرة ، تحيط بها اراضى جمهورية (بيرن) . . وكان بين هؤلاء شاب يدعى « فيلدرميه » ، كانت اسرته تحتل الصدارة ، وتستمتع بأرفع سمعة فى هذه المدينة الصغيرة .

ولقد الح على « فيلدرميه » فى حرارة ـ باسم مواطنيه ـ كى اتخذ ملجئى بينهم ، مؤكدا لى انهم كانوا تواقين ومتحمسين لاستقبالى . . وانهم يعتبرون مساعدتى على ان انسى المظالم التى عانيتها ، شرفا وواجبا . . وانى لن أجد ما أخشاه من نفوذ اهل (بيرن) بينهم ، فان (بيين) كانت مدينة حرة ، لاتخضع لسلطان احد ، وقد اجمع مواطنوها ـ عن بكرة ابيهم ـ على ان لا يصغوا الى اى طلب يسىء الى !

وعندما رأى فيلدرميه ان ليس بوسعه ان يزعزع اصرارى، أهاب بعدة اشخاص آخرين من (بيين) والمناطق المجاورة ـ بل ومن (بيرن) ذاتها ـ ان ينضموا اليه ويؤيدوه .. وكان بين هؤلاء « كيرشبيرجر » ـ الذى سبق لى أن تحدثت عنه ـ والذى كان يتقرب الى منذ أقمت فى سويسرا ، وقد استطاع ان يجتذب اهتمامى اليه بفضل مواهبه ومبادئه . ولقد كانت أبعد الرجاوات عن توقعى ، واشدها الحاحا ، هى تلك التى راح يبذلها السيد « بارثيه » ـ سكرتير السفارة الفرنسية ـ الذى زارنى مع فيلدرميه ، وراح يستحثنى فى الحاف على أن اقبل دعوته . وقد ادهشنى بما ابداه لى من اهتمام كريم وحار . ولم اكن اعرف السيد « بارثيه » اطلاقا ، ولكنى ـ مع ذلك ـ لمست فى كلماته حرارة وحمية الصداقة ، ورأيت انه كان تواقا حقا الى اقناعى بالاقامة فى (بيين) . ولقد امتدح ـ فى اسلوب رفيع ، طلق ـ تلك المدينة وأهلها ، الذين بدا انه كان على وئام بالغ معهم ، حتى انه كان يدعوهم ، فى كثير من المناسبات ـ فى حضورى ـ رعاته وأهله !

ولقد قوضت هذه الخطوة ـ من « بارثيه » ـ كل تكهناتى . فلقد اعتدت دائما أن ارتاب فى ان السيد دى شوازيل ، كان المصدر السرى لكل الاضطهادات والمظالم التى تعرضت لها فى سويسرا . ولم يؤد تصرف الوزير الفرنسى المقيم فى جنيف ، والسفير الفرنسى فى (سلور)، الا الى تعزيز هذه الشكوك بقوة . كنت ارى النفوذ الخفى لفرنسا فى كل ما حدث لى فى (بيرن) و (جنيف) و (نيوشاتيل) ، وقد خيل الى ان عدوى القوى الوحيد فى فرنسا ، هو الدوق دى شوازيل . فكيف كان خليقا بى ان ارى زيارة (بارثيه) والاهتمام الكريم الذى بدا منه نحو مصيرى ؟ .. **لم تكن مصائبى قد قوضت ما كان يعمر قلبى من ثقة فطرية وسذاجة طبيعية ، ولم تكن التجربة قد علمتنى كيف أتبين فى كل مظهر للود والعطف فخا للايقاع بى ! ..**

وأخذت أبحث فى دهشة عن سبب هذا الكرم من بارثيه ، فما كنت من الغفلة بحيث أصدق انه اتخذ هذه الخطوة من تلقاء نفسه . ولمحت فى مسلكه دعاية ، بل وتظاهرا ، ينميان عن مقصد مستتر ، وكنت بعيد البال عن ان ابصر فى كل هذه العناصر الثانوية البسيطة ، تلك الشهامة الكريمة التى كانت كفيلة بأن تجعل قلبى يغلى غليانا ، لو اننى كنت فى مركز مشابه لمركز محدثى !

وكنت قد تعرفت — فى الماضى — بالشفاليه دى بوتفيل ، معرفة بسيطة ، فى قصر لوكسمبورج ، حيث ابدى لى بعض الكرم . ولقد حرص — منذ تعيينه سفيرا — على ان يظهر انه لم ينسنى ، حتى لقد دعانى الى أن أزوره فى (سلور) . ومع اننى لم ألب الدعوة ، الا اننى تأثرت بها ، اذ اننى لم اعتد ان أعامل بمثل هذا الكرم ، من اصحاب هذه المراكز الرفيعة . ومن ثم فقد حدست — من مسلك بارثيه — ان السيد دى بوتفيل ، وان كان مضطرا الى اطاعة التعليمات فيما يتعلق بشئون جنيف ، الا انه اشفق على فى محنتى ، واعد لى — بما له من نفوذ شخصى — هذا الملجأ فى (بيين) ، حتى استطيع ان اعيش هناك فى سلام ، تحت رعايته . ولقد شعرت بامتنان لهذه اللفتة ، وان لم أر ان افيد منها . ولما كنت قد عقدت العزم على الرحيل الى (برلين) ، فاننى رحت أتطلع فى لهفة الى اللحظة التى انضم فيها الى السيد المارشال ، وانا موقن من اننى لن احظى بالراحة الحقيقية ، والسعادة الباقية ، الامعه .

* * *

• **ورافقنى** كيرشبيرجر — عند رحيلي عن الجزيرة — حتي

(بيين) ، حيث ألفيت فيلدرميه ، وبعض البيينيين الآخرين ، فى انتظارى . وتناولنا الغداء معا فى فندق البلدة ، وكان اول ما فعلته — عند الوصول — هو البحث عن محفة ، اذ كنت معتزما الرحيل فى الصباح التالى . ولقد عاد اولئك السادة — اثناء الغداء — الى تجديد الحاحهم على بالبقاء بينهم ، فى حرارة ، وفى تأكيدات مؤثرة ، حتى ان عواطفى لانت لهم بالرغم من كل اصرارى ، ومن قلبى . **وما ان رأوا أننى بدأت اتزعزع، حتى ضاعفوا جهودهم ، ووفقوا فى ذلك ، حتى اننى ارتضيت — فى النهاية — أن أغلب على امرى، ووافقت على البقاء فى (بيين) .. حتى الربيع المقبل ، على الاقل .**

وبادر فيلدرميه — لفوره — الى البحث لى عن مسكن، وراح يطرى لى فى تحمس غرفة صغيرة تعسة ، فى مؤخرة طابق ثالث من مبنى ، تطل على فناء استطيع ان امتع بصرى فيه ، على مرأى الجلود ذات الرائحة النتنة ، فى مدبغة للجلود . وكان صاحب المسكن رجلا ضئيل الجسم ، وغدا وضيعا ، لا ضرر منه . وقد سمعت عنه — فى اليوم التالى — انه كان سكيرا مقامرا ، سىء السمعة جدا فى المنطقة . ولم تكن له زوجة ولا اطفال ولا خدم . واذ احتبست نفسى — فى غرفتى المنعزلة — فى وحدة كئيبة ، شعرت اننى — فى ابهج بلد فى العالم — قد انسقت فى سكناى ، لأفضل خطة مدبرة للقضاء على رجل بالموت اكتئابا وغما ، فى بضعة ايام قلائل . وكان اشد ما احزننى ، اننى — بالرغم من كل ما قيل لى عن تلهف الاهالى على أن اقيم بينهم — لم اكن الاحظ ، عندما اسير فى الطرقات ، اى كرم فى السلوك ، او اى ود فى النظرات ! .. **ومع ذلك فاننى كنت قد عقدت عزمى تماما على ان امكث هناك ، عندما علمت — فى اليوم التالى بالذات — ورأيت ، ولاحظت بنفسى ، ان المدينة كانت فى اضطراب فظيع من اجلى . وبلغ الكرم بعدد من الناس،**

ان اسرعوا الى انبائى بأننى سأخطر ـ فى اليوم التالى، وبأخشن الأساليب ـ بأن أغادر لفورى البلاد .. اعنى البلدة !

ولم اجد من استطيع ان اعتمد عليه ، فقد تشتت كل اولئك الذين كانوا قد الحوا على فى البقاء .. فاختفى فيلدرميه، ولم اعد اسمع شيئا عن بارثيه ، ولم يلح لى ما ينم عن ان توصياته قد اكسبتنى رضى « رعاته واهله » ، الذين كان يفخر بهم . على ان سيدا من ابناء (بيرن) ، يدعى السيد دى « فو ـ ترافير » ، كان يمتلك بيتا بديعا بالقرب من المدينة ، فعرض على ان يأوينى ، املا فى ان انجو ـ كما قال ـ من الرجم بالطوب . ولم يبد هذا العرض كافيا لاغرائى على ان أطيل مقامى بين هؤلاء القوم المضيافين .

واذ كنت قد بددت بهذا التأخير ثلاثة ايام ، فاننى كنت قد تجاوزت الأربع والعشرين الساعة ـ التى امهلتنيها سلطات (بيرن) لأغادر اراضيها ـ بأمد كبير . ولما كنت اعرف غلظة القوم، فاننى لم أخل من قلق بشأن الطريقة التى قد يعاملوننى بها فى مرورى بأراضيهم . وأعفانى من هذه الحيرة حاكم (نيداو)، بتصرف كان ابعد ما يخطر بالبال . فقد اعرب جهرا عن عدم رضائه عن الاساليب العنيفة التى انتهجها اعضاء مجلس الشيوخ، وذكر ـ بكرامة نفس ـ انه يرى ان واجبه يقتضيه ان يشهد الملأ على أنه لم يكن ذا علاقة بالامر . ولم يتورع عن ان يغادر منطقته ، ليفد لزيارتى فى (بيين) !

ووصل فى اليوم السابق على رحيلى ، غير مستخف ، بل فى كثير من المظاهر ، فقد جاء فى زيه الرسمى وعربته ، مصطحبا سكرتيره . وحمل الى جواز سفر صادر منه، يمكننى من عبور اراضى حكومة (بيرن) ، دون ما خوف من اعتداء . ولقد أثرت الزيارة فى نفسى ، أكثر مما اثر جواز السفر . وما كان شعورى

بهذا التأثر ليقل ، لو ان هذه الزيارة كانت لشخص آخرغيرى، فلست اعرف شيئا اعظم نفوذا على القلب من الشهامة التى تؤدى فى لحظتها المناســبة ، من اجل شخص مستضعف ، اضطهد ظلما !

واســتطعت ــ اخيرا ــ ان استأجر محفة ، بعد عنــاء ، فانطلقت فى الصباح التالى ، مغادرا هذه الأرض القاتلة ، قبل وصول الوفد الذى اريد به تكريمى .. بل قبل ان اتمكن من رؤية « تيريز » مرة اخــرى . اذ اننى ــ حــين ظننت اننى سأمكث فى بيين ــ كنت قد كتبت اليها لتلحق بى .. بل اننى كدت لا اجد وقتا كافيا لأكتب لها بضعة سطور ، انبئها فيها بسوء طالعى الجديد ، ولســوف يتبدى فى الجزء الثالث من « اعترافاتى » ــ **اذا قدر لى أن اولى القوة كى اكتبه ــ** كيف اننى كنت فى الواقع منطلقا الى انجلترا ، وانا اظننى منطلقــا الى برلين .. وكيف ان السيدتين اللتين كانتا تواقتين الى ان تتحكما فى حركاتى ــ بعد ان طاردتانى بمؤامراتهما من سويسرا ، حيث كنت فى قبضة نفوذهما تماما ــ افلحتا ، فى النهاية ، فى ان تسوقانى الى ايدى اصدقائهما !

* * *

• **ولقد** اضفت ما يلى ، عند قراءتى هذه « الاعترافات » على السيد والسيدة كونته ديجمون، والسيد الامير بيجناتيللى، والسيدة المركيزة دى ميم ، والسيد المركيز دى جيينيه :

« انما قلت الحق، فان عرف احد اشياء تناقض ما عرضت، فانما يعرف اكاذيب وافتراءات ، ولو قام عليها ألف دليل .. واذا هو ابى ان يتحرى صحتها ، وان يمحصها معى ، وانا بعد على قيد الحياة ، فهو لا يحب العدالة ولا الحقيقة .. اما انا ،

فانني أعلن بصـوت عال ، ودون ما خوف : ان اى امرىء ، يستطيع - واولم يقرأ مؤلفاتى - ان يصدق بعد ان يتبين بعينيه طباعى ، وخلقى ، ومسلكى ، وميولى ، ومسراتى ، وعاداتى ، اننى رجل عديم الشرف والاستقامة .. فانما هو رجل جدير بأن يخنق » !

بهذا اختتمت قراءة « اعترافاتى » ، والجميع سكوت .. وكانت السيدة ديجمون هى الوحيدة التى بدا عليها التأثر ، فراحت ترتجف بوضوح .. ولكنها سرعان ما تمالكت نفسها، ولاذت بالصمت، كبقية الجماعة .

وهـكذا كانت النتيجة التى خرجت بها من هـذه القراءة ومن بيانى .



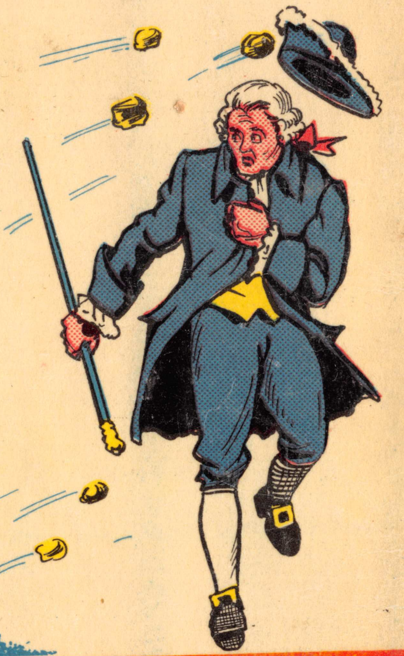
تمت هذه الترجمة . وهى أول ترجمة عربية أمينة،
كاملة ، لكتاب «اعترافات جان جاك روسو»

مطابع الناشر العربى
٨ شارع الصحافة - بالقاهرة

اعترافات

جان جاك روسو

ما أعجب نفوس البشر وعقولهم!.. إن الجنس البشرى الذى يمجد اليوم "جان جاك روسو"، ويضعه فى مصاف أنبياء الفكر ورسل المبادئ، عن حق، إذ أن مبادئ "روسو" قلبت نظم الحياة وغيرت وجه أوربا، قبل أن ينقضى جيل على وفاته.. هذا الجنس البشرى ذاته، اضطهد "روسو" فى أواخر حياته، وأحرق كتبه، ورجمه بالطوب، وطارده حتى اضطره إلى أن يهجر أوربا بأسرها، وينزح إلى انجلترا.. ثم لم يدعه هناك فى سلام!



فى هذا الجزء الخامس والأخير
من أضخم مؤلف أدبى عالمى

يروى لنا "روسو" هذه المحن التى تطالبت عليه، حتى وجد نفسه وحيدًا أعزل ضد المجتمع الأوربى بأسره.. ثم يحدثنا عن الانقلاب الذى أصاب العقل الأوربى فجعله يقدره ويمجده!



يصدرها
حلمى مراد

مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

شركة فن الطباعات ٥٨١٤٩